حين يلتقيان



الكتـــاب : حين يلتقيان
المـــؤلـــف : بهاء الغرايبة
تنسيـق داخلي : سمر محمد
تـدقيـق لغـوي:عبدالله أسامة
الطبعة الأولى: ينـايـر 2018
رقـم الإيـداع : 2017/28435
978-977-6541-56-6 :I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع



بهاء الغرايبة



الإهداء

إلى الخائنة الجميلة:

ما كنتُ لأكتب لولا جرحك..

-١-

هوَ

استيقظتُ من النوم في تمام الواحدة ظهرًا، تبًا للإجازة.. ما أروعها! أنام بعد الفجر وأستيقظ متى أشاء، أزحتُ الستارة عن النافذة، نظرتُ للبحر، كم هو مدهشٌ هذا المشهد! أن تنظر للبحر من نافذة غرفة فندقٍ تقع في الطابق الثاني والعشرين.

أعددت كوبًا من النسكافية، أخذته وعدت إلى النافذة، جلت ببصري على الأبراج المحيطة بالبحر، بارك اللّه الأيدي التي شيّدت هذه التحف، عبثت بهاتفي قليلًا، الواتساب، ثم الفيسبوك كالعادة، رددت على بعض الرسائل، وسجلت إعجابين.

قفزت فوق السرير، أخذت جهاز التحكم، تنقّلت بين الكثير من المحطات، لم أكن أبحث عن شيءٍ محدد ولم أعثر على شيءٍ يثير اهتمامي، تناولت كتاب ماركيز (عشتُ لأروي) وذبت بين صفحاته،

توقفت عن القراءة بعد أن طلبت معدتي الطعام، كنت قد ملأتها قبل أن أنام؛ لأنني أعلم أن الفطور في الفندق سيفوتني.

أخذت حمامًا دافئًا، ارتديت ثيابي، حملت أشيائي المهمة: المحفظة، الهاتف، بطاقة باب الغرفة، ورقة خدمة ركن السيّارة، وكتاب ماركيز.

ركنت السيارة في مرأب المول، قصدت ردهة المطاعم، خياراتٌ عديدة، ومتى حضرت الخيارات رافقتها الحيرة، لست من هواة تجريب الأطعمة؛ طلبت طبقًا من المعكرونة بالخضراوات والدجاج وكأسًا من عصير البرتقال.

أكلت بطريقة أوتوماتيكية، نهضت وصعدت للطابق الثالث، حيث السينما، أنا من عشّاق السينما، أحبها جدًا، شغوفٌ بمتابعة أحدث إصداراتها، وأخبار النجوم.. قرأت أسماء الأفلام المعروضة، ونبذةً قصيرةً عنها، نسيت شيئًا، أنا أحبُّ أفلام الدراما، غير مغرم ألبتة بأفلام الآكشن والرعب، انتقيت واحدًا، رومانسيًا دراميًا موسيقيًا وكوميديًا، هذه النبذة المكتوبة عن الفيلم.

اشتريت تذكرةً للعرض القادم والذي سيبدأ بعد نصف ساعة، جلست في مكانٍ مخصص للانتظار، اختلست النظر إلى المحيطين، كثيرٌ من النساءٍ، بالتأكيدً فالفيلم من بطولة الوسيم (رايان غوسلينج) إضافة إلى أنه رومانسي.

راح عقلي يبدع في تأليف قصة خيالية، بما أنني وحيد، ستأتي فتاةٌ شديدة الجمال، ترى ذلك الشيء المميّز فيّ، فتسألني أن نشاهد الفيلم معًا، طالما قام بذلك، وها هو يعبث بي مجددًا، تفحّصت العديد من الفتيات، لم يكترث لوجودي، حتى لو كان بين يديّ، العظيم ماركيز، والذي أتظاهر بأنني منهمكٌ بقراءته!

طلبت من عقلي الكفّ عن ذلك، أمرته أن يدعني أركّز في القراءة، رجعت لسيرة حياة ماركيز، كتابٌ كبير الحجم، فقراته طويلة، الكلمات مكتوبة بخطٍّ صغير، إنه من النوعية التي تُرهق، لو وقع هذا الكتاب في يدي قبل ثلاث سنوات لم أكن لأقرأه قط، ولكن بعد ثلاث سنواتٍ من القراءة، صارت قراءة مثل هذا الكتاب أمرًا عاديًّا جدًا.

- أأنت وحدك؟

كأنني سمعت صوتًا ناعمًا دافئًا يخاطبني، هيئ إليَّ أن عقلي عاد يلهو بي، غير أنه لم يكن كذلك، نظرت لوجه حسناء، ربما أنها ظنتني شخصًا تعرفه.

- أتقصدينني؟

سألتها في حالةٍ ممزوجة من الخجل واللهفة.

- نعم، أقصدك أنت، هل معك أحد؟

- لا.

- ما هو الفيلم الذي ستشاهده؟

- لا لا لاند.

- ممتاز إنه نفس الفيلم الذي سأشاهده.

اعترتني الحيرة، خشيت أن أكون ضحية كاميرا خفية، فحافظت على جديتي.

- عفوًا، يبدو أنكِ مخطئة.

- مخطئةٌ في ماذا؟

- هل تعرفينني؟

- لا!

- هل هذا برنامج كاميرا خفية؟

ضحكتْ، وردّتْ عليّ ساخرة:

- لا، هذا ليس برنامج كاميرا خفية، وسأسألك شيئًا مجنونًا.

- ما هو؟

- أتسمح لي بمشاهدة الفيلم معك؟!







المتمرّدة، هكذا كنت دومًا، كسرت الكثير من القيود، تعرضت للعقاب الشديد مرات ومرات إلا أنني لم أرضخ، ولن أرضخ؛ لذا قررت هذا اليوم القيام بشيء مجنون.. آخر.

استيقظت تمام الواحدة ظهرًا، أنا في إجازة، أنام وأصحو كيفما أشاء، فتحت هاتفي، الواتساب، ثم الفيسبوك، رددت على بعض الرسائل، رميته فوق السرير، دلفت إلى المطبخ، أعددت سندويشة تونة، ثم حسوت كوبًا من النسكافية، استحممت، ارتديت ثيابي، وخرجت.

ركبت سيارتي، وقصدت السينما، أحبُّ السينما جدًا، أنا شغوفة بالأفلام، وخصوصًا الأفلام الرومانسية، قلّبت محطّات الإذاعة، حسين الجسمي، وأحب حسين الجسمي أيضًا، وأكره إقرانه بالنحس، أيمكن لصاحب مثل هذا الصوت أن يكون نحسًا؟!

إنها أغنيته الجديدة الرائعة:

رحلت وامتلى صدري غياب وما قدرت ألقاك

ويحرقني حنين الانتظار وغيبة ظلالك

(قهوة وداع) هذا هو اسم الأغنية، لا أعلم لماذا أعشق الأغنيات الحزينة، أعيشها وكأنها مكتوبةٌ لي، ها قد دمعت عيناي، لا بأس من ذرف بعض الدموع، إنها مثلما قرأت مرةً على الفيسبوك، ترياق الحياة.

نظرت للبحر، كم هو رائع! يبدو وكأنَّه رائق المزاج اليوم، أرسلت إليه القبلة اليومية، لا يعرف ما الذي يعنيه البحر إلا المحرومون منه.

ركنت السيارة في المرأب، دلفت إلى ستاربكس، كوب الكابتشينو مفتاح يومي في المول، حملت الكوب وصعدت إلى الطابق الثالث، حيث السينما، حجزت تذكرة لفيلم (لا لا لاند)، قرأت عنه كثيرًا في الأمس، فيلم رومانسي درامي موسيقي، والأهم أنه من بطولة النجم الوسيم رايان غوسلينج، ولي معه ذكريات جميلة.

باقي على بداية الفيلم نصف ساعة، جلست في قاعة الانتظار، أخرجت رواية خالد الحسيني (ألف شمس مشرقة) وشرعت بالقراءة، إنها من نوع الروايات التي لا تستطيع رفع رأسك منها، تشدك إليها رغمًا عنك.

شعرت ببعض الألم في عنقي، حركته قليلًا، خيّل إلي أنني أحلم، أحدهم يقرأ! إنها معجزة، هذا أول وجهٍ عربيّ أراه يقرأ في هذا المول!

عنّت لي فورًا تلك الفكرة المجنونة، ولم لا؟

إنه وحده ولا يوجد في يده قيد الزواج، ويبدو أبله، فراستي لا تخطئ، تلك إشارات جيدة.. حسنًا، لنفعلها يا صديقتي، هيا بنا.

- أأنت وحدك؟

ما بك تتلفت أيها الغبي؟ نعم أحدثك أنت.

- أتقصدينني؟

أخيرًا نطقت يا روح أمك.

- نعم، أقصدك أنت، هل معك أحد؟

- لا.

- ما هو الفيلم الذي ستشاهده؟

- لا لا لاند.

- ممتاز إنه نفس الفيلم الذي سأشاهده.

تبًا لك، ما بالك؟ أهذه أول مرة تحدث فيها فتاة؟!

- عفوًا، يبدو أنك مخطئة.

- مخطئةٌ في ماذا؟

- هل تعرفينني؟

- لا!

- هل هذا برنامج كاميرا خفية؟

ألم أقل لكِ أنَّه أبله؟ كاميرا خفية، لا ليست كاميرا خفية يا مغفل.

- لا، هذا ليس برنامج كاميرا خفية، وسأسألك شيئًا مجنونًا.

- ما هو؟

- أتسمح لي بمشاهدة الفيلم معك؟



-٣-

هوَ

أنا في حالة من الذهول، لم أتخيّل يومًا أن شيئًا كهذا ممكن الحدوث، إنه يحدث، أعلم ذلك، ولكن أن يحدث معي، فذلك ما لم يخطر لي على بال..

أنا خجولٌ جدًا، ليس بوسعي صرف فتاة طلبت مني مشاهدة فيلم معي، ولكنني لست فاجرًا، لي مبادئي وقيميَ التي تمنعني من ممارسة الرذيلة.. أنا غير فالحٍ إلا في الكلام والتخيّل، ليس الكلام المنطوق، بل المكتوب.

إنها مغامرةٌ محفوفة بالمخاطر، فليس من الممكن أن تأتي فتاة عاقلة وتطلب من شاب مشاهدة فيلم رومانسيّ معه، ولكنها مغامرةٌ جميلة، فلربما أخرج منها بشيء.

ترددتُ كثيرًا قبل أن أومئ برأسي موافقًا، كان وجهها خليطًا من غضب وخجل، نظرتُ إلى يدها، كانت تحمل كتابًا، رواية (ألف شمس مشرقة)، يا لها من بداية!

كم أحببتُ هذه الرواية، إنها تحفةٌ فنيّة نفيسة، حسنًا ها قد وجدتُ موضوعًا نتحدث فيه.. أنا قليل الكلام، صموت، لا أحب الخوض في الكلام، وأتجنب الجدال، معاري في الجدد، يظنونني متكبّرًا، لا بأس، أنا لست من المرضى بداء العصر؛ الناس تقول كذا وكذا، آخر همي هو كلام الآخرين، في الحقيقة عانيت كثيرًا حتى وصلت لهذه المرحلة من اللامبالاة.

أنا في حيرةٍ من أمري، أأدعوها للجلوس؟ ربما لا تريد ذلك، لعلّها لا ترغب في أنٍ يراها أحدٌ ما مع شخص غريب، كم أنا غبيٌّ أحيانًا! فتاةٌ تأتي بكامل إرادتها وتطلب مني مشاهدة فيلم معي، وتخشى الآخرين! إنه خيالي المريض مرّةً أخرى.

- أبإمكاني الجلوس؟

الحمد لله، أراحتني من عناء التفكير.

- أنا آسف، كان عليّ دعوتكِ، ولكن المفاجأة أذهلتني.

- أية مفاجأة؟!

صمتٌّ، لم أشأ أن تأخذ عني تصورًا خاطئًا.

- ماذا تقرأ؟

- سيرة حياة ماركيز.

- تبدو شغوفًا بالقراءة.

- بالتأكيد.

- أنا أقرأ ألف شمس مشرقة.

- رواية رائعة.

- أقرأتها؟!

- بالتأكيد.

هل هي فتاة مثقفة؟ أم أنها تتصنع ذلك؟

- أتعلم بأنك أول شاب عربيّ أراه يقرأ في هذا المول؟

شعرتُ بالزهو، عنّ لي أنها اختارتني لأنها رأتني أقرأ، إذن فهي تتوسم فيّ خيرًا، ربما لا تكون كتلك الصورة التي رسمتها لها.

- وأنتِ أول فتاة عربية أراها تقرأ.

ابتسمتْ، ابتهج قلبي بصورةٍ عجيبة، اجتاحني اضطراب جميل، لم أدرِ ماذا أفعل، بالرغم من كل الروايات التي قرأتها والأفلام التي شاهدتها، ما زلت مصابًا بالقصور في التفاعل الاجتماعي، هذا الداء اللعين الذي عجزت عن الشفاء منه.

- قرأت الحب في زمن الكوليرا ومائة عام من العزلة لماركيز، كاتب غرائبي، قلمه فذ، ذو بصمةٍ خاصة، وهذا ما ميّزه عن نظرائه، يجب على الكاتب أن يمتلك بصمته الخاصة إن أراد النجاح.

ما أحلى حديثها، إنها تبدو مثل حلمٍ بديع في بداياته.

- قرأت عداء الطائرة الورقية ورددت الجبال الصدى وألف شمس مشرقة لخالد الحسيني، وهو أيضًا قلمٌ مبدع، أوافقكِ الرأي، على الكاتب أن يمتلك أسلوبه الخاص إن أراد النجاح.

- لماذا قلتَ أسلوبه ولم تقل بصمته؟

- لأن الأسلوب يسبق الكتابة، أما البصمة فتأتي بعدها.

لم أتخيل يومًا أن أتحدث مع فتاة بهذه السلاسة، كان قصوري في التواصل مع الفتيات يفوقه مع الذكور أضعافًا مضاعفة، طالما تصوّرتُ المرأة مثل جوهرة ثمينة، وأنا شحيح المال، لا أملك إلا النظر إليها من بعيد، الأمر يختلف حين يتعلّق الأمر بالكتابة، يتحول قصوري إلى تدفق من حكم وطُرف، تواصلتُ مع العديد من الفتيات عن طريق الفيسبوك، إلا أنه تواصلٌ مضبوط بقواعد أخلاقية، كنتُ كلما هممتُ بكسرها، أرى إشارة تردعني.. أما الحديث المباشر، فذلك نادر الحدوث.

- حان وقت العرض، هلّا ندخل؟



-٤-



يخيّل إليّ أنه الحالة الخاصة التي بحثت عنها، شابٌ يقرأ، قليل الكلام، خجول، تردد كثيرًا قبل أن يوافق على طلبي.

بين يديه سيرة حياة ماركيز، سمعت كثيرًا عن هذا الكتاب، وهو على رأس قائمة الكتب التي سأقرأها بعد أن أنهي هذه الرواية، إنه منكمش مثل عصفورٍ خائف، ترى بماذا يفكّر؟ لا شك في أن الظنون تلعب برأسه، يتخيلني باغية، ولكن في الحقيقة أنا لست كذلك.

لقد تركني واقفة لم يدعني إلى الجلوس، حسنًا، لا بأس..

- أبإمكاني الجلوس؟

بماذا تفكّر؟ هل أنت قليل الذوق لهذي الدرجة؟ ألن تسمح لي بمجالستك؟ إياك أن تفعل، إياك..

- أنا آسف، كان عليّ دعوتكِ، ولكن المفاجأة أذهلتني.

- أية مفاجأة؟!

أبقيَ في الدنيا شبابٌ مثلك؟ أم تراك تتظاهر بذلك؟

- ماذا تقرأ؟

- سيرة حياة ماركيز.

- تبدو شغوفًا بالقراءة.

- بالتأكيد.

- أنا أقرأ ألف شمس مشرقة.

- رواية رائعة.

- أقرأتها؟!

- بالتأكيد.

أحقًا أنه يحبّ القراءة؟ أم تراه يتصنّع ذلك ليحظى بالإعجاب؟

- أتعلم بأنك أول شاب عربيّ أراه يقرأ في هذا المول؟

ها قد بدأنا، أرى ذيلك يتمدد أيها الطاووس، ربما أنني كنت مخطئةً بشأنك.

- وأنتِ أول فتاة عربية أراها تقرأ.

ياه! لقد بدّد ظنوني ببساطة ردّه، يجب عليّ ألا أنسى، أنا في مهمة محددة، لا ينبغي التفكير في غيرها، ولكنه شابٌ فريدٌ من نوعه، لقد أتاح لي عملي الاختلاط بالكثير من الشباب، وكثيرٌ منهم في هذه الأيام، وللأسف، مسوخٌ من الشباب.

لا أعرف، يبدو أنني ورطت نفسي في أمرٍ لست متهيئةً له، على كلٍّ، سينتهي قريبًا، لا ضير ببعض الساعات من الجنون.

ما باله؟ لا يبادر في فتح الحديث، أيريد أن يريني بأنه ثقيل؟ أم أنه حقًا صموت؟ لا بأس..

- قرأت الحب في زمن الكوليرا ومائة عام من العزلة لماركيز، كاتب غرائبي، قلمه فذ، ذو بصمة خاصة، وهذا ما ميّزه عن نظرائه، يجب على الكاتب أن يمتلكً بصمته الخاصة إن أراد النجاح.

إنه يطهو الكلام جيدًا قبل أن يقدّمه.

- قرأت عداء الطائرة الورقية ورددت الجبال الصدى وألف شمس مشرقة لخالد الحسيني، وهو أيضًا قلمٌ مبدع، أوافقكِ الرأي، على الكاتب أن يمتلك أسلوبه الخاص إن أراد النجاح.

- لماذا قلت أسلوبه ولم تقل بصمته؟

- لأن الأسلوب يسبق الكتابة، أما البصمة فتأتي بعدها.

مر زمنٌ طويل على مثل هذا الحديث الجميل، الناس لا تأبه بالقراءة، إنه زمن المادة الخالية من الروح، زمن المال الذي يشتري أيّ شيء، حتى الأجساد..

لقد نكأ هذا الشاب جرحي، عجز الجميع عن السيطرة عليّ، وأنا بدوري عجزت عن السيطرة على قلبي، ها هو يخفق ذلك الخفقان الذي أعرفه جيدًا، ولكن يا عزيزي لا تنسَ، لقد أعفيتك من عملك منذ سنوات.

آن أوان إنهاء هذا الحديث الجميل..

- حان وقت العرض، هلّا ندخل؟



-٥-

هوَ

حضر الشيطان بالبريد المستعجل، راح يوسوس لي بأن هذه هي الفرصة المثالية، بيد أنني أردعه بالصبر والترقّب طمعًا في روايةٍ جديدة!

ذهبتُ لشراء كأس كابتشينو وزجاجة ماء، تشجّعتُ وسألتها إن كانت تريد شيئًا..

- كابتشينو وزجاجة ماء، من فضلك.

إذن فهي تحب الكابتشينو مثلي، جلبت المشروبات ودلفنا إلى قاعة العرض، مشيت بجوارها في الممر، سألتني:

- لماذا اخترتَ هذا الفيلم تحديدًا؟

- لأنني من عشاق الدراما والموسيقى.

- والرومانسية؟!

- والرومانسية.

- يبدو أنه سيكون لنا حديث مطول.

غمرتني السعادة، أخيرًا عثرت على فتاةٍ جريئة، ناهيك عن أنها مثقفة وجميلة أيضًا.

في مثل هذه الأوقاتِ، تكون قاعات العرض شبه فارغة، جلسنا في الصفوف الخلفية، أُضيئت الشاشة، بدأت فترة الدعايات، يلحّ عليّ سؤال أود أن أطرحه عليها، ولكنني خائف وخجول، عببتُ عدّة أنفاس، كررت السؤال في نفسي كثيرًا، وأخيرًا التفتُّ إليها، وسألتها:

- هل أنتِ معتادةٌ على فعل هذا؟

وكأنها كانت تترقب السؤال منذ زمنٍ طويل، ردّت بهدوء:

- إلى حدٍّ ما.

- كيف ذلك؟

- لا تخف، أنا لست كما يوسوس إليك شيطانك، وأرجو أن تكبحه وألا تسمح له بإنهاء هذا اليوم بطريقةٍ سيئة.

كان تهديدًا مبطّنًا كافيًا لزجري عن التفكير في شيءٍ مشين، الوقوع في مشكلة مع امرأة، كارثة لا تحمد عقباها، رددت عليها بصوتٍ متهدج:

- أنا لا أفكر فيك بصورةٍ سيئة.

– لا بأس، لا تفهم الأمر بأنه تهديد، إنه مجرد تحذير.

صمتُّ ونظرت إلى الشاشة، حان وقت العرض.. بدأ المشهد الأول بغاية الروعة، شارع مزدحم بالسيارات، تخرج فتاة من إحداها وتشرع بالغناء، فيخرج الجميع من سياراتهم ويشاركونها في الغناء والرقص.

اختلستُ نظرةً بطرف عيني، فرأيتُ ابتسامةً عريضة فوق محياها، ترى ما هو اسمها؟ كم أنا مغفّل، لماذا لم أسألها؟!

تبًا للتعليم الذي لا ينمّي مهاراتنا الاجتماعية، لا بأس، حين ينتهي الفيلم سأدعوها لتناول فنجان قهوة، كيف سأركّز في الفيلم وهي بجانبي؟!

ربما أنها عزباء وتبحث عن عريس، إنه زمن عجيب، ولكن ما الضير في ذلك؟ لم لا تبحث الفتاة عن رجلٍ يناسبها؟ لو سمع أهلي ما أقول لخالوني جننت، أو تخلّيت عن شرفي، الحقيقة أن الكتب غيرتني كثيرًا، وبدّلت نظرتي الجامدة للأشياء، صرت أكثر مرونة، لا أتبنى آراء ثابتة، كل مسلَّمةٍ قابلة للتغيير، باستثناء وجود الله وبعض العقائد.

ربما تكون فتاةً من اللاتي يبحثن عن التسلية ليس إلا، مجرّد حديث عابر، وبعدها ينتهي الأمر، كم أنا محظوظ! يبدو أنني سأحظى بقصّةٍ رائعة، يجب عليّ ألا أفوّتها مهما كلّف الأمر.

أعتذر منك يا (إيما) لقد شغلتني التي بجانبي عنك، (إيما ستون) الممثلة خفيفة الظل والدم، حسنًا لا بأس، سأعود لمشاهدة هذا الفيلم مرةً أخرى.

وجود الموسيقى في الفيلم أثار شجوني، رحت أرسم سيناريوهات لما سيحدث بيننا لاحقًا، أتخيلنا في قصة عشق مجنونة، أنا أعاني من القصور الاجتماعي، لكن حين تتكسّر بعض الحواجز، تنطلق شخصيتي الذكيّة المرحة من قيودها، إلا أنني أخشى ألا تتمهل حتى تأتي تلك اللحظة.

ها هو خيالي يعبث بي مجددًا، ما الذي سيغريها بالبقاء؟ ما دامت بهذه الجرأة فستبحث عن شخص آخر وآخر حتى تجد ما يناسبها، لماذا لم أخبرها بأنني كاتب؟ ربماً أن الفرصة المناسبة لم تحن بعد، ستكون تلك المفاجأة بمثابة الورقة الرابحة بيدي، سألجأ لها عند الضرورة، لا يمكن للفتاة أن تقاوم فكرة الارتباط بكاتب، ذلك ما عرفته من خبرتي.

وبما أنها تحب القراءة، فستذهل عندما تعرف، ستصاب بالجنون، وستطلب مني قراءة أعمالي، وحينما ترى مهارتي في الكتابة، لن تفرّط بي مهما حدث.

ثمة شيء غامض يخبرني بأن وراء هذه الفتاة قصةً عجيبة، وبأننا سنكون ثنائيًا مختلفًا، إنه حدسي الذي لم يصدق مرةً واحدة!

إنها مجرّد فتاة راغبة في اللهو ليس إلا، ربما تصنّعت العفّة لترى ردة فعلي، أهناك فتاةٌ عفيفة تطلب من شاب الدخول معها لمشاهدة فيلم رومانسي؟ إنني مجرّد أبله، ولو كان شخص آخر في مكاني...

من أين أتيت أيتها الفتاة؟ وهل ستقضين مضجعي مجددًا؟ ما زال جرحي نديًّا، فأَرجوكِ دعيه يرقد بسلام، لا تفتقيه.

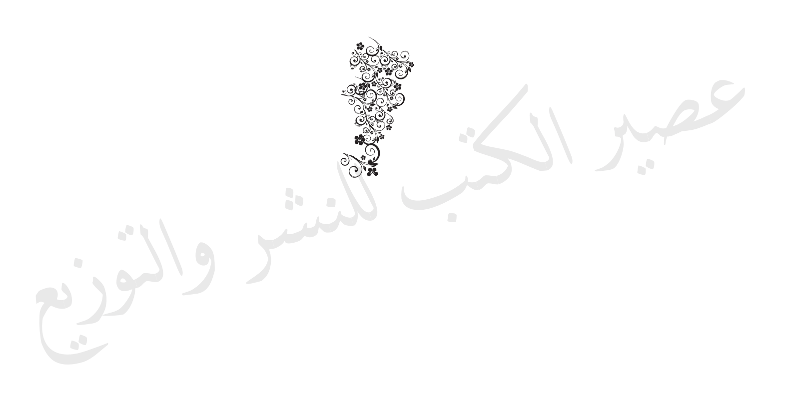
ها قد انتهى الفيلم، لنر ما الذي سيأتي بعده..

- فيلمٌ جميل.

قالت. خشيتُ أن تفتح معي حوارًا في موضوع الفيلم، فحينها سأبدو أحمق لا يشقّ له غبار.

- لم يخب أملي.

- حسنًا تشرفت بمعرفتك، عليّ أن أغادر الآن، مع السلامة.



-٦-



حالة هذا الشاب تختلف عن كل الذين سبقوه، إنه نقيٌّ بصورةٍ مريبة، لم يبق على وجه الأرض من يملك مثل هذه السمات.

قبل الدخول إلى قاعة العرض، ذهب ليجيء بشيء يسليه، إنه قليل الذوق، أو ربما يكون متوجسًا خيفةً مني، لا بأس، بصراحة، معه حقٌّ بذلك، التفت إليّ قبل أن يصل المحاسب..

- تريدين شيئًا؟

ها قد فطن لوجودي، ربما ظنني فتاةً رخيصة، كم أنت مخطئ..

- كابتشينو وزجاجة ماء، من فضلك.

نظرتُ إلى وجهه، يبدو متعبًا كثيرًا، إنه مثلي ولا ريب، آتٍ من بلاد بعيدة، هو غريبٌ ولا شك، لم يسألني عن اسمي أو بلدي، يكتفي بالرد على الأسئلة، الأكيد أنه أبله، ها أنا أنافس دستويفسكي!

أخذتُ زجاجة الماء وكوب الكابتشينو، ماذا؟! جلب كوب كابتشينو وزجاجة ماء! اصمت أيها القلب، أنا آمرك بذلك، اصمت فورًا.

مخطئ من ظن أنه يستطيع معرفة إنسان، الإنسان هو الشيفرة مستحيلة الحل، أنا أعرف ذلك جيّدًا، طالما خُدعت، تلقيت العديد من الصفعات، من تحسبه موسى يكون فرعون، والعكس يحدث كثيرًا أيضًا.

مشينا إلى قاعة العرض، ليس ثمة الكثير من المشاهدين في مثل هذا الوقت، لذا ربما نكون وحدنا أو رفقة رهط، خطر لي سؤاله عن سبب انتقائه هذا الفيلم، ولأنني متهورة ولا أسمح لنفسي بالتفكير كثيرًا..

- لماذا اخترتَ هذا الفيلم تحديدًا؟

- لأنني من عشاق الدراما والموسيقى.

- والرومانسية؟!

- والرومانسية.

- يبدو أنه سيكون لنا حديث مطول.

ابتسم، خُيِّل إليه أنني سأعيش معه قصة حب، لا يعرف بأنه سيكون أحد شخصيات قصصي، وأن جفاف مخيلتي دفعني إلى فعل ذلك، فأنا في الآونة الأخيرة لم أعد أجد الحكايات في رأسي، فرحتُ أصطنعها.

جلسنا في الصفوف الخلفية، ومضت الشاشة، بدأ وقت الدعايات، كم أعشق هذه الشاشة، كنت أتمنى أن أصير ممثلة، لكن لا أحد يصير ما يحلم به في أوطاننا، تخليت عن ذلك الحلم منذ زمنٍ بعيد، آخر مرّةٍ مثّلت بها كانت في الصف التاسع، وبعدها حرّم عليّ ذلك.

- هل أنتِ معتادةٌ على فعل هذا؟

أخرجني صوته على غير المعتاد من لجة أفكاري، لا ضير سأتلاعب بخيالك، إن كنت تملك خيالًا طبعًا.

- إلى حدٍّ ما.

- كيف ذلك؟

- لا تخف، أنا لست كما يوسوس إليك شيطانك، وأرجو أن تكبحه وألّا تسمح له بإنهاء هذا اليوم بطريقةٍ سيئة.

نحن غريبان، والدولة التي نحن على أرضها لا تقبل بافتعال المشاكل، ترحّل المتسبب بها إلى بلاده في التو واللحظة، وذاك ما يعطيني الأمان التام فيما أفعله، أية محاولة لخرق الحدود، ستكون نتائجها وخيمة، رددت عليه بتهديد ناعم لئلا تسوّل له نفسه التمادي، فمهما كانت أخلاقه، فهو في النهاية رجل!

- أنا لا أفكر فيكِ بصورةٍ سيئة.

- لا بأس، لا تفهم الأمر بأنه تهديد، إنه مجرد تحذير.

صمتنا وحدقنا في الشاشة، بدأ الفيلم بمشهدٍ رائع، فتاةٌ مجنونة تخرج من سيارتها وسط شارع مزدحم وتبدأ بالغناء، يخرج الجميع

ويشاركونها في الغناء والرقص، أنا عاشقةٌ للجنون.. وللموسيقى أيضًا، توطدت علاقتنا منذ زمن، أنا قادرةٌ على معرفة اسم العازف فور سماعي لمعزوفته، طبعًا إن كان من المشاهير.

استرقت النظر إلى الأبله الجالس بجانبي، إنه شارد، المسكين لا بد أنه يفكّر فيما سيحدث بعد أن نخرج من هنا، لا بأس، دعني أستمتع بالفيلم إذن.

الثنائي المفضل عندي (إيما ستون ورايان غوسلينج) إنهما مندمجان إلى أبعد حد، ترى لمَ لا يتزوجان؟ آه نسيت...

انتهى الفيلم المدهش، من أجمل الأفلام التي شاهدتها في هذه السنة، لعلّي أعود لمشاهدته تارةً أخرى، ولكن وحدي.

يجب أن أوقظه، إنه غارقٌ بأفكاره..

- فيلمٌ جميل.

فكّر قليلًا، ثم قال:

- لم يخب ظني.

ها قد حان وقت الوداع:

- حسنًا تشرفت بمعرفتك، عليّ أن أغادر الآن، مع السلامة.



-٧-

شمسٌ آفلة

صعقتني المفاجأة، هكذا قرّرت أن تغادر دون أن تترك أي أثر، ظللتُ في مقعدي، لم أقوَ على الحركة، رأيتها تنسلُّ من جانبي وتغيب مثل شبح، لم أصحُ إلا بعد دقائق، نهضتُ وسرت إلى خارج القاعة، تلفّت باحثًا عنها بلا فائدة، لا أعرف ماذا أفعل، وقفت قليلًا عند باب السينما، ثم جلست في قاعة الانتظار، هيئ إليّ أن حشدًا كبيرًا يراقبني ساخرًا، كيف أضعتَ مثل هذه الفتاة؟ كم أنا أحمق.

تظاهرت بأنني أقرأ، ولما تأكدت أن لا أحد ينظر لي، خببت إلى أقرب مخرج، شعرت أن ثقلًا هائلًا يجثم على صدري، يمنعني التنفس، هربتُ، وقفتُ بجانب البحر، تسرّبت ملوحته إلى عينيّ، دهمتني رغبةٌ عارمةٌ بالبكاء، اقتعدتُ مقعدًا قريبًا، طفرت بعض الدموعِ من عينيّ، سألت نفسي، ترى لمَ أنا حزين؟ أأبكي بلاهتي أم أنني أبكي تلك الغريبة؟!

بدأت الشمس بالهبوط إلى حضن البحر الذي راح يتلوّن حبًّا وشوقًا، مال لونه إلى الأصفر، إنني بحرٌ وحيد، لا شمس لي أحتضنها، إنني مجرّد غريب نبت على طرف الحياة، ولما ظنّ أنها أخيرًا اعترفت بوجوده، دفعته إلى الجانب مجدّدًا.

أخرج ورقةً، كتب في رأسها، شمسٌ آفلة، وضعها داخل كتاب ماركيز، عاد إلى المول، دار به يبحث عنها، اعتراه التعب واليأس، هبط إلى موقف السيّارات، ركب سيّارته وعاد إلى غرفته في الفندق.

صعد إلى الطابق الثاني والعشرين، وقف بجانب النافذة، جال بعينيه على المدينة، حتى لو كانت عيناه تلسكوبًا فلن يعثر عليها، عرف ذلك فانتابه القنوط، جلس إلى المكتب وبدأ يكتب..

شمسٌ آفلة



-٨-

بحرٌ مفقود

عدوتُ هاربة، خشيت أن يلحق بي مثلما حدث في السابق، بيد أنه لم يفعل، بقي جالسًا في مكانه، حتى إنَّه لم يقل شيئًا حين هممت بالمغادرة، ارتسمت على وجهه نظرة حائرة أقعدته. خفق قلبي، رجاني أن نعود، لم أطعه، طالما حذرته من الخروج عن القواعد، لماذا لم يلتزم هذه المرّة؟ عليه أن يتحمّل تبعات ذلك، لا شأن لي، فليحزن، فليتمزق، لن آبه بك، لن أعِرك أدنى اهتمام حتى لو شققت صدري.

ها هي الدموع تنهمر من عينيّ، أأنت مرتاحٌ الآن؟ تبًا لك تبًا تبًا تبًا.

حدّق بعضهم إليها، فطنت لوجودهم، فهرولت إلى أقرب مخرج، ركضت إلى أن وصلت حافة البحر.

اتكأت بيديها على الحاجز الحديدي، لم تقوَ على حمل رأسها المتخم بالحزن، مال إلى الأمام، هطلت دموعها غزيرة، كادت تقفل

راجعةً إلى المول، غير أنها أقلعت في آخر لحظة، سارت منكسرةً إلى مقعدٍ قريب، جلست، نظرت إلى البحر والشمس المثقلة، والتي أخذت تستسلم وتحط في حضن بحرها الحنون.

أنا شمسٌ وحيدة، لا بحر لي، أنا غريبةٌ نبتت على طرف الحياة، وكلما حاولت الدخول في حضنها، دفعتها خارجًا بكلتا يديها وأقفلت الباب بمزلاجٍ فولاذيّ.

أخرجت ورقةً كتبت في رأسها، بحرٌ مفقود، سهمت قليلًا قبل أن تضع الورقة في كتاب ألف شمس مشرقة، غصبت قدميها على المشي، رجعت إلى المول وكأنها مجرمٌ يستتر عن أعين الناس، ركبت سيّارتها وغادرت بسرعة.

دخلت البيت، ألقت بجسدها فوق السرير، بكت كثيرًا، شعرت أنه ذلك الحزن الجميل الذي يبعث فيها روح الإبداع، نهضت، جلست خلف مكتبها، وشرعت تكتب..

بحرٌ مفقود



شمسٌ آفلة

التقيتُ اليوم فتاةً هاربة من لوحةٍ سريالية، جميلة جدًا، أحببتها من أول نظرة، لا أعرف إن كنتم تؤمنون بالحب من أول نظرة، إلا أنني أفعل، أنا أؤمن بالحب في جميع حالاته، وأعرف أنه جميلٌ كيفما كان، وأعلم جيّدًا أن للحب مراحل لا بدّ أن يمرّ بها، وعمق الجرح يتناسب طرديًّا مع المرحلة التي يقف عندها.

لكن أن تعيش جميع مراحل الحب في يومٍ واحد، فذلك أمرٌ نادر، وهذا ما حدث لي.. هل رأيت إنسانًا ذات مرّةٍ هيئ إليك أنه نصفك الآخر أو مرآتك الحقّة؟ هل التقيتَ أحدًا فهمس بداخلك صوتٌ قائلًا: إنني أحبه أو سأكمل حياتي معه أو يا إلهي أين رأيته؟

أنا حدث لي ذلك، عثرتُ على فتاةٍ عشتُ معها طويلًا، لا أعرف أين، لكنني متأكدٌ أن ذلك حصل، ولذا فأنا أعرف عنها كلّ شيء.

ولِدَتْ في بيتٍ مأزوم، الأب رجلٌ شرقيٌّ جدًا، يعدُّ نفسه إله البيت، كان ديكتاتورًا صارمًا، أوامره يجب أن تطاع دون نقاش، تنفّذ بلا تفكير، وأيّ خلل يقود إلى عقابٍ وخيم، الأم مهيضة الجناح، ليس لها من الأمر شيء، خادمة بمسمى زوجة وأم.

كان لها ثلاثة أخوة وأختان، ولسوء حظها أنها خرجت إلى الحياة بعد مجيء الذكور، مما ضاعف من مقدار القمع.

قاموا بتربيتها وإعدادها كي تكون ربّة بيتٍ ممتازة، علموها منذ نعومة أظفارها كيف تُمسك جيّدًا بالمكنسة، والطرق المثلى لغسل الأطباق والثياب، والأهم، الوسائل المجرّبة في تحمّل الضرب وكتمان الأنين.

كانت تنال العقاب على كلّ شيء، حتى لو اقترفت فتاةٌ في آخر الدنيا ذنبًا، تُضرب هيَ، حتى تتوب عن مثل تلك الأفعال المشينة قبل أن ترتكبها، ولما بلغت السادسة من عمرها أخذوها إلى المدرسة وهم يوقنون أنها غبيّةٌ لن تُفلح.

ولما عادت بعد أوّل يوم، أصرّ أبوها الأميّ على تدريسها، وكلما شعر بأنها أخطأت عالجها بصفعة، سال الدم من أنفها فوق درسها الأول، ارتعبت، نادت على أمها، فحذّرها من القدوم، فلم تأتِ، رأت أباها بصورة وحشٍ مرعب، خافت من النظر إلى وجهه، ظلّت تحدّق في

الصورة الموجودة في الكتاب، والتي كانت لطفلةٍ تجلس فوق أرجوحة خلفها أبوها بابتسامته العريضة.

اجتهدت لتحفظ الدرس طمعًا في الخلاص من براثن الوحش، غير أن خوفها أغلق أبواب عقلها بقفلٍ صلب، ظلت تتلقى الصفعات، وواصل الزعيق حفر أخدودٍ في نفسها، تعب الوحش، خبت قوّته، لا، بل ارتوى عطشه، شرب دماء رعبها، ثمل، فنفّس غضبه، دعا ابنه الأكبر ليأخذ مكانه، خير خلفٍ لخير سلف.

كان يراقب ما يفعله أبوه، ودّ لو استطاع منعه من ضرب أخته المسكينة، ألجمه خوفه من هذا الوحش المتنكّر في هيئة إنسان، إلا أنه ما إنْ حلّ بدلًا منه، حتى راح يكيلُ لها صفعاتٍ تكاد تفوق قوّتها قوّة صفعات الأب، وهي تنظر إليهما بأعينٍ مرعوبة، تسأل بأيّ ذنبٍ تُقتل طفولتها، تتوسّل أخاها ألا يكون مثل أبيهما، ألا يكون جشعًا، أن يرضى بالقليل، ألّا يسيل المزيد من دمها، وألا يعمّق الأخدود أكثر.



بحرٌ مفقود

مثل بحرٍ ساكن، تخاله خاويًا من الحياة، إلا أن الحياة كلّها في باطنه.. ظنّ أنه يستطيع خداعي، أنني سأعجز عن سبر غوره، لا، نفذتُ إلى داخله فرأيتُ كثيرًا مما يخفي، وإليه سأكتب وعنه سأحكي.

وُلِدَ في عائلةٍ ضخمة العدد، تزوّج أبوه من ثلاث نساء، بدّد ثروته عليهنّ، باع كلّ ما يملك، ولما أفلس، رُكنَ في الزاوية، مثل قطعةِ فخّارٍ مهشّمة، وفي كلّ مرةٍ يُعاد ترتيب أثاث البيت، يُنقل إلى مكانٍ جديد، وعندما لم يبق له حيّز، أُلقيَ في القمامة.

نسوه، لم يعد بالنسبة لهم أبًا، بل حمل ثقيل، لا رأي له، لا يُستشار في أيِّ أمرٍ، وإن أخطأ وأدلى بدلوه، طُرد فورًا.

تربى حمزة في بيتٍ بلا مسؤول أو راعٍ، كلٌّ يفعل ما يحلو له، كان الابن الأصغر للزوجة الثالثة، له أخٌ شقيق وسبعُ أخواتٍ شقيقات، وخمسة إخوان غير أشقاء، وعشر أخوات غير شقيقات.

وهكذا تُرك للصدفة كي تعلّمه، البيت الذي نشأ فيه مكوّنٌ من غرفتين، تملأه الفوضى، شقيقاته دائمات الشجار، يشتمن بعضهن بعضًا بأقذع الصفات، شقيقه كلّ الوقت خارج البيت، أمه إما تصرخ على أخواته أو على الجارات.

وهكذا وجد نفسه وسط معركة، لا يعرف لماذا أقحم في رحاها.

أول كلماتٍ نطق بها كانت شتائم، ظنّ أنها الطريقة الوحيدة للتعبير عن الرغبات والمشاعر، كانت الجارات يمنعن أطفالهن من اللعب معه، وهو لا يعرف سبب ذلك، نبت بداخله السخط، كان ساخطًا على كلّ شيءٍ، ويعبّر عن هذا السخط بأساليب شتى، أبرزها تدمير ما تطاله يداه، وبعد قليل، بالسرقة، كنوه باللص، حتى أمه وإخوته صاروا ينادونه بهذا اللقب.

كان مرفوضًا من الجميع، لا أحد يرغب به، تمامًا مثل أبيه، والذي كوّن نحوه مشاعر تتسم بالشفقة، أحسّ بأنهما متشابهان، لا أحد يرغب بهما.

نما حقده مع مرور الأيام، بدأ يجرّ الآخرين إلى دروب السوء، شعورٌ قاسٍ جدًا أن تكون منبوذًا من الجميع، الإنسان يستطيع تحمّل كلّ شيء إلا الرفض من الآخرين.. أخذ يغري الأطفال بسرقة ثمار الأشجار المختلفة، ثم بالسطو على نقود آبائهم.

كان حينما يتشاجر مع أطفال الحارة، يعيرونه بسيرة أخواته السيئة، فبدأ يطلق الشائعات عن بنات الجيران، لوّث سمعة العديد منهن، فكلمة السوء تلتصق بالفتاة مثلما يلتصق الاسم بصاحبه.. بات على أهبة الاستعداد ليكون مجرمًا قديرًا.



-٩-



توقّف، اجتاحه حزنٌ ممض، بكى، نهض ووقف بجانب النافذة، دهمته رغبةٌ جارفة للخروج والبحث عنها.. تحدث معه الكثير من القصص الغريبة، تستحوذ على تفكيره، إلا أنه ينساها مع مرور الوقت، خلّف بعضها ندوبًا في نفسه، لكنه تعايش معها، صارت جزءًا لا يتجزأ منه.

هذه المرة أحسّ بشيء مختلف، كان في منطقة وسطى بين الفرح والحزن، يتقلّب بينهما، ثمة صوتٌ غامض لا يفتأ يلاحقه مذ رآها، يؤمله بأن الحكاية لن تقف عند هذا الحد.. سمع هذا الصوت في الماضي كثيرًا، غير أنه كان في هذه المرة أنقى، استشعر فيه نبرة صدقٍ تامة لا تشوبها شائبة.

أخذ مفتاح السيّارة وخرج، عاد إلى المول، لعلّه يلقاها، سار بين الأبراج حائرًا حزينًا، رنا إلى البحر، كان وحيدًا مثله، غادرته الشمس، لكنها ستعود في الغد، سيلتقيان تارةً أخرى، أما هو، فلربما أفِلت شمسه إلى الأبد.

ركن السيارة في ذات المكان الذي ركنها فيه سابقًا، اضطرب قلبه، سأل نفسه، هل للقاء قصير مع فتاة مجنونة أن يفعل بي هذه الأفاعيل؟! لربما أنه التوقيت الذي حدثٍ فيه ذلك، نعم هو كذلك، سدّ حضورها فجوةً كانت تبتلع كلّ يوم المزيد من الفراغ، المزيد من الوحدة، المزيد من الضجر، المزيد من الحزن.. حضورها كأنه القطعة المماثلة للفجوة، اجتزّت منه في زمنٍ سابق وها هو يعثر عليها.

صعد إلى ردهة المطاعم، طلب وجبةً خفيفة، جال بعينيه على الحاضرين، فتح كتاب ماركيز، وكأنه يقرأ تعويذة، ظن أنه فور إكمالها ستظهر أمامه، حكّ ورقات الكتاب مثلما يحكّ الفانوس السحريّ، لم يخرج المارد، تناول وجبته مثقلًا، نهض وسار في ممر السينما، التقت عيناه بإعلان الفيلم، مال نحو المحاسب، قطع تذكرتين لمشاهدة العرض التالي، جلس في قاعة الانتظار حتى يجيء الموعد.

جاء الموعد ولم تأتِ.

كان الحضور في هذه المرة أكثر عددًا، جلب كوبًا من الكابتشينو وزجاجة ماء، دخل، نظر إلى المقعدين اللذين جلسا عليهما، كان فيهما شابٌ وفتاةٌ آخرين، ابتسم، جلس، وضع يده على المقعد المجاور، تخيّلها حذاءه، مدّ يده ولامس يدها، خَجِلتْ، ابتهج قلبه.

تعالي نصنع شيئًا مجنونًا، قال لها، أمسك بيدها، صعدا بضع درجات، وقفا أمام شاشة العرض، الصالة أمامهما معتمة، سمعا دويّ تصفيق حار، سألته عمّا يفعل، طلب إليها مشاركته بطولة هذا الفيلم، أخرج وٍرقةً أعطاها إياها.

ستمثلين دور فدوى، نعم لقد أسميتك فدوى، أرجو أن يعجبك الاسم، أأنتِ مستعدّة؟ همّت بالمغادرة، فأمسك يدها كما يُمسك الغريق بغصنِ نجاته.

– أرجوكِ لا تذهبي.

ملأ صوت البيانو الفراغ الذي انبثق على حين غرّة، دفع الصمت الكئيب، أخرجه برفق من الثقوب.

– لقد انتظرتكِ طويلاً.

– ....

– أستذهبين وتتركيني؟

– ....

– لماذا حضرتِ إن كنتِ سترحلين؟

– ....

– حسنًا، بما أنك تحبين القراءة، دعيني أخبرك بسر، أنا كاتب، أيكفيكِ ذلك لتبقي؟

– ....

– نعم، لا تتعجبي، إنني مليءٌ بالأسرار، لا تظنيني أبله كما يوحي شكلي وتصرفاتي، لا، أقسم لكِ إنني مختلف، حين تعرفينني جيدًا ستغيرين رأيك.

– ....

– حسنًا، ربما لم يُعجبك هذا الدور، أتحبين أن أكتب لكِ غيره؟

– ....

هزه أحدهم في كتفه، عاد إلى عالم اليقظة، سأله أن يخفض صوت غمغمته قليلاً، اعتذر، غاص في مقعده واجتهد كي يركّز في الفيلم.

كان (سباستيان) جالسًا خلف البيانو، يعزف لحنًا بديعًا، ومع ذلك لا يعيره أحدٌ أدنى انتباه، سمعته (ميا) فدخلت إلى القاعة، كان الضوء مسلّطًا على العازف، حملقت فيه، أدهشها عزفه، أدخلها في حالة من نشوة لذيذة، أنستها فشلها في اقتناص دور في فيلم قامت بتأدية تجربةٍ لتناله.

عاد وغطس في لا وعيه وخياله، رآها تدلف من باب القاعة، بحثت عنه بعينين ذاويتين مرهقتين من فرط البكاء، أومأ لها، رأى في وجهها غضبًا، سارت بين الكراسي، ولما وصلته دفعته في ظهره.

- تبًا لك، لماذا لم تنتظرني؟

- لم تقولي بأنك ستأتين!

- أرأيت؟ قلت لك سابقًا إن ذاكرتك بحاجة إلى صيانة.

ابتسم، حاول التذكّر، ضرب جبينه بباطن كفه.

- حقًا لقد أخبرتني، ما بالي نسيت؟ ثمة شيء غير طبيعي يحدث لي.

تكوّرت على نفسها حزينة، زمّت شفتيها دلالة على حزنها، حاول أن يمسك يدها فأبت، كانت في قرارة نفسها تتوق إلى لمس يده، بيد أنه لا بد أن يعلم مغبّة نسيان موعده معها، تحايل عليها طويلًا، أقسم لها أنه شرب زجاجة زيت السمك حتى آخر قطرة، وكتب وقت الموعد فوق كلّ شيءٍ ستقع عليه عيناه، لكنه نسي.

- أنا كاتب، عليك أن تعذريني.

- إلى متى ستظل تتعلل بهذه الحجة؟

- إلى أن تبتسمي.

دارت بسمتها، تعرف أنه طيّب جدًا، ولا يقصد نسيان موعده معها، ولكنها أنثى، يغتال الإهمال كبرياءها.

عاد ذات الشخص وهزّه بقوّةٍ أكبر هذه المرّة.

- بعد إذنك.

اعتذر خجلًا، لقد نسيَ نفسه مجددًا، نهض وخرج من القاعة، أيقن أنه لن يقدر على مشاهدة الفيلم مهما حاول.

تجوّل في طوابق المول، بدأت المتاجر تقفل أبوابها، حتّ التعب قدميه، جلس فوق مقعد خالٍ، زفر تنهيدةً ملؤها الحزن، هذا آخر يوم له في أبوظبي، عليه أن يعود غدًا إلى بيته في المنطقة الغربية والتي تبعُد مئتي كيلومترًا عن المدينة، لن يسعفه الوقت في الرجوع إلا في الإجازة القادمة، عقب شهرين.

هو الوداع إذن، الوداع لقصّة كادت تكون، الوداع لحلم جفّ سريعًا، عانى مثل هذا سابقًا، طمأن قلبه بأنه سينساها كما نسيَ أسماء، سيتعايش مع ندبةٍ جديدة جميلة، سيكتبها لينفث حزنه حبرًا، سيكتبها ليخرج رابحًا، تدفّق سائل الفرح الشحيح في أوردته، زوّده بطاقةٍ كافيةٍ.. ليرحل.



-١٠-



انبثق أمامها بكامل حزنه، أشفقت عليه، احتضنته، ربّتت على رأسه ليهدأ، كم هو مسكين، عانى الأمرّين في طفولته، لا تبتئس يا صغير، ها أنت أخيرًا ستجد من يُذهب عنك حزنك، تعالَ ونم في حضني، هيّا احكِ لي عمّا حلّ بك، وخبّرني كيف استطعت النجاة من بحر التيه، من الَذي ألقى إليك طوق النجاة؟ هيا قصّ عليّ وجعك كله، لا تذر منه شيئًا، أفرغه في قلبي، قلبي فداءٌ لقلبك.

أجهشت بالبكاء، عنّ لها الخروج والبحث عنه، ستجده، تعلم أنها ستجده، صفعت نفسها لتستفيق مما هي فيه، ولكن ثمة شيئًا يلحّ عليها، يتوسّلها، يقسم أنه القطعة الناقصة من أحجية حياتها، حجر سعادتها السحريّ، شقّها الآخر.

وقفت بجانب نافذتها، مسحت دمعها الكثيف، ابتسمت، تذوّقت حلاوة هذا الحزن فابتسمت، كلّ شيءٍ في الحب جميل حتى حزنه.

الحب؟!

سألت نفسها مصعوقة، لا بد أنني جننت، إنه مجرّد حالة من الإلهام ألجأ إليها كي ينقدح حجر الإبداع وتتدفق الكلمات، حب! لا لا، أبدًا، مستحيلٌ أن يكون ما أشعر به حبًّا، هو مجرّد ندمٍ على ما صنعته بذلك المسكين.

حب؟!

أأحب ذلك الأبله؟ وعلى ماذا سأحبه؟ إنه مجرّد إنسانٍ عاديّ، لا، بل أقلّ من عاديّ، ولو أنه آخر شخصٍ على وجه هذه المعمورة، ما كنتُ لأحبه.

همس صوتٌ خبيثٌ في أذنيها:

ألستِ من قالت: حين نبحث عن سيئات شخص ما كي نكرهه.. فإننا في الحقيقة نكون قد وقعنا في حبّه.

لا، مستحيل، أنا لست ساذجة لأقع في هذا الفخ بهذه السهولة، إنني مشوّشة، عليّ التأهب للعمل، اليوم هو آخر يوم في الإجازة، سأخلد للنوم، حتى إنني لن أكمل القصة التي أكتبها عنّه، يكفي.

جلست فوق سريرها، فتحت صفحتها على الفيسبوك، والتي تستخدمها باسم مستعار، يتيح لها حريّةً أكبر في التعبير، كتبت: هل تؤمنون بالحب مِن أوّل نظرة؟

تسابق معجبوها الكثر في الإجابة، قرأت التعليقات، النسبة الأغلب يؤمنون بذلك، عادت وكتبت سؤالًا آخر: هل التقيت يومًا بإنسانٍ خيل إليك أنه أنت؟

أيضًا النسبة الأكبر ردّت بالإيجاب.

حسنًا إنها مجرّد آراء لا يعتدّ بها، هذا الأمر بحاجة إلى بحث علمي، خطر لها البحث في الموضوع، أغلقت الفيسبوك، تناولت كتاب ماركيز (عشتُ لأروي) من المكتبة، نزعت الغلاف الشفاف عنه، مسّدت عليه بيدها، شعرت أنها تمسّد على وجه حمزة، ترى لماذا سميته حمزة؟ لماذا هذا الاسم بالذات؟ لا أعلم ولكنه مطابقٌ له تمامًا، اسمه يشبهه.

شرعت تقرأ في الكتاب، ولكنّ تركيزها خانها، تنهّدت، ارتدت ثيابها وخرجت لتتمشى قليلًا، علّها تنفّس بعضًا من ضيقها.

لو كانت اجتماعية لتحدثت مع صديقاتها وأخبرتهن بما حدث، غير أنها تعاني خللًا لا تعرف منشأه، لا تحب العلاقات الاجتماعية، ينتابها التوتر عند مقابلة الآخرين، ولولا حاجتها وشغفها بالكتابة، ما كانت لتقدر على الحديث مع غرباء، ولكن كما قيل: صاحب الحاجة أرعن.

نعم، إنها رعناء، تعرّضت للكثير من المشاكل بسبب قيامها بتلك المغامرات المجنونة، بيد أنها ما كانت لتكتب شيئًا لو لم تفعل ذلك.

اعتراها تعبٌ شديد، إلا أنها واصلت السير، كانت تنظر مرةً إلى السماء ومرةً إلى البحر، بدت لها السماء كئيبة، أما البحر فهزيل، خيل إليها أنه مريض، مصابٌ بداء الفقد، ها قد عدنا، خرجتُ كي أهرب من التفكير فيه.

وضعت السمّاعات في أذنيها، فتحت ملف الموسيقى، شوبان، إنه وقتك المثالي، تغلغل صوت البيانو في قلبها، كم أنا حمقاء! صوت البيانو أكبر مثير يستدرج صورته، غيّرت شوبان إلى بيتهوفن.

تأكدت أنها لن تنساه بسهولة، سيظل ماثلًا أمامها بكامل أسراره أمدًا غير قصير، قفلت عائدةً إلى البيت، جلست خلف مكتبها، قرأت ما كتبت، همّت بمسحه، ولكنها عدلت عن ذلك، ورغمًا عنها راحت تُكمل.



شمسٌ آفلة

الاعتياد على الضرب أورثها العناد، والعناد ضاعف عذابها، إلا أنها كانت تسرّ وهي تحجم عن تنفيذ رغبات إخوتها، وهي تشهر في وجوههم التحدي، ترفع راية الرفض غير آبهةٍ بالعقاب الوخيم الذي تلقاه.

تقاوم وهي يقظة، لكنها حين تنام، تطفو مشاعرها ومخاوفها المكبوتة، لا ترى سوى الكوابيس، ناهيك عن تبوّلها اللاإرادي الذي لازمها طويلًا، منح هذا الداء أهلها سوطًا فتاكًا يجلدونها به بسبب وبلا...

نعتوها بلقبٍ مشين، راحوا ينادونها به، كانت تخاف تسربه إلى بنات الحارة، فبيتها يقع في بقعةٍ مزدحمة لا تهب لساكنيها أدنى خصوصية، ما يحدث في أول بيتٍ، يعلمه من يقطن في آخر بيت.

الأب كان وحشًا مجنونًا، يعاقب الجميع دفعةً واحدة، لا يستثني أحدًا، من أذنب ومن لم يقترف ذنبًا، كانت تتمنّى أن يخرج ولا يعود،

فضرباته قويّةٌ جدًا، تكاد تقتلها، الأم مغلوبةٌ على أمرها، لعلّها جنّت هي الأخرى من كثر تعرّضها للضرب المبرح.

كانت تشفق عليها حين ترى الدماء تغطي وجهها، تلعن أباها في سرّها، تتمنى أن يموت عاجلًا غير آجل، وكلما استفحل جنونه طردهم من البيت، كلّهم دفعةً واحدة، يخرجون مثل المشردين، يبحثون عن بيتٍ يأويهم.

تلجأ الأم لأخوتها، الذين لا حول لهم ولا قوّة، يخافون زوجها، يرونها مهانة ممزّقة ويطلبون منها أن تصبر على الذل من أجل أطفالها.

فدوى كانت تحب بيت أبيها وتكرهه، لا ترتاح في بيت أخوالها، تسمع كلامًا قاسيًا من بناتهم، يصارحنها بأنهم حملٌ ثقيلٌ عليهم، تُخبر أمها، فتبكي، يعتذر أخوها منها، يقول لها إنهم مجرّد أطفال، ولكنها سمعت ذات الكلام من زوجته، إلا أنها كتمته، لا ترغب في أن تكون سببًا لحدوث المشاكل بينهما.

يظلون على هذه الحالة حتى يتدخّل أهل الخير، فيقنعون الأب بإعادة أبنائه، ويوصونه بالصبر على زوجته التي ابتلي بها، وهكذا دواليك.

اكتسبت فدوى شخصيّةً قويّةً في المدرسة، لم تكن تأبه بكلام المعلمات فهو قياسًا بما تلاقيه في البيت لا يساوي شيئًا، صادقت فتيات ذوات أخلاقٍ سيئة، يصل الخبر إلى إخوتها الذكور، يتناوبون على

ضربها، تلعنهم، تبصق عليهم، يتركونها بعد أن يحوّلوا وجهها إلى لوحةٍ مأساويّة.

يسخر الجميع منها في المدرسة، وجهها خليط من بقعٍ زرقاء وخضراء، يسألونها ما الذي حلّ بها، فتقول بأنها سقطت على وجهها، تخبرهم بذلك وهي تبتسم!

لم يعد الضرب عدوّها الأول، حيث اكتشفت عدوًّا جديدًا أكثر قسوةً وبشاعةً، إنه الفقر، الفقر الذي يحرمها من شراء البسكويت والعصير في المدرسة مثل صديقاتها، الفقر الذي يتركها تغدو وتروح بحذاءٍ مثقوب ومريولٍ مرقّع، الفقر الذي يسرق الغداء من بيتهم، الفقر الذي يمنعها التسجيل في الرحلة المدرسيّة.

وكلما ازداد وعيها.. تضاعف ألمها.

كانت حياتها تسير في منحدرٍ حاد، حتى عثرت على سهمٍ يشير إليها بأن تأخذ اتجاهًا مغايرًا، هذا السهم كان معلّمتها في الصف الثامن..

السيدة أمينة.



جمرٌ مفقود

التحق بالمدرسة، وفي المدرسة كان مرفوضًا من الجميع، مدعاةً للسخرية، كان يأمل في العثور على حياةٍ مختلفة، غير أنه لم يجدها.

الكلّ يعرفون أسرته جيدًا، ولأنه منحدر من عائلة موبوءة فهو ولا شك موبوء، ولذا لا بد من نفيه، وعزله عن الآخرين لئلا ينقل لهم العدوى، كان حقده يتضخّم على كلّ شيء، راح يعبث بأثاث المدرسة، يفتعل المشاجرات مع الجميع، حتى المعلّمات.

أجمعوا على وجوب طرده من المدرسة، هو ولا شك بحاجة إلى إصلاحية تعيد تربيته، وهكذا صار يُطرد من المدرسة، وفي الأيام النادرة التي لا يُطرد فيها، يهرب.. لا يوجد متعلمون في أسرته، التعليم آخر همهم، لم يجد من يسأل عنه أو يهتمّ به، نال حريةً تامة في التصرّف بحسب أهوائه ورغباته.

اقتنصه بعض الأشرار من كبار السن، بدأ ينفّذ بعض الأعمال التي يوكلونها إليه: إيصال رسائل العشق إلى الفتيات، مراقبة الطرقات حتى ينفّذوا بعض أعمال السرقة.. كانوا يكافئونه بالسجائر، التي بات مولعًا بتدخينها.

تعلّم فنون الكذب، صار من الصعب تمييز صدقه من كذبه، تبلّد إحساسه، لم تعد الكلمات القاسية تؤثر فيه، بات شغوفًا بتعلّم أساليب الإجرام ممن يكبرونه سنًّا، والذين لم يبخلوا عليه بذلك، فتحوا عينيه على طرق مجرّبة، وابتدعوا له طرقًا تناسب عمره الصغير، ومنها التسوّل.

أقنعوه بأنه يملك لسانًا سليطًا وهيئةً تليق بهذا العمل، وسيحظى بمالٍ وفير جراء ذلك، لكن عليه ألا يمارسه في بلدته الصغيرة، بل يجب عليه الذهاب إلى المدينة، فهناك لا أحد يعرف أصله وفصله، وسيعثر على أثرياء يعطونه بلا حساب.

وهكذا وجد نفسه يرحل إلى المدينة، يسأل الناس، ومع الأيام، تشكّلت لديه قناعةٌ راسخة أنه ولد ليقوم بهذا العمل.. كان موهوبًا جدًا في التحايل على الناس وإقناعهم، ومع كلّ يومٍ يمضي، تزداد حصيلة الأموال التي يجمعها.

بات معيلًا لأسرته، والتي فجأة أولته مكانةً لم يحلم بها، شعر بأهميته، بشخصيته.. تبدّلت الحال في البيت الفقير، فثمة طعامٌ

يُطهى، يتحلقون حوله مثل أسرة، أخذ الجميع يتودد إليه طمعًا في الحصول على حصّة من الأموال التي يكسبها، أبوه، أمه، أخوه، وأخواته.

كان يمنحهم النصيب الأكبر مما يجمع، نما في نفسه شعورٌ جديدٌ لم يخبره سابقًا، أحسّ بقيمته، بأنه مقبول، ويوجد من يكترث بأمره، راح يأمر وينهي والكل يطيع، عرف قيمة المال الذي منحه مكانةً مرموقة، أيقن أنه إن جمع مالًا وفيرًا سيحكم العالم مثلما يحكم أسرته.

المال هو الإله الذي يستحق العبادة، وكان عبدًا مؤمنًا جدًا، لا شيء يستحق الاهتمام سوى المال، ولا فرق في الطرق التي يحصل عليه بها.

لم يتوقّف الأمر على أسرته، بل تخطاه إلى كثير من الأطفال والشباب، والذين التصقوا به طمعًا في شرائه لهم الحلويات والسجائر، كثيرٌ ممن كانوا يأنفون الحديث معه، أظهروا له ودًّا ما حلم به يومًا، توقفوا عن شتمه وهمزه بِسمات أخواته المهينة، العديد منهم خالفوا تعاليم آبائهم وصادقوه سرًّا، غمرته السعادة، وجزاءً لذلك ينفق عليهم ببذخ، يقرّب منه من يشاء ويبعد من يشاء، أصحاب الحظوة لديه يصيبون خيرًا وفيرًا.

طوّر أساليبه في التسوّل، يرتحل إلى أماكن جديدة حين يستحيل وجهه معروفًا في المنطقة، ينتقي زبائنه بحرصٍ شديد، يُسمع كلَّ واحدٍ ما يناسبه من عبارات الاستجداء، يندر أن يعود خائبًا، نبت في داخله حقدٌ جديد، هذه المرّة كان تجاه الأغنياء.

يرى الآباء يداعبون أطفالهم، يحملونهم معهم في سيّاراتٍ فارهة، يبتاعون لهم ما يريدون من ثيابٍ وألعاب، يطعمونهم ما لذّ وطاب من طعام، سأل نفسه عن السبب الذي منحهم الحقّ في الحصول على هذه الأموال الكثيرة، لماذا لم يولد لواحدة من هذه الأسر؟ ما هو ذنبه ليلقى في أسرةٍ معدمة لا تملك قوت يومها؟ ما هي خطيئته ليخرج في عالمٍ قذر مفعم بالرذيلة والفسوق؟

وكلما مرّت الأيام.. تضاعف حقده، أضمر أملًا في أن يصير يومًا ما مثلهم، أو يدمّرهم، سينغص عليهم حياتهم؛ ليشعروا بالذين مثله، سيخطف أبناءهم ويبيعهم، سيغتصب بناتهم، سيسجنهم في أقبية تتخذ منها الأفاعي بيوتًا لها.

سيطر على رهطٍ من الأطفال، اتّبعوه، اتخذوا منه قدوةً لهم، نصّبوه زعيمًا عليهم، نظّم حلقاتٍ من القتال بينهم، يمنح الفائز جائزةً قيّمة، أما هو، فكانوا يخافونه، لا يجرؤون على منازلته، رأوه وهو يصرع خصومه، في داخله طاقةٌ من الشرّ لا قبل لأحدٍ بها، قادرةٌ على هزيمة أعتى الشجعان.

ظلت حياته تتدحرج نحو الهاوية بسرعةٍ بطيئة.. إلى أن دخل الإصلاحيّة.



-١١-

هوَ

لملم حاجاته، غادر الفندق متجهًا إلى بيته، سيقطع مسافةً طويلةً حتى يصل، سيرافقه البحر حتى باب المدينة، ثم يودعه يد الصحراء، ستحمله بين كثبانها، ستُفرج له عن مشاهد ما كان ليراها طوال حياته، هوَ القادم من مدينةٍ بعيدةٍ تلفّها الأشجار المتنوّعة، غاباتٌ ممتدة من شجر البلوط، وبساتينٍ من التين والرمان، وكروم من الزيتون، ومزارع من التفّاح والعنب والخوخ.. هو الفلاح المشتاق لظلال شجرته الأثيرة، شجرة التين الكبرى.

الغريب لا ينال الراحة مهما حاول، لا بدّ أن تُثار شجونه في كل ومضة لتحيا ذكرياته، لتنبسط أمام ناظريه، تغويه بعناقٍ عابر، تنسكب الدموع على وجنتيه فلا يجد من يمسحها؛ ولذلك هوَ غريب؛ لأنه لا يجد من يطبطب عليه حين يحزن، من يفتح ذراعيه ليحتضنه عندما يفرح، من يداوي جراحه كلما غلبته ونزفت.

تذكّر، لم يكن يريد ذلك، رغمًا عنه تذكّر، كان أقسم ألا يفعل، غلبه الشوق فتذكّر.. استعاد الأيام القديمة التي عجزت أيامه الحديثة عن طمسها.. الطريق طويل وهو وحيد، خلف مقوده، وصوت بيانو شوبان يعزف على أعصابه، يتقلّب بين وجه تلك الفتاة التي ما انفك يعيد كلماتها في عقله، ويستحضر صورتها التي صارت تتماهى مع الخيال، وبين وجه حبيبته الأولى والأخيرة التي لا يعلم لمَ خلّته، لماذا تركته بعد أن زجّته وسط بحرٍ مائج.

تداخلت الصورتان، هيئ إليه أنهما متشابهتان، انهمرت دموعه، تذكّر عنوان قصيدة لدرويش (أنا العاشق السيئ الحظ)، تساءل إن كان حقًا سيئ الحظ، أم أنه جبان أحمق، رأى حبيبته تضيع دون أن يحرّك ساكنًا.

ما الذي بيدي لأفعله؟ كنتُ قليل الحيلة، ثم إنها هيَ من باعتني في غمضة عين، لقد آثرت المال عليّ، ولكنك آثرت أحلامك عليها في البداية، ذلك غير صحيح، صرخ في وجه الصوت الذي يسمعه وبرغم كلّ ما فعلته به، ما زال يُنافح عنها، إنه صوت القلب.

زفر تنهيدةً جميلة، تحمل ذكرياتٍ سعيدة، مجنونة، ابتسم حينما عادت صورته الطفوليّة وهو يتحايل على قلبها ليظفر به، كيف استحال طفلًا شقيًّا يلاحقها طمعًا في نيل ابتسامةٍ من شفتيها، والأهم، تلك القوّة العجيبة التي حوّلته من شخص خجول، الجنس الآخر بالنسبة إليه عالمٌ مجهول خطير لا ينبغي الاقتراب منه، إلى إنسانٍ طائش، قفز دفعةً واحدةً إلى ذلك العالم، والذي ما إن حطّت قدماه فيه، حتى وجده ساحرًا لا يشبه تلك الأفكار التي اختزلها عنه.

رأى تلك العينين، ما أحلاهما، عينان عسليّتان في وجه نقيّ، بريء، التقت عيناه بعينيها، رحّبت به، لسعت قلبه وخزةٌ خفيفةً، أحيَت فيه تيارًا جديدًا، هوَ الذي طالما سخر من الحب والمحبّين، الذي كان ينظر إلى تلك الكلمة (حب) بوصفها كذبة، كذبةٌ ابتدعها إنسانٌ فارغ.

هذه ليست أول فتاة أعجب بها، ولكن ثمة شيء مختلف حدث، لا أستطيع تحديد ماهيّته، لا يُرى بالعين المجرّدة، بل بعين القلب، الحب مثلما قال بيرتراند راسل: «الحب حكيم والكراهية حمقاء»، نعم الحب حكيم يعرف أين يحطّ رحاله، ينتقي قلبًا كريمًا، يعلم أنه سيرحّب به.

في البداية ظننتُه إعجابًا عابرًا، سيرحل بعد أيام، أو لربما ستكون مثل بعض اللاتي أُعجبت بهنّ وكنّ مرتبطات، نضحت ذاكرته بمشهد أصدقائه وهم يسخرون منه.

نعم كان لديه الكثير من الأصدقاء الذين يحبونه، إلا أن عجزه في إيصال مشاعره عن طريق الكلام حرمه كثيرًا منهم، اعتاد الوحدة، وجد فيها ضالته، وخاصةً بعد ظهور وسائل التواصل الاجتماعي.

فجّر حضورها موهبته في الكتابة، عقب لقائه بها في أول يوم، صار يكتب على الفيسبوك خواطر جذبت متابعين عدّة، بحث عن صفحتها، ولمّا عثر عليها استخفه الفرح، لم يجد معلوماتٍ عنها، كانت محتاطة من المتطفّلين أمثاله، تردّد بين إرسال طلب صداقةٍ أو تأجيل ذلك إلى موعدٍ لاحق، قرّر التريّث، فلربما يزعجها ذلك.

وبينما هو جالسٌ وحده، حضر العقل، أخبره بأنه لن يقدر على الإكمال، هذا الطريق صعب، مليء بالمنحدرات، ستصاب بحادثٍ بشع، وربما يودي بحياتك، أقلع، إنه ليس الوقت المناسب لهذا، لا تنسَ

نفسك، إنك مجرّد موظّف لا يملك شروى نقير، بل أنت مُثقلٌ بالديون، وأنت تعرف أنها ليست فقيرة، رأيتَ ثيابها وهاتفها وطريقة كلامها، إنك خاسر يا صديقي، قف.

إنها الإشارة التي رافقته دائمًا، قف، أنت فقير، لا تحلم، لا تنظر إلى أعلى، (على قد لحافك مد رجليك)، أنت فقير، والفقراء لم يخلقوا للتمتع بالدنيا، خلقوا للعمل وخدمة أسيادهم، والفقراء يجب أن يتزوجوا بنات الفقراء، وينجبوا أطفالًا فقراء، لا تظن بأنك ستكون استثناء، حذار من الوهم، إنه فخٌ للإيقاع بأمثالك، إياك والأمل فهو مصيدةٌ للقبض على الخيال وتحويله إلى جنون، ستجنّ يا صديقي، ستفقد عقلك، عقلك الذي تراهن عليه، ستخسره لتغدو مسرحيةً هزليّةً، يشاهدها الناس فيضحكون، لا تكن أضحوكة يا صديقي.. لا تحلم فأنت فقير.

إنه بين خيارين أحلاهما مرّ، علقم لن يستسيغه مهما حاول، إما أن يعيش حياته دون حب، أو يتحوّل إلى وحش يفترس قلوب الفتيات دون رحمة، مثل كثيرٍ ممن يعرفهم.

ربما لم يبق أمامه حلٌ آخر، لقد قض مضجعه هذا الضمير اللعين، حرمه إغواء الفتيات، حتى بعد أن بات قادرًا على ذلك، إلا أنه يقيّده، إنها المبادئ التي ورثها من بيئته المحافظة، عجز عن الخلاص منها، زاده كلام الناس ومدحهم لأخلاقه تشبّثًا بها.

لديه قناعةٌ راسخة، إما الحب من أجل الزواج وإلا فلا.

وبين خفقان قلبه السعيد، وأفكار عقله العنيد، عاش ليلةً من أسوأ الليالي وأجملها في ذات الوقت..

وصل إلى بيته في المنطقة الغربية، ركن السيّارة، دخل شقّته، وهي واحدة من ست، يقطن الخمس الأخرى جيران من جنسيّات متعددة، رمى جسده فوق السرير، عبث بهاتفه قليلًا، ثم غطّ في النوم.



-١٢-



كانت تكره الكتّاب الذين يكتبون قصصًا حزينة تبكيها، إلا أنها حين تذهب لشراء كتب جديدة، تنتقي أكثرها حزنًا، اكتشفت في الحزن جوهرةً نفيسةً، كرةً سحريّةً تكشف لها أسرارًا غامضة عن الحياة.

صارت واحدةً من الكاتبات القلائل اللائي يبدعن في كتابة القصص الحزينة، احترفت ذلك، تشابك حزنها الشخصيّ مع حزن الشخصيّات في قصصها، فتشكّل في نفسها طوفان حزنٍ أخذت تسكبه فوق الورق.

حين التقت به، ظنّت أنها في هذه المرّة ستكتب قصّةً مفرحة، بيد أن الحزن غلبها، لا تعلم، ولكنها أحسّت بهالة الحزن تحيط به، لذا قررت كتابة حزنه، فلربما استطاعت تخليصه منه، تخال الحزن سيختفي حين نكتبه.

أرادت الهروب من وجهه، فلم تقدر، ظل يتراءى لها مع كلّ سطرٍ تكتبه عنه، اختلط وجهه بوجه حبيبها الأول والأخير، أقضا مضجع ذكرياتٍ تمنّت ألّا تحضر، فكلما زارتها تشتتت، وتاهت أفكارها.

(أنا أحبك)

جفلت، جالت بعينيها في غرفتها، ساورها شك بأن الصوت حيٌّ يُرزق، سمعته طازجًا، مختلطًا ببخار الشتاء، نظرت إلى المرآة، شاهدت بسمتها الممزوجة بدمع يتكاثف في عينيها.. ما كان عليّ أن أحبّه، لكنه أقسم، أقسم على ألاّ يتركني مهما حدث، كان القدر أقوى منه، همس صوتُ قلبها مدافعًا عنه.

(أتسمحين لي بدعوتك على شيء؟)

تذكّرته والخجل يعلو محياه، تلعثمه بالكلمات، خوفه وتردده، نظرت إلى عينيه، كانتا ترجوانها ألا ترفض، تعكسان صدق روحه، لا، إنه ليس عابثًا بالقلوب، فهو يعرف جيدًا أية لعنة تصيب العابثين بقلوب الآخرين، لا يرجو تسليةً آنية، بل يصبو إلى قصةٍ خالدة يكتبانها معًا.. قبِلت الدعوة، صفّق بيديه مثل طفلٍ صغير، فشل في كبت فرحته، ابتسمت رغمًا عنها، خفق قلبها بنشوةٍ أنستها الدنيا من حولهما، رأينها صديقاتها تمشي معه، يعلمن جيّدًا أنها ليست من اللواتي يضيعن وقتهن، لا بد أن وراء هذا الشاب حكاية عظيمة، ترقّبنها حتى ودعته، هجمن عليها، أمطرنها بالأسئلة، كانت في عالمٍ آخر، كوكب العشق.

كان ذلك في سنتها الدراسيّة الأخيرة، ثلاث سنوات ونصف وعلاقتها بزملائها لم تتعدّ حدود القاعات التدريسية، لديها قناعاتها الخاصة، تختلف عن قناعات كثير من زميلاتها، لا توجد صداقة بين الذكر والأنثى، وعلاقة الزمالة يجب أن تكون محكومة بضوابط، كنّ يسخرن منها، إلا أنهنّ فشلن في تغيير تلك المعتقدات.

حاول بعضهم التودد إليها، لم تشعر تجاههم بشيء، كانت تبحث عن إنسانٍ مميّز، يستحق أن تغامر من أجله وتحب، أن تدخل في تلك الدوّامة التي سمعت وقرأت عنها كثيرًا، لكنّ كل الذين طلبوا ودّها كانوا عاديين، لم يثيروا حتى فضولها لتتعرف عليهم، ومع مرور الوقت ترسّخت لديها قناعة أنها لن تعثر على ذلك الإنسان وسترضى بالأمر الواقع.

كانت تراه وحيدًا يجلس بين الأشجار، يقرأ وأحيانًا يكتب، حدست أن فيه شيئًا مميّزًا، الغموض الذي يلفّه، وراؤه سرٌّ عظيم، وصدق حدسها كالعادة.

اقتربت من البقعة التي يجلس فيها، اختلست نظرةً إلى الكتاب الذي بين يديه، رواية ألف شمس مشرقة، ظنّت أن حدسها خدعها، كانت تحسب من يقرأ الروايات أُناسًا فارغين، يتسلون بأشياء لا قيمة لها، تمامًا كالمدخنين، يوهمون أنفسهم بأنهم يفعلون شيئًا رائعًا، لا يعلمون أنهم لا يتأذون فقط، بل يؤذون من حولهم، تلك هي نظرتها العدائية التي تشكّلت من أفكار صديقاتها اللواتي يقرأن الروايات، أقوالهنّ تخلو من الحكمة، أفكارهنّ تعبق بخيالٍ بعيد عن الواقع الذي يعشنه، يحلمن بأبطالٍ خارقين.

عادت من حيث أتت، ولا تعرف كيف وهي في طريقها إلى البيت، توقّفت بجانب مكتبة، واشترت رواية ألف شمس مشرقة!



شمسٌ آفلة

كانت فطنةً جدًا، إلا أنها توظّف ذكاءها في مناكفة أهلها.. تُهمل دروسها، تتصنّع الغباء لتغيظ أعداءها، ظلّت على تلك الحالة حتى الصف الثامن.

كلما كبُرت في العمر زادت القيود، تضاعفت الرقابة خوفًا من إيقاع أحد الفتية بها، فقد صارت أنثى، لم تعد طفلة، كلّ حركةٍ منها يجب أن تكون محسوبةً بدقّة، انشغل أبوها بمشاجراته مع أبنائه الذكور، والذين صاروا يتمردون على قراراته، ولا مانع لديهم من الاشتباك معه بالأيدي إن لزم الأمر، استولى الأبناء على السلطة بعد أن انقلبوا على الأب.

فشلوا ثلاثتهم في إكمال تعليمهم، تفرغوا للمشاجرات وأعمال السرقة والنهب، والتي كانت صغيرة في البداية، ثم ما لبثت أن

توسّعت، ازدادت قسوتهم عليها، لكثرة القصص التي يسمعونها من أصدقائهم عن الفتيات اللاتي يواعدونهنّ، خافوا أن تكون فدوى واحدةً من تلك الفتيات، فذلك إن حصل، سيكسر شوكتهم، ولن يستطيعوا رفع رؤوسهم في البلدة مرةً أخرى.

فرضوا عليها حصارًا شديدًا، انتبهوا إلى أن أختهم جميلة، وقد بدأت معالم الأنوثة تظهر عليها، وفي جلسةٍ كانوا يجتمعون بها، قرروا منعها من الذهاب إلى المدرسة، عليها الجلوس في البيت حتى يأتي نصيبها، ولولا تدخل السيدة أمينة لما تراجعوا عن قرارهم أبدًا.

السيدة أمينة معلّمة لغة عربية جديدة، جاءت من بلدةٍ مجاورة، لم تهتم بأصل الفتيات وفصلهنّ، كانت شديدة الطيبة، أحببنها جدًا، غير أنها عجزت عن كسب ودّ فدوى، فكلما دخلت الصف، انتبهت الفتيات، أما فدوى فتتظاهر بالنوم.

تركتها، لم تصطدم معها، ظلت تحاول التودد إليها، وبعد مضيّ شهرين نادتها، ظنّت فدوى أنها ستأخذها إلى المديرة أو المرشدة الاجتماعية والتي كما تصفها فدوى؛ بحاجة إلى مرشدة! إلا أنها لم تفعل، بل أخذتها إلى الساحة، مشت بجوارها دون أن تقول شيئًا، توجست فدوى خيفة، شعرت برهبةٍ عجيبة تجتاحها، برغبةٍ دفعتها إلى محاولة قول شيء ما، ولما فشلت في ذلك، بكت.

أمسكت السيدة أمينة بيدها، وارتها عن الأنظار، مسّدت على رأسها، أقسمت بأنها لا تريد أذيتها، إن هي إلا راغبةٌ في الحديث معها، ففر استها أخبرتها حين رأتها بأن لها معدنًا طيّبًا يختلف عن ذلك الذي تتقصّد إظهاره.

كانت مخنوقة، من يصدق أن هذه الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها؟! تبدو وكأنها عجوزٌ أنهكتها الحياة، اغتالت طفولتها غيلةً بغير ذنبٍ اقترفته، حكت لها كثيرًا من الأسرار التي لم تتخيّل يومًا أنها ستفشيها لأيٍّ كان، أصغت إليها السيدة أمينة بحب، نفّست فدوى كثيرًا من كبتها، ومنذ ذلك الحين باتت السيدة أمينة في مقام أمّها.

أولتها السيدة أمينة عنايةً خاصة، وجدت فيها ذكاءً شديدًا، وخاصةً في التعبير والكتابة، حيث كانت تفرغ بعضًا مما خبأته في أخدودها على الورق، تعلم أن لا أحد سيقرأ ما تكتب سوى السيدة أمينة، صارت تثق فيها ثقةً عمياء.

ولما أزمع إخوتها أمرهم وقرروا إلقاءها في غيابة البيت، هرعت إلى السيدة أمينة، رجتها أن تساعدها، وألا تسمح لهم بسجنها، فقد بات لها حلم كبير نبت حديثًا؛ الخلاص من قيد أسرتها، الهرب بعيدًا من هذا الجحيم، شق الطريق نحو حياةٍ مغايرة، لم تبخل السيدة أمينة في مدّ يد العون لها، بل على العكس تمامًا، استدعت والدة فدوى، وحينما لم تجئ كعادتها، ذهبت بنفسها إلى بيتهم.

بيتٌ متواضعٌ بسيط، تسكنه الهموم والأحزان، جلست مع الأم والتي بدت كأنها تعيش في عالمٍ آخر، مسكينة، لا تتحدث، اكتفت بالإجابة عن بعض الأسئلة، عرفت السيدة أمينة أن لا شيء بيد هذي المسكينة، فقررت مقابلة إخوة فدوى وأبيهم.

أحضرت زوجها معها ورجعت لزيارتهم في المساء، حاورت الأب، بيد أن أبناءه كانوا يقطعون كلامه، لم يدعوه يتمّ جملةً واحدة، أوصلوا إليها رسالةً مفادها، أنهم هم ولاة أمرها ولا أحد غيرهم يمكنه التحكم بمصير فدوى، فهمت أنهم سيجلسونها في البيت خشيةً على سمعتهم، تعجّبت هذا الكلام، ظنّت أن هناك سببًا خفيًّا لا يرغبون إطلاعها عليه، أما زال في الدنيا أحدٌ يفكّر بهذه الطريقة؟!

اكتشفت لاحقًا أن ليست فدوى وحدها من يُفعل بها ذلك، بل ثمة كثيرٌ من الفتيات يلقين نفس المصير.. حدّثت إخوتها عن أخلاق فدوى الجميلة وحشمتها، بدأوا يلينون لكلامها، أقسمت لهم بأنها ستراقبها مراقبةً حثيثة، وإن رأت منها ما يشين فستأتي بنفسها وتخبرهم، وفي النهاية وافقوا.

تبدّلت فدوى، ضاعفت جهدها، صارت تستخدم ذكاءها في كسب قلوب إخوتها، تلبي طلباتهم بسرعة، لم تتخلص من الضرب، غير أنه خفّ.. انهمكت في الدراسة، عوّضت الدروس التي فاتتها سابقًا، تخلّت عن كثيرٍ من صديقاتها ذوات السلوكيات السيئة،

دعمتها السيدة أمينة بكل ما أوتيت من قوّة، وذات يوم في الطابور الصباحي، كاد يغمى عليها حين سمعت المديرة تنادي عليها في مكبّر الصوت، خرجت يكسوها الحياء، طلبت المديرة من الطالبات التصفيق لها، ترقرقت الدموع في عينيها، قالت إن فدوى فازت في مسابقة للكتابة على مستوى محافظة عجلون كاملة، دُهشت حين سمعت ذلك، أعطتها المديرة مغلّفًا، نظرت فدوى إلى السيدة أمينة والتي كانت تصفق بحرارة، ركضت بسرعة، احتضنتها وهي تبكي وتنشج.

جحرٌ مفقود

كان في الرابعة عشرة من عمره حين قُبض عليه، قدّم أهل البلدة شكوى إلى الشرطة، بعد أن خُلعت أقفال العديد من المتاجر، عرفت الشرطة الفاعلين بعد استجوابهم عددًا من أصحاب السوابق، نصبوا كمينًا ليليًّا وقبضوا على السارقين متلبّسين، إلا أنه لم يكن معهم، فبصفته زعيمهم، فهو يخطّط فقط، وعليهم التنفيذ.

لم يصدّق الشرطة ما سمعوه، فتى يتحكّم بعصابة كاملة، يحرّكهم من وراء ستار، غير أن جميع المجرمين الكبار يعملون من وراء ستار.. عرف أنهم سيبوحون باسمه، احتاط ولاذ بجبلٍ شاهق، اتّخذ من إحدى مغاراته سكنًا له، كان يذهب إلى البلدة يجلب الطعام في الصباح ويعود، يقضي الليل وحيدًا في جبلٍ خاوٍ، سمّيت المغارة باسمه، مغارة حمزة.

ضاق ذرعًا بهذه الحياة بعد أسبوعين، ذهب إلى مركز الشرطة وسلّمهم نفسه، اعترف بأنه كان يخطط فقط، لكنه لم يسرق، أعجبوا بشخصيته كثيرًا، كلنا نحبّ شخصيات القادة ونتمنى أن نكون مثلهم.. منحوه معاملةً خاصة، كان سليط اللسان، فكاهيًّا، لم يظهر خوفًا منهم، أعطوه سجائر وجلبوا له كأسًا من الشاي، أغلقوا المحضر، ثم نقلوه إلى مركز الأحداث الجانحين.

كان المركز (الإصلاحية) بمثابة مدرسته الجديدة، التقى بمجرمين أفذاذ، تعلّم منهم الكثير، وسمع قصصًا عجيبة عن مجرمين كبار، اكتسب خبرةً جديدة في عالم الإجرام، ما كان ليتعلّم كلّ ذلك لو بقي في بلدته الصغيرة.

ضحك على نفسه كثيرًا حين سمع قصص بعضهم، والذين قبض عليهم بعد سرقتهم لمتاجر الذهب، ورفضوا الكشف عن مكانها، قالوا إنهم سيقضون بضع سنين ثم يخرجون ليتنعموا بالمال، وهو يُسجن لسرقته دنانير معدودة، وبعد خروجه سيعود مجددًا إلى الفقر.

لقد كنتُ مغفّلًا، عليّ الآن التخطيط لشيء ضخم يكفل لي حياةً مغايرة.. أضمر ذلك في نفسه وأخذ يخطط له بجدّ واجتهاد، دأب في البحث عن طريقٍ يوصله إلى ذلك، لا شيء مهم إلا المال، حتى أهله لم يزوروه في السجن، لو كان غنيًّا لأتوه زحفًا.. لا بأس، يومًا ما سأصبح ثريًّا، وحينئذ سأعود ذلك المحبوب، الزعيم الذي يأمر فيطاع.

حاول بعض الفتية اختباره، تشاجروا معه فصرعهم، بعدها صار صديقًا للجميع، ومن بينهم اختار صديقًا واحدًا تقرّب منه كثيرًا، حسّان أو كما يلقّب (المفتاح)، حاز هذا اللقب للتّدليل على قدرته الفذّة في فتح الأقفال، لم يكن هذا ما جذب حمزة إليه، بل كانت قصة ابن عم حسّان المدهشة.

في الإصلاحية لا يوجد أحدٌ مرفوض، كلّهم سواسية، جميعهم مشتركون في الهم والعناء، اكتشف حقيقة أن كلّ النزلاء فقراء، شحيحو الحال، لا يوجد غنيٌّ واحد بينهم، ضاعف ذلك حقده على الأغنياء والفقر على حدٍّ سواء.

مرّ شهران على وجوده في الإصلاحية، اطّلع على بعض القوانين وآلية تطبيقها وتعطيلها، كيف تتحوّل من مدان إلى بريء، كيف تخلي مسؤوليتك وأنت مجرم، وغير ذلك الكثير.. شعر بالسعادة، شكر الصدفة التي جلبته إلى هنا.

اتّفق مع حسّان على اللقاء خارج الإصلاحية التي سيغادرها في الغد، أخذ منه عنوان بيته، وبيت ابن عمّه، كان يطمح إلى معرفة الطريقة التي تمكّنه من الالتحاق بالمنظّمة التي عمل بها وأورثته المال الوفير الذي حدّثه عنه حسّان.



-١٣-



استيقظ صبيحة اليوم التالي، صلى الفجر، كتب بعض الأسطر، ثم تهيأ للذهاب إلى عمله، صادف زميله في العمل وجاره في العمارة (هاردي) الأمريكي، سأله عن حاله، وكيف كانت الإجازة، أخبره أنه سافر إلى الهند، وقضى وقتًا ممتعًا.

في بداية عمله في المدرسة ذات النظام الأمريكي، وموظفوها خليطٌ من الجنسيات المتعددة، أدهشته حياة الأمريكان والأوروبيين، كان يعرف بأنهم منضبطون، لكنه حين رأى ذلك، تحسّر على حاله وحال أقرانه في دول العالم الثالث.. يستيقظ معظمهم قبل الفجر، يمارسون الرياضة، ثم يعودون ليستعدوا للعمل، لا تلتقي عينك بعين أحدهم إلا وابتسم، تذكّر بعض المشاجرات التي كانت تحدث في الجامعة بسبب التقاء عيون شخصين، فيسأل أحدهما الآخر: لماذا تنظر؟ وكلمةٌ من هنا وأخرى من هناك، فتندلع مشاجرة تتحوّل أحيانًا إلى جماعيّة.

إنهم يعشقون الحياة، يعيشونها بتفاصيلها، لا يحبون التعقيد، يتقبلون ذواتهم ويحبونها، لذا يحبون الآخرين، فكيف لإنسانٍ يكره نفسه أن يحب غيره؟ في الحقيقة إن كثيرًا منّا لا يقبلون أنفسهم، دائمو النظر إلى غيرهم بصفتهم أفضل حالًا، إنه إرثٌ نرثه من توجيهات آبائنا الخاطئة، فهم يصرون على مقارنتنا بغيرنا عند كلّ مناسبة، حتى نظن أن بنا خللًا ما، نقصًا لا نراه.

ركب سيارته وقصد المدرسة، منظر الشروق في الصحراء به سرٌّ عجيب، جمالٌ آسر، تطلع الشمس فتراها من بين النخيل، ينعكس شعاعها من على رمال الصحراء الناعمة، وكأنها أحجارٌ كريمة تسرُّ الناظرين.

استرجع تلك الأيام، حين كان مجبرًا على المشي في كلّ يوم ما يقارب العشرين كيلو مترًا، لأنه لا يملك أجرة النقل، صارت ذكرى، يراها أحيانًا جميلة، فلولا أيام الضنك تلك، ما كان ليستشعر قيمة النعمة التي حظي بها.

ولكن الفقر موجع، يخلّف جراحه في النفس، فأنت أحيانًا تنكسر، لا تجد ما يقيم أودك، فتسأل صديقًا أن يقرضك مبلغًا من المال، وحين يرفض أو يعتذر تشعر بمديةٍ حادة تجتزّ قطعةً من قلبك.

(هناك من يريد خطبة أسماء)

جفل، التفت إلى المقعد الخلفي، تخيّل أن أحدهم يخاطبه، إلا أن الصوت آتٍ من الداخل.

جنّ جنونه حين أخبرته سميّة بذلك، إنها على معرفةٍ بما بينهما، لا، لن يسمح بذلك، لن يخسر من فجّرت ينابيع الحبّ في قلبه، سيقاتل

من أجلها جيوش الدنيا، سيقاوم حتى آخر رمق، كيف سيقوى على العيش بعدها، لقد باتت تساوي الحياة بما فيها، إن خسرها فلا خير في حياته عقبها، إنه مستعدٌ أن يضحي بروحه من أجلها.. لا، ليس مجرّد كلام، أقسم أنني أتنازل لها عن روحي إن طلبت، يظنون بأنني أبله جبان، سيرون ما فعله بي حبّك، كيف نفخ فيّ الشجاعة والعزيمة، جعلني حبك إنسانًا آخر، سأكون خائنًا إن تخلّيتُ عنك.

(كتبتُ هذه القصة أرجو أن تعجبكِ)

عاملته بطيبة شديدة، كان زميلها في نفس العمل، الوحيدة التي استطاعت تحطيم قيود قلبه وإطلاق سراحه، ظل مترددًا بين الإقدام والإحجام، ولكن حين غمر الحبّ قلبه، طرد منه التردد والجبن وزرع فيه الجنون.

هو معلم اللغة العربية الجديد الذي تعاقدوا معه للعمل مع أطفال ذوي حاجات خاصة، وهي أخصائية العلاج الطبيعي، كانت تحبّ الأطفال وتعاملهم بلطف، رأى فيها حنان الدنيا، الحضن الذي سيعوّضه القسوة التي عاناها مذ وُلد.

صار يستغل المواقف التي يكونان فيها وحيدين، يلاطفها، يسألها عن الأطفال، قرأ في عينيها قبولاً شجّعه على المزاح معها، حين ضحكت أول مرّة شعر أنه في الجنة، أصيب بدوارٍ لذيذ كاد يصرعه، التمعت عيناه، خشي أن يبكي أمامها فتخاله مجنونًا، ترقّبها حتى غادرت، هرع إلى الحمام، أقفل على نفسه.. وبكى.

لا يكتمل الفرح إلا بالدموع..

لاح له وجهها الملائكيّ، لا يعرف من أين انبثق وجه فدوى، تلك الفتاة المجنونة، وصل إلى المدرسة، ألقى التحية على الحرّاس ومن وجدهم في طريقه، دخل مكتبه، شغّل الحاسوب، ما زال بعض الوقت حتى يبدأ اليوم الدراسي، فتح روايته الجديدة وأكمل.



-١٤-



(أتعرف أنني بتّ أحبّ الروايات؟ كنتُ أظنّها مضيعةً للوقت، وكم كنتُ مخطئة، إنها عالمٌ آخر، مفتاحُ بابٍ سرّي، يكشف عن مرجٍ واسع من زهور لم أكن لأراها)

طافت بسمته الرقيقة في خيالها، كتّاب الروايات يملكون ذاكرة حديديّة، وهي إحدى الأسس التي يقوم عليها عملهم، ولذا فهم لا ينسون بسهولة، وتلك واحدةٌ من مآسيهم، تظلّ الذكريات في رؤوسهم أبدًا، لا يستطيعون الخلاص منها، وربما يكونون من بين ندرة يقوون على العودة إلى الماضي والعيش فيه، استحضاره بكامل تفاصيله التي حدثت، دون ضياع قيد أنملةٍ منها.

لو عرفتُ أن هذا الأبله سيفتق جروحي، ما كنتُ اقتربت منه، إنه مثل النور الذي يصطاد الفراشة، ظننته نورًا سيقودني إلى حكاية مشوّقة، وإذا به نار أحرقت راحة بالي وطمأنينتي، حسنًا، سأتهيأ للذهاب إلى عملي، الانهماك في العمل يُنسي..

ولكن ليس الجميع، همس وسواسها، إنها تدرك هذه الحقيقة، بيد أنها تحاول الاحتيال على نفسها، تتمنى الخلاص من تلك الذكريات وغيرها، إن الذكريات مثل طوقٍ من خرز، حين ينفرط، تتساقط تباعًا.

سقطت خرزةٌ أخرى من الطوق، صدر عنها رنين قويّ، دوّى صوته في أذنيها، صكّتها بيديها، صور أيامها تتقلّب أمامها، تجتهد في ألا تراها، غير أنها كلما حاولت إبعادها، عاندتها والتصقت بوجهها، تلحّ عليها بأن تطالعها جيّدًا.

ظهر والدها، كان قادمًا من عمله، عبوس الوجه، التزموا الصمت حين دخل، لاذت بالقبو، تمنّت أن ينساها، لا يسأل عنها هذه المرّة، جاء صوته حادًّا قويًّا أجش:

(فدوى)

كلما لاح لها وجهه، وترجّع صوته في رأسها، تكوّرت على ألمها وحزنها، تجتهد في حماية نفسها من ضرباته القويّة.

صعدت من القبو مسرعةً، رأت الحزام بيده، انهمرت الدموع من عينيها، كانت دموع توسّل ورجاء.

(ماذا تفعلين؟)

تلعثمت وهي تلملم بالحروف لتقولها، تلقّت أوّل جلدة.

(ب..ل..ع..ب)

خرجت الحروف من فمها ترشح رعبًا، أما في داخلها، فكانت تلعنه، تقول بلغةٍ أخرى: نعم كنتُ ألعب، ألا ترى بأنني ما زلت طفلةً أيها الظالم؟

تلقّت الجلدة الثانية، لم تحتملها، سقطت أرضًا، تمنّت أن يحميها أحدهم من هذا الوحش، ولما رأت أمها وإخوتها مكوّمين في الزاوية، عرفت أن ذات المصير ينتظرها.

رجّت رأسها طاردةً هذه الذكريات الأليمة، شعرت أن جسدها يؤلمها، دخلت لتأخذ حمامًا دافئًا، يهدئ من روعها.

لقد تخلّصتُ من تلك الأيامِ، تغلّبت عليها، إلا أن ذكرياتها، تأبى مفارقتي، تلازمني، لا أعرف لمَ، ربما لأستشعر النعمة التي بتّ فيها، ربما عليّ زيارة الطبيب النفسيّ، فقد يفلح في اقتلاع تلك الجذور السامة من عقلي.

خرجت من الحمّام، لم تنم سوى ساعتين، انهمكت في الذكريات والكتابة، كحالها في كلّ مرةٍ، ارتدت ثيابها، وضعت أغراضها المهمّة في حقيبتها الشخصيّة، ركبت في سيارتها، ومشت نحو عملها.

(هذي آخر أيامٍ لنا في الجامعة)

عاد صوته يدغدغ ذاكرتها الحنونة التي تأبى طرد طارقي أبوابها، تُدخلهم، وتدعهم يجلسون أينما شاؤوا.

(نعم، لم يحدث جديد معك؟)

(إن الوظائف في البلد شحيحة، لكن لا تخافي سأسافر إلى دول الخليج، فتخصصنا مطلوبٌ هناك بكثرة)

(يعني سأنتظر مزيدًا من الوقت)

(مجرّد سنة أو أقل)

انتابها شعورٌ بالخوف، تمنّت لو أنها لم تلتقِ به، لقد قلب حياتها رأسًا على عقب، ظنّته مختلفًا، سيقاوم الظروف، تلك الكلمة التي فرّقت بين كثيرٍ من القلوب العاشقة.

البحر يبتسم لها، شغّلت أغنية حسين الجسمي (قهوة وداع)، أعادتها منذ الأمس مئات المرّات، أدمنت سماعها، فيها عزّة، وتحكي قصةً نعيشها كلّ يوم؛ أنتظرك طويلًا فلا تأتي، وحين تقرر أن تجيء، أكون مللتك وقررتُ أنا الابتعاد.

زفرت تنهيدة عميقة. رجع ذلك اليوم وطرق باب الذاكرة، رأته وهو يدلف إلى قاعة مناقشة الكتاب الجديد، كانت تجلس رصينة حتى دخل، ففقدت توازنها، إلا أنها تماسكت.

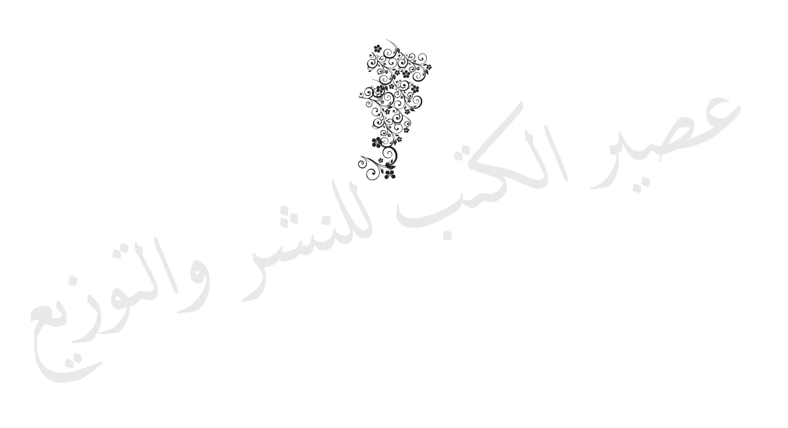
كانت قد جلبتها صديقتها، قالت لها إن مجموعةً من الشباب المثقفين أسسوا ناديًا للقراءة، وفي كل شهر يناقشون كتابًا جديدًا، ذهبت، لا تعرف أكان ذلك من حسن حظّها أم من سوئه، كان شديد الحماس، يتكلّم بطلاقة وفصاحة، أذهلتها شخصيّته، كانت تظنّه من المثقفين المفصومين، أعداء الحياة، تلك الفئة التي تعيش في عالمها الخاص، وتعتقد بأنه العالم الأفضل، وتنظر إلى الآخرين بدونيّة، غير أنه فنّد معتقداتها الخاطئة.

أبهرها، كان ذلك الإنسان المميّز الذي بحثت عنه، حدث بينهما تجاذب، حين التقت أعينهما، لسعه تيارٌ لذيذ زاد ارتباكها، ابتسم لها، وكأنه يرحّب بها، استحت، تمنّت أن تركض خارجةً من الغرفة.

نحن نعتقد أن بعض الأشياء تحتاج إلى معجزاتٍ كي تتحقق، لكنها في الواقع لا تتطلب أكثر من أمنية وآمين عميقة.

وهذا ما حدث معها، بعد انتهاء جلسة المناقشة، فوجئت به أمامها يقول:

(أتسمحين لي بدعوتك على شيء؟)



شمسٌ آفلة

اشترت بالنقود التي وجدتها في المغلّف، وكانت خمسين دينارًا، دفترًا للكتابة ومجموعة أقلام، وجلبابًا لأمها، وحذاءً لأبيها، بكى حين أخرجت الحذاء من صندوقه، تذكّر قسوته عليها وضربه لها، ربّتت على رأسه، هوّنت عليه، قالت له إنها تسامحه من كلّ قلبها، تمنى لو أن الله أعطاه بناتٍ بدلًا من الذكور الذين أمعنوا في إهانته.

ساعدتها السيدة أمينة في تطوير مهاراتها الكتابيّة، عملت على معالجة نقاط ضعفها، عرفت فدوى أن السيدة أمينة قامت بتنقيح قصّتها التي شاركت فيها بالمسابقة، ولولاها ما كانت لتفوز أبدًا.

حظيت بطمأنينة إثر سجن إخوتها، قُبض على ثلاثتهم وهم يحاولون السطو على مصرف، سيقبعون في السجن بضع سنين، شعرت فدوى بالأسى عليهم، غير أنها استغلت غيابهم على خير وجه، عمّ السلام البيت، الأب يداوم على الصلاة، الأم، آهٍ منها الأم..

أمي حزينة على أبنائها، تلحّ على أبي بأن يعيّن لهم محاميًا يدافع عنهم، ثمة لبسٌ، أكيد أن في الأمر لبسًا، كيف لأبنائي أن يسرقوا، إنهم أفضل أولاد في هذه الأرض.. لو كان أبي على حاله كما السابق، لضربها وشتمها واتهمها بسوء التربية، إلا أنه أخذ يصبّرها، ويطلب منها أن تدعو لهم، لعلّ الله يهديهم.

كتبت فدوى قصص إخوتها، كانت محتارةً، فمرّةً تجعلهم مجرمين لا ينبغي التعاطف معهم، وأخرى تلتمس لهم العذر، فهم ضحايا بيئة مريضة، عرضت القصص على السيدة أمينة، طارت فرحة بها، قالت لها إن الأدب الحق هو الأدب الذي يعبّر عن معاناة البشر، والكاتب الجيد هو الذي يعي هذه المعاناة ويخطّها طمعًا في تغييرها، إنه صاحب رسالةٍ سامية إن لم يحافظ عليها سيفقدها.

دوّنت نصائح السيدة أمينة في آخر صفحات الدفتر، كلما سمعت شيئًا جديدًا كتبته، المعلّمات اتّخذنها مثالًا على قدرة الإنسان في التبدّل والتحوّل إلى الأفضل، أذهلتهن بذكائها الحاد، تعجّبن، من أين لها كل هذا؟ ولِمَ كانت تخفيه؟ سألن السيدة أمينة عن الوصفة السحريّة التي استخدمتها معها، رغبن في تجريبها مع بقية الفتيات، قالت لهن كلمةً واحدة: الحب.

الحب تلك الكلمة السحريّة التي تُخرج أفضل ما في الإنسان.. تعين وردة نفسه على دحض الشوك.. تفتح لها طاقةً تسمح لشعاع

الحياة بسقيها لتنمو.. تأخذ بيد الملاك في داخله.. تمده بالقوّة ليهزم الظلام.. فيطلع نوره.. تراه فتحسبه إنسانًا آخر.

نفذ نور الحب إلى قلب فدوى، شعرت أنها تحب الحياة، تلك الحياة القاتمة استحالت طبقاتٍ من غيمٍ ناعم، تتقافز فوقها، تدفعها لأعلى، تطّلع على ما في قلوب الآخرين من أوجاع، لو كانت الأوجاع تُرى لاحتضن البشر بعضهم بعضًا ولم يتقاتلوا مطلقًا.

كل القلوب موجوعة، أوجاعها على قدر احتمالها؛ القلب الكبير وجعه كبير، الأصغر وجعه أقل، ومن لا يملك قلبًا.. خالٍ من الوجع!

كانت تجلس ذات صباح مشرق في زاوية المدرسة، تكتب خاطرةً عنّت لها في الصباح، لم تشعر بالسيدة أمينة، رأتها أمامها، نهضت بسرعة، اعتذرت منها لأنها لم ترها، أخبرتها أن لا بأس، السيدة أمينة كأنها تخفي شيئًا وراء ظهرها، طلبت من فدوى المشي معها، لمحت في يد السيدة أمينة كتابًا، غمرتها السعادة، فقد وعدتها بأن تجلب لها كتابًا شيّقًا، فالكاتب الجيّد يجب أن يكون قارئًا جيّدًا، هذا ما قالته لها.

- كم عمرك يا فدوى؟

استغربت السؤال، فالسيدة أمينة بالتأكيد تعرف كم عمرها.

- خمس عشرة سنة.

- حياتك منذ الآن سوف تتغيّر، وأنتِ قادرةٌ على تحقيق أشياء عجز عنها كثيرون، نادرون من نشروا أعمالاً في مثل عمرك، أمامك فرصةٌ إن أحسنتِ استغلالها فسيصبح لكِ شأنٌ عظيم، تعلمين أنني لم أُنجب، ولو أنني أنجبت ما كنتُ لأحب ابنتي مثلما أحبك، أنتِ حلمي الذي عجزتُ عن تحقيقه، وها أنا أضعك على بدايةِ الطريق لتحقّقيه.

لم تفهم فدوى الكثير من كلام السيدة أمينة، التي كانت عيناها مبتلّة بالدموع. أخرجت السيدة أمينة الكتاب، ناولتها إياه، كادت تجنّ حين رأت اسمها على الغلاف الأمامي، فدوى جابر، واسم المجموعة القصصيّة، حكايات من تحت خط الفقر.

أخبرتها السيدة أمينة بأنها تواصلت مع صديق لديه دارٌ للنشر، عرضت عليه المجموعة القصصيّة فلم يتردد بقبول نشرها، احتضنتها السيدة أمينة، طلبت منها المواصلة في هذا الدرب، فكل من قرأ مجموعتها ذُهل، وخاصةً حين يعلمون أنها لفتاةٍ لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها.

ما أجمل الحياة حين تعيد السعادة لقلبٍ مزّقته الأحزان!

لكن!



جرحٌ مفقود

لحق بحسّان الذي أفرج عنه قبله بأسبوع، خرج من الإصلاحية أستاذًا في الجريمة.. بحث عن بيت حسّان، الذي كان يقطنُ حيًّا كثيف السكّان في مدينة الزرقاء، وهو من الأحياء التي يضرب فيها المثل على مستوى الأردن قاطبةً في الإجرام.

رحّب به حسّان، كان حمزة يتحرّق للقاء صفوان، ابن عمّ حسّان. في المساء أخذه حسّان إلى بيتٍ يؤمه شبابٌ كُثر، بمثابة وكر يلجأ إليه أصحاب السوابق، شربوا الخمر، دخنوا الحشيش والجوكر، تخلّى حمزة عن صمته بعد أن فعلت المشروبات فيه أفاعيلها، هوَ أصغرهم سنًّا، بيد أنه استثنائي، يملك سمات القائد التي يفتقرون إليها، قصّ عليهم حكاياتٍ مضحكة من تأليف خياله، أعجبوا به، حان وقت إخضاعه إلى اختبارات القبول، طلبوا منه مصارعة حسّان، صرعه في لمح البصر، انتقوا له شخصًا ضخم الجثّة، تمكّن من التغلّب عليه،

استلّ أحدهم مسدّسًا وهدّده، يرومون رؤية ردة فعله، ظلّ صامتًا ساكنًا، لم يظهر عليه الخوف، مع أنه يرجف من الداخل، إلا أن عقله المخدّر وأعصابه المسترخية ساعداه في الحفاظ على هدوئه.

دخل من الباب شابٌ مفتول العضلات، يملك كاريزما قويّة وهيبةً فريدة، فرض حضوره الصمت والاحترام على الجالسين، كانوا ثلاثة عشر شابًا، حدس حمزة أن الداخل هو صفوان، تمامًا كما وصفه حسّان، أُعجِب به على الفور، كوّن صورةً إيجابيّةً عنه وها هو يرسّخها في نفسه.

طلب إليهم بصوتٍ واثق أن يتوقفوا عن العبث، تناول زجاجة بيرة، شربها، أشعل سيجارة حشيش، عبّ منها أنفاسًا عميقة، ظلّ محافظًا على صرامة ملامحه، في عينيه بريقٌ عجيب يشي بأن قلبه ميّت، فطن لوجود حمزة، سأل حسّان عمن يكون هذا الشاب.

(حمزة، صديقي في الإصلاحية، وهو راغبٌ في التعرف عليك)

رازه بعينيه، ثم أشاح عنه، شعر حمزة بالإهانة، نهض، ضرب زجاجة بيرة بقدمه وخرج، اعتذر حسّان من صفوان، لحق بحمزة الذي كان في أوج غضبه.

(مجنون أنت؟ إنه مستعدُ أن يقتلك دون أن يرفّ له جفن)

(وأنا لا أخافه ولا أخاف الموت)

(أرجوك، اخفض صوتك، لا تدعه يسمعك)

رفع صوته أكثر وقال:

(فليسمع أنا لا أكترث له، إنه مجرّد هيكل فارغ)

خرج صفوان من الغرفة، اقترب من حمزة، لكمه بقوّة في أسفل ذقنه، كانت تلك أول مرة يلكم أحدهم بتلك القوّة ولا يسقط، ردّ حمزة بلكمةٍ قويّة في معدته، تلاحما، تصارعا، حسّان يعرف أن حمزة قويّ لكن أن يصمد أمام صفوان! كانت مفاجأة لم يتوقعها.

راقب من في الغرفة المعركة، تمنوا أن يُهزم صفوان، كي تُكسر شوكته، وبعد عراكٍ طويل، تعثّرت قدم حمزة، فسقط، سقط صفوان فوقه، رفع يده إلى أعلى، وقبل أن تصل وجه حمزة، توقّف.

نهض من فوقه، مدّ إليه يده، رفعه عن الأرض، طلب منه مرافقته إلى مقهى قريب، سأله في الطريق عن حياته، وسبب دخوله الإصلاحية، أجابه، استفسر منه عن سبب طلبه من حسّان التعرف عليه.

(أريد العمل معك)

(العمل في ماذا؟)

وصلا المقهى، اقتعدا ركنًا قصيًّا، كرر سؤاله:

(العمل في ماذا؟)

(علمتُ من حسّان أنك حصلت على مبالغ طائلة من المال، وأنا مستعدٌ لعمل أيّ شيء للحصول على المال)

(تعجبني صراحتك، ولكنك ما زلت صغيرًا على مثل هذا العمل)

(عرفتُ أنك كنت أصغر مني حين التحقتَ به)

ابتسم صفوان، رأى في حمزة بركانًا يغلي، قنبلةً موقوتة متأهبة للانفجار في أي وقت.

(ولكن العمل ليس سهلًا كما تظن، إنك تحمل روحك على كفّك، من المحتمل أن تخسرها في أي لحظة)

(لم تكن لحياتي قيمة بلا مال ولن تكون، لئن أموت خيرًا لي من أن أعيش وأنا فقير)

(حسنًا، أمهلني أسبوعًا وبعدها تعال لأعطيك الخبر اليقين)



-١٥-

هوَ

انتهى اليوم الدراسيّ الحافل، العمل في التدريس مرهق، كان يظنّ أنه العمل الأصعب في الحياة، حتى بدأ يزاول الكتابة، أيقن حينها أن لا عمل أصعب من الكتابة، وخاصةً في وقتنا الحاضر، مع وجود هذا السيل المتدفّق من الكتّاب، والكميّات المهولة من المؤلفات، أزف فساد ذوق القراء.

كان يُدهشه انتشار بعض المؤلفات وكتّابها، يقرأها فيجدها لا تستحق كلّ ذلك، ويقرأ مؤلفات مغمورة لكتّابٍ مغمورين، فيعجب بها أيَّما إعجاب، لم يكن سهلًا ألبتةً الدخول إلى هذا الميدان، وحينما دخله، وصار صعبًا الخروج منه، أصيب بحالة إدمان، صارت الكتابة عالمه الذي يفزع إليه، يفرغ فيه مشاعره قبل أفكاره، يمزج قصص الناس بخياله الجامح، فينتج عن ذلك حكاياتٍ جميلة.

جلب بيتزا من (بيتزاهت)، لاحت له أيام الجوع، كان يقضي يومًا كاملًا لا يتناول فيه سوى وجبة واحدة، وأحيانًا لا يجدها، ترى ماذا فعلنا لك يا بلادي لتقسي علينا هكذا؟ أولسنا من يدافع عن ترابك؟ ألا يضحي أبناؤنا وإخواننا بدمائهم لحمايتك؟ ألم نحتمل في سبيل رفعتك كلّ هم؟ لماذا إذن لا تكشفين عن وجهك الجميل إلا للصوص؟ تبدين لهم مفاتنك ولا نرى منك سوى الوجه العبوس، وجه الفقر والحاجة، وجه الإهانة والذل، ألا تقولين بأننا أبناؤك؟ فكيف تقسو أمٌّ على أطفالها.

قضّت الأسئلة مضجع راحته، رجّ رأسه، إنه مجرّد ماضٍ وذهب، لم تكن بلاده الوحيدة التي تقسو على أبنائها، وجد هنا العديد من البلدان تفعل ذلك، وبدرجةٍ أشد، الكثير من العاملين القادمين من دول شرق آسيا وأفريقيا، وجوههم خرائط للعوز والفاقة، يعملون دون شكوى، يأخذون جزاء أعمالهم نقودًا قليلة، إلا أنها بالنسبة لهم ثروة طائلة، يدَّخِرون منها، ويرسلون جزءًا إلى أسرهم الراضخة تحت نير الفقر والجهل والاستعباد.

هل نتحوّل يومًا لمثل تلك الشعوب؟ ولمَ لا؟ إن استمرّت الأوضاع بالتردّي فلا مناص من ذلك، قدح بباله حديث ابن بلده، كان مريضًا بصورةٍ واضحة، سأله لماذا لم تأخذ إجازة؟ ردّ بأنه يخاف أن يتخلوا عنه إنْ غاب، إنه مصابٌ بفوبيا اسمها: العودة إلى الوطن!

هنا جنة الله على الأرض بالنسبة للوافدين، الإمارات دولة حديثة، كلّ شيء فيها جميل، نظامها مرن إلى أبعد الحدود، معاملاتها الرسميّة سلسة، البنية التحتيّة من أفضل ما يكون، ناهيك عن معاشاتها الضخمة، والتي تفوق معاشات الأردن بثلاثة أضعاف وتزيد.

(توجد فرصة عمل)

لم يصدّق أذنيه حين سمع ذلك، طالما حلم بالسفر، إنه حلم المظلومين والمقهورين، لم يجد في وطنه من يقدّر تعبه أو موهبته، اجتهد كثيرًا حتى حظي بدرجة الدكتوراه في اللغة العربية، ومع ذلك لم تتحسّن حالته، بل على العكس تمامًا، صار الظلم أشدّ وطأة، فهو يعمل تحت إمرة مدراء يحملون مؤهلاتٍ أدنى من مؤهله، كان يشعر بألم حادٍ في كبده وهم ينظّرون إليه، يصمت، لا يقاطعهم، يتجرّع مزيداً ومزيدًا من القهر ويصمت، وحين ينفرد بنفسه، يبكي، لا شيء بيده سوى البكاء، لم يعثر على (واسطة) تسهّل وصوله إلى مكانٍ يستحقّه، المكان الذي حلم به من صغره، التدريس في الجامعة، ولكن هيهات.

الفساد المستشري في مؤسسات الدولة حرمه ذلك مثلما حرمه كثيرًا من حقوقه، ولما سمع صوتَ صديقه يقول:

(توجد فرصة عمل)

لم يتردد لحظةً واحدةً في القبول، سيحصل على المال وبعدها لا شيء مهم، سيجمع مبلغًا يكفيه ليشتري بيتًا ويتزوّج، سيحبّ، نعم سيحب هذه المرّة بقلبٍ قويّ، لن يخشى ضياع حبيبته مثلما حدث سابقًا.

(إنك كاتب فذ)

كاد يغمى عليه من الفرحة، ابتسم، تلك البسمة البلهاء التي تقول لا أعرف كيف أرد.

(هل تطمح أن تصبح كاتبًا؟)

أومأ برأسه أن نعم، رأى بريق الإعجاب يشعّ من عينيها، ابتهج قلبه، كان يرقص فرحًا، أخيرًا عثر على فتاة تحبّه، حدس بأن الحب سلاحه القويّ الذي سيمكنه من الانتصار في حال خاض معركةً مع الفقر.

(ألديك قصص أخرى؟)

هزّ رأسه بالإيجاب، إنه ليس أحمق، يعرف أن الفتيات يحبّذن الارتباط بالكتّاب، وهذه نقطةٌ أخرى في صالحه، يحلم بالشهرة والمال، ظنّ الكتابة فرصةً ستنجيه من براثن الفقر والخوف، سيكسب مالًا وفيرًا، فلقد سمع بأن بعض الكتّاب لا عمل لهم سوى الكتابة، إذن فهم يحصلون على مبالغ جيدة نظير الكتابة.

في المساء، فتح صفحته على الفيسبوك، ذُهل حين رأى طلب صداقةٍ منها، أضافها بسرعة، ومنذ تلك اللحظة بات الفيسبوك عالمه الذي يقضي فيه جلّ وقته، وخاصةً بعد فتح باب الرسائل الخاصة بينهما.



-١٦-



دخلَتْ المستشفى الذي تعمل فيه، (مستشفى برجيل)، وهو واحد من أكبر المستشفيات في أبوظبي، حصولها على هذه الوظيفة كانت بمثابة طوق نجاة.

(ماذا؟! تسافرين للعمل في دولةٍ غريبة!)

رفض أبوها وإخوتها ذلك جملةً وتفصيلًا، ولما أخبرتهم أنها ستحظى بمعاشٍ خياليّ لم يحلموا به يومًا، لانوا قليلًا، وحينما أطلقت الرقم في وجوههم مثل سحر فرعونيّ، فرحوا، ٢٥٠٠ دينار أردني، إنه يعادل تقريبًا معاش وزير في الأردن، قالت إنها ستحوّل إليهم كلّ شهر ١٥٠٠ دينار كاملة، انتعش قلب الأب، وافق فورًا، وما دام وافق فلا أحد يجرؤ على معارضته.

رافقوها إلى المطار، أبوها وأمها وإخوتها الثلاثة، تنفّست الصعداء حينما دخلت المنطقة الممنوعة لغير المسافرين، تخلّصت منهم دفعةً

واحدة، لم تصدق نفسها وهي تركب في الطائرة، ظلت خائفةً من وجود خلل يمنعها السفر، وما إن حلّقت الطائرة حتى انسكبت دموع الفرح من عينيها.

بدأت حياةً جديدة، فصلًا سعيدًا واحدًا في كتاب حياتها التعيس، امتلكت ناصية أمرها، تفعل ما يحلو لها، ضمن ضوابط ومبادئ لم تُفلح قسوة الحياة في تغييرها، أسكنوها شقةً مكوّنةً من غرفةٍ ومطبخ وحمام وصالة صغيرة، كانت في عينيها أجمل من قصرٍ منيف، هيَ التي طالما حلمت بغرفةٍ خاصة لها وحدها، غرفةٌ لا تُنتهك حرمتها من أحد، وبعد سبع وعشرين سنة تحقق ذلك الحلم، ثم توالى تحقيق الأحلام، لقاء البحر اليوميّ، في أول مرة جلست فيها على شاطئ أبوظبي، أحسّت بشيء يفوق السعادة، شعورٌ بالخفّة وهبها جناحين طارت بهما إلى أرض الخيال، وقتئذ ناجت الله ألا يحرمها هذه النعمة، ستفعل كل ما يرضيه ليحميها من الرجوع إلى الوطن! ثم حصلت على رخصة قيادة، هذا الأمر كان أقرب إلى المستحيل، لو سمح لها أهلها بالحصول على رخصة قيادة، فمن أين ستجمع المال لتشتري سيّارة؟ إلا أنها هنا وفي غضون ستة أشهر ابتاعت سيارةً جميلة وحديثة (تويوتا كامري ٢٠١٤).

دلفت إلى القسم الذي تعمل فيه، قسم الطب النفسي، كانت شغوفة بهذا المجال، تحب الاطلاع على النفس البشرية، صحيحٌ أن عملها كممرضة لا يتيح لها فرصة معرفة الكثير، بيد أنها تسمع نتفًا من حديث بين الأطباء والمرضى أحيانًا، إنه قسم شديد السرّيّة، لا يسمح لأحد بنقل أية معلومة مهما كانت تافهة عمّا يحدث داخل حدوده، وفي حال حدث ذلك، يطرد الفاعل فورًا ويحوّل إلى التحقيق، وقد يُسجن بسبب فعلته.

ولذا حين قررت أن تكتب، استخدمت اسمًا مستعارًا لاعتبارات كثيرة، أحدها الهروب من المسؤولية، لأنها نوت أن تكتب بعض القصص عن المرضى النفسيين.

ارتدت زيّ الممرضات، وباشرت عملها، تقيس حرارة المريض وضغطه، وزنه وطوله، تسأله إن كان يشكو من أمراض سارية، حساسيّة لأدوية معينة، تسجّل أجوبته على ورقة، تُدخلها إلى الطبيب.

القسم من أقل الأقسام ازدحامًا، ما زال الناس في الشرق يعتقدون أن من يعود طبيبًا نفسيًّا، لا بدّ أن يكون مجنونًا، وخوفًا من كلام الناس، يحجم كثيرٌ ممن يحتاجون إلى علاج عن الذهاب إلى المختصين، وفي أحايين كثيرة تتفاقم مشكلاتهم، وتنتهي بكوارث.

جاءت زميلتها (كيت) وهي من الفلبين، فتاة رقيقة، طيبة، مثل نسمة هادئة، تحبها فدوى كثيرًا، تفرح حين تعرف أنها معها في نفس وقت العمل، كيت فتاة تعول أسرةً محتاجة، ضمن لها عملها في الإمارات توفير حياة كريمة لهم، تحدثتا في أمورٍ شتى، كيت فطنة، لمحت تحوّلًا في فدوى، سألتها إن كانت بخير، ردّت أن أجل.

لماذا سألتني هذا السؤال؟ أيكون بدا عليّ تأثرًا بعد لقائه؟ آه منها الحياة! لا بأس، لن يكون بقوّة الذي سبقه (علاء).

(أتحبين الروايات؟)

(كنتُ لا أطيقها)

(وما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟)

اعتراها الحياء، لم تجبه، ومن غيرك، قالت في نفسها.

كانا مناسبين لبعضهما بعضًا، الجميع أخبرهما بذلك، نشأ بينهما حبٌ جامح، كانا في أوضاع متقاربة، كل شيء بينهما مشترك؛ من ذات الطبقة الاجتماعية، فقراء، يملكان أحلامًا كبيرة، متميزان في دراستهما، يحبّان القراءة، في شخصيتهما شيء من الغموض.

وعدها بأنه سيخطبها فور عمله، ووعدته ألا ترتبط بغيره، ستنتظره وتقف إلى جانبه، تمنيّا أن يعملا معًا في مستشفى واحد، لن تقدر على فراقه، ستموت إن ابتعدت عنه.

كان فرحتها الكبرى، أخيرًا ستتزوّج إنسانًا يحبّها وتحبّه، سيأخذ بيدها وينتشلها من بئر الأحزان التي تغرق فيها، سيصبح لها بيتٌ تدير شؤونه، لن يُتحكّم بها بعد اليوم، ستعتق رقبتها من الرق الذي وُلدت فيه.

ستخلص من غلظة أبيها وقسوة إخوتها، ما زالوا يظنونها طفلةً صغيرة، يمطرونها بالشتائم وأحيانًا يضربونها، لا بأس سينتهي ذلك قريبًا، أبوها متلهّفٌ لتخرّجها وحصولها على عمل، يترقّب ذلك اليوم بفارغ الصبر، يخطط لأخذ قرضٍ ضخم من البنك ستسدده من معاشها، ستعطيه النقود مقابل السماح لهاً بالزواج، ستقاتل من أجل ذلك، ستقاتل مثلما قاتلت لتدخل الجامعة.

(جامعة! ومن أين لي بمصاريف الجامعة؟)

لم يشفع لها مجموعها المرتفع في الحصول على منحة، والدراسة في الجامعة تحتاجُ ثروة، بكت وانتحبت بلا فائدة، هددتهم بالهرب، ضربوها قيّدوها، أبوها مزارع لا معاش له، وإخوتها جنود في الجيش، أخذوا قروضًا ليبني كلٌ منهم غرفتين يتزوّج ويعيش فيهما، لم تعلم

أن أمها، تلك المرأة المسكينة، هي التي ستنقذها، غافلتهم ذات يوم وذهبت إلى رجلٍ ذي مالٍ من المحسنين، رجته أن يتكفّل بابنتها، أشفق لدموعها وتوسّلها، وافق.

(هل أنتِ بخير؟)

أخرجها سؤال كيت من وحل أفكارها، دعتها لشرب القهوة بعد انتهاء ورديتهما، حاجتها إلى الفضفضة والترويح عن نفسها، دفعتها إلى الموافقة.



شمسٌ آفلة

يقولون إننا في أوج الحضارة والثقافة والعلم، ذلك محض هراء.. لا أعلم ما هي المعايير التي يعتمدون عليها حين يبوحون بهذا الكلام.

كيف نكون في القمة وما زالت الفتيات في كثيرٍ من الدول يحرمن من التعليم، يجبرن على الزواج بأعمار الورود، يحرّكن ذات الشمال وذات اليمين دون أية معارضة، انظروا إلى وجه الأزواج حين يعلمون أن زوجاتهم يحملن في أرحامهن بنات.

أخبرتها السيدة أمينة بأن بعض الصحفيين يرغبون بإجراء حوار صحفيّ معها، ستذهبان إلى البيت وتطلب من أبيها السماح لها بأخذها إلى مدينة إربد، سيستضيفها برنامج إذاعي لتحدّثهم عن تجربتها باعتبارها أصغر كاتبة في الأردن، ثم ستلتقي بعض الصحفيين، عجز عقلها عن إدراك أن هذا حقيقة، ليس حلمًا جميلًا عابرًا.

شعرت أمها بالفخر حين أرتها الكتاب، أما الأب فكان ينتظر مغلّفًا آخر، فالعمل يظل بلا قيمة دون نقود، أخرجت السيدة أمينة مظروفًا فيه مائة دينار انتزعت بها الموافقة على ذهابها.. ركبت في سيارة السيدة أمينة، تمنّت لو كانت أمها، لفازت إذن فوزًا عظيمًا، وكأن السيدة أمينة قرأت ما يدور في نفسها، فقالت بلسانٍ محب:

(يا ابنتي يا فدوى، إن الله يضع كلًا منا في ظروف تناسبه، تلك حكمته سبحانه وتعالى، فمثلًا لو كنتِ ابنتي، هل كنتِ ستكتبين تلك القصص الرائعة؟)

فكّرت بهذا الكلام، نعم إنها محقّة، لا بأس على كلٍّ، الحمد لله، قالت في نفسها.

أخذتها إلى شارع جامعة اليرموك، رأت الطلبة وكأنهم زهورٌ في حقلٍ واسع، ارتعش قلبها، حلمت أن تكون هنا ذات يوم، خاطبتها السيدة أمينة بصوت الأم:

(ليس من الصعب الوصول إلى هنا، جدٌ واجتهاد وبعد ثلاث سنوات ستكونين واحدةً منهم، وهنا الفرصة كبيرة، ستجدين دعمًا ومكتبةً فخمة تصقل موهبتك أكثر وأكثر، وبعد زمن ستضحين من أكبر الكاتبات في الوطن العربي)

تزوّدَت بطاقةٍ كبيرة، ستبذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إلى الجامعة.. جلستا في استراحةٍ جميلة في شارعٍ مكتظ بالسيارات والناس، طلبت السيدة أمينة كأسي عصير برتقال وسندويشتين (زنجر)، كانت هذه أول مرة تخرج فيها فدوى من القرية، بدت مدينة إربد مثل تلك المناطق التي تشاهدها على التلفاز، أنِست بوجود الناس.

(في مثل هذه الأماكن تستطيعين شحذ خيالك، تعثرين على العديد من القصص كلما زاد الازدحام)

أسدت لها عرّابتها الكثير من النصائح، ظلت طول الوقت صامتة، تجيب إن سألتها فقط، أخذتها إلى مقر إذاعة (إربد إف إم)، طلبت منها أن تتحلى بالجرأة، أن تتحدث بلا خوف، تحكي بطبيعتها البسيطة، فالبساطة تدخل قلوب الناس بسهولة.

طلب منها المذيع التعريف بنفسها، فعلتْ، ثم سألها عن كتابها وآلية نشره والقصص المكتوبة، تحدّثت بلهجتها البسيطة، كانت السيدة أمينة تشجّعها بابتسامة رضا عريضة، انتهى الحوار وسط إعجاب المذيع بهذه الفتاة، توقع لها مستقبلًا باهرًا، حثّها على الاحتفاظ ببساطتها ولهجتها وألا تحوّرها، إن فعلت ذلك فسيضمن لها طريقًا معبّدًا بالزهور إلى قلوب الناس.

(كم أنا فخورة بكِ يا ابنتي)

قالت لها السيدة أمينة، احتضنتها، لم تعرف كيف تشكرها، نظرت في عينيها، إنها نبيهة ستفهم ما تقوله العيون، أجرت بعد ذلك حوارًا مع صحفي، سألها بعض الأسئلة، جاوبتها، استفسر منها عن الاسم الذي ترجع إليه الفضل في نشر كتابها الأول، لم تتردد في القول:

(أمي أمينة)

هطلت الدموع من عيني السيدة أمينة، ما كانت تتمنى أكثر من ذلك، لقد وهبت نفسها للتعليم ومساعدة الفتيات، إنها ليست بحاجة إلى المال، ولكنها بحاجة إلى العمل، تأمل في ترك بصمة في حياة طالباتها، كرَّست نفسها لذلك، شعرت بعظمة العطاء، نعمة أن تكون إنسانًا يعين الآخرين.

أخذتها إلى مطعم فاخر، قالت إنها ستحتفل بأول نجاحاتها، تخال فدوى أن معجزةً حدثت لها، من يصدّق أن تلك الفتاة التي كانت مدعاة لسخرية الآخرين، لعقاب المعلّمات، باتت في مكانٍ تتمناه كثيرات.

إرادة الإنسان معجزة..

بعد ذلك ذهبتا في جولةِ تسوّق، ابتاعت لها ثيابًا جديدة جميلة، قالت لها فدوى إن الملابس التي جلبتها لها سابقًا تكفيها سنتين،

ردّت بأن زيادة الخير خيران، ظنّت فدوى أن المستقبل سيكون سعيدًا، سنوات وتدخل الجامعة، بعدها ستعمل وتعيل نفسها، ستكتب قصصًا لم تخطر على قلب بشر.

أعادتها السيدة أمينة مع الغروب إلى البيت، دخلت تحفها السعادة، وجدت عندهم عمّتها صيتة وابنها خلدون الذي دخل الجيش قبل شهرين.



جحرٌ مفقود

رجع حمزة إلى الزرقاء لمقابلة صفوان، سأل عنه في بيته فلم يجده، ذهب إلى حسّان، انتظراه في المقهى، كان يتحرّق شوقًا، يتلهّف لسماع موافقته على الانضمام إليهم، ومع حلول الغروب جاء صفوان، كان منتشيًا، سلّم وجلس، نظر إلى حمزة، ثم قال:

(تبدو راغبًا جدًا في هذا العمل)

(بالتأكيد، بصورة لا تقبل النقاش)

(حسنًا، مبروك)

غمره الفرح، ها هي صفحةٌ جديدة تُفتح في كتاب حياته، سيكون عنوانها (المال الوفير)، سيجمع مالًا كثيرًا، سيفعل ما يحلو له، سيغدو قويًّا، يأمر فيطاع، لن يقوى أحدٌ على سجنه، سيظل حرًّا إلى الأبد، سيؤسس دولةً خاصةً به، منذ الآن فصاعدًا، سيودّع الضعف.

(ولكن عليّ تحذيرك)

(كلّي آذانٌ مصغية)

عبّ صفوان نفسًا عميقًا، زفره وكأنه يُخرج طنًا من الذكريات المكبوتة في صدره، ثم قال بلسانٍ يقطر ندمًا:

(من يدخل هذا المجال سيتبدّل، ولن يستطيع العودة كما كان مهما حاول، سيُمسخ، لن يهنأ براحة البال كلما نام واستيقظ، وحينما يكون وحيدًا ستغزوه الأشباح، تحاول نهشه، ولا يقدر على الفرار منها، عندما تقرر دخول هذه اللعبة القذرة ستكره نفسك)

أطرق حمزة يفكّر في كلام صفوان، ظنّه اختبارًا أخيرًا يفحص فيه رغبته الحقيقية في الحصول على هذا العمل، لن تخدعني، لن تنطلي عليّ هذه الحِيل، قال في نفسه، ثم ردّ عليه:

(لا عليك، أنا أصلًا ممسوخ، أنا صغيرٌ في السنّ تلك حقيقة، غير أنني اكتسبت خبرةً علّمتني إياها الحياة لم يحظَ بها كثيرون، الفقر هو الماكينة الأقوى التي تمسخ كلّ شيء، أتخال الفقراء بشرًا؟ لا، إنهم ظلال، أشياء خفيّة تتحرّك دون أن يشعر بها أحد، بالمقابل انظر إلى الناس كيف يعاملون الغنيّ، تبجيلٌ وتقدير، حتى لو كان لصًّا، أتشاهد الأخبار؟)

أومأ صفوان برأسه أن نعم.

(تعرف إذن كم سارق وفاسد نهب خيرات هذي البلد، ما الذي حصل لهم؟ أهناك من يجرؤ على إدانتهم أو الاقتراب منهم؟ أرأيت؟ إنني على حق، كن غنيًّا ولا شيء مهم بعدها، فالمال يجلب معه كلّ شيء آخر)

(إذن أنت تدرك حجم المخاطرة المقبل عليها)

(تمامًا)

(ذنبك على جنبك، استعد في الغد لأعرّفك على المورِّد)

سأله من يكون المورّد، قال إنه المسؤول عن تأمين مستلزمات سفر الجنود الجدد، ذهبوا إلى الوكر لإكمال سهرتهم وتوديع حمزة، فلربما لن يلتقوا به تارةً أخرى، قضوا ليلةً جامحة، شربوا ودخنوا الحشيش والجوكر حتى وقتٍ متأخر، وبعدها انكفؤوا على وجوههم، ناموا مثل القتلى.

استيقظوا في الثانية ظهرًا، ودّع حمزة حسّان، ثم أخذه صفوان لمقابلة المورّد، أدخله أزقّةً عجيبة، وكأنه في متاهة، وبعد قرابة الربع ساعة من المشي، أخرج صفوان غطاءً طلب من حمزة ارتداءه فوق رأسه، استغرب، سأله ولِمَ ذلك.

(المورّد رجلٌ مهم، الإيقاع به، يعني الإيقاع بعنصرٍ مهم بالمنظّمة)

(وهل تشكّ فيّ؟)

(بالطبع لا، ولكن مثلما قال المثل: حرّص من صاحبك ولا تخوّنه)

لبس حمزة الغطاء، أمسك صفوان بيده، أداره عدّة دورات، ثم سار به في زقاقٍ آخر، بعد قرابة الخمس دقائق، فتح باب وكرٍ لا يلجه الضوء، رفع الغطاء عن رأس حمزة الذي انقبضت ملامحه، نظر إلى الرجل الجالس خلف مكتبه، رجلٌ حسن الهندام، أقرب إلى مدير شركة.

(يبدو جيّدًا)

قال المورّد مخاطبًا صفوان، الذي أومأ بالإيجاب، ثم قال:

(أفضل كثيرًا مما يبدو عليه، إنه جائعٌ وعطش)

(أعان الله من سيقعون في يده)

قال المورّد ذلك وغرق في الضحك مع صفوان، حمزة بينهما لا يفهم شيئًا، خاطبه المورّد بلهجةٍ جافة:

(كم عمرك يا ولد؟)

لم يُجب، أغضبه هذا الازدراء، همس له صفوان:

(من الأفضل أن تجيب إن كنت راغبًا في الحصول على العمل)

(ست عشرة سنة)

(أمثالك ما يزالون يرضعون)

قال المورّد ساخرًا، ردّ عليه حمزة:

(ولكنني لستُ كغيري، وإن أحببت جرّب)

هزّ المورّد رأسه معجبًا بهذا الفتى الشجاع، طلب منهما الجلوس، وبدأ بتحضير الأوراق.

-١٧-

هوَ

ولأنك لن تقدّر ظروف الآخرين إلا حين تدور الحياة دورتها وتغدو مكانهم؛ التمس الأعذار للشباب الذين يقضون نصف يومهم خلف شاشات هواتفهم وحواسيبهم..

لم يعد يرفع رأسه من الشاشة إلا لمامًا.

(أشكرك على إضافتي)

الآن أتت الفرصة، سيبهرها بحديثه وخفّة دمه، التي ما كانت لتظهر وهو يخاطبها وجهًا لوجه.

(صحيحٌ أنني كاتبٌ مشهور، إلا أنني متواضع)

تخيّل بسمتها تطوف على وجهها الملائكيّ، إنه يحلم بها، ولكن في نفسه خوفًا لا يعرف مصدره، خوفٌ يقول أن ثمة بينهما مسافة شاسعة، لن يقوى على قطعها.. هذه المرّة لن أستسلم لخوفي الذي

كبّلني طويلًا ، سأسير في درب الحب إلى آخره، ومهما كانت النهاية، لن أندم أبدًا.

(شكرًا لتواضعك أستاذنا الكبير)

وهي أيضًا خفيفة دم، إنها الصورة المثالية التي حلم بها لفتاة أحلامه، لن يرفع الراية البيضاء مهما غلا الثمن، خاف أن يفاتحها بحبه، خشي العجلة، ترقّب حتى تعرفه جيّدًا، إنه متأكدٌ أنها ستحبّه حينما تقترب منه.

(قرأتُ بعضًا من خواطرك، إنها جميلة)

(أنا لا أنشر هنا إلا أشياء خفيفة، أما الثقال فإني أخبئها للنشر)

(هل نشرتَ شيئًا من كتاباتك؟)

(ليس بعد، قريبًا إن شاء الله، لديّ مخطوطات لبعض القصص، إن أحببتِ أعطيكِ إياها تقرأينها وتعطيني رأيك)

(حسنًا، ابعثها لي)

(سأجلبها لكِ غدًا مطبوعة)

(حسنًا، إلى اللقاء إذن)

انتهت أول محادثة بينهما، بحث عن صورة مارك زوكربيرج، قبّله على جبينه، لولا هذا الاختراع لظلّ حبيس خوفه إلى الأبد، عاد ونشر خاطرةً، كتبها لها وحدها «الحب الحقيقي لا تهزمه نائبات الدهر مهما تكالبت عليه»

حاول أن يشحذ بكلماته المقاومة في قلبها، سيحتاج إليها ذات يوم، سيوضع في ميزان العقل، وسيكون خفيفًا، لا قيمة له، إلا إن تدخّل القلب، لقد سمع كثيرًا من القصص عن وقوف الفتيات في صفّ من أحببنهم حتى ظفروا ببعضهم بعضًا.

استيقظ من نومه قبيل المغرب بقليل، ما أجمل أن تعيش وحيدًا، عانى الأمرّين في أثناء دراسته، اضطرّ للسكن في عمان؛ لبعد المسافة بين الجامعة وبين بلدته الواقعة في أقصى شمال الأردن، ولشحّ الحال اضطرّ للعيش مع طلبة آخرين، اكتروا بيتًا مكوّنًا من غرفتين في صويلح، مقابل مائة وثمانين دينارًا في الشهر، كانوا خمسة، ثلاثة في الغرفة الأوسع واثنان في الأصغر.

اختار الغرفة الأصغر، طمعًا في خصوصية أكبر.. تحوّل البيت إلى مقهى مصغّر، لعب الورق، أراجيل، صخب، استاء من الوضع الذي وجد نفسه فيه، أعلم أباه بما يحدث، طلب منه أن يزيد له مصروفه قليلًا ليسكن في غرفةٍ وحده، وهنا بدأت وصلة ردح طويلة.

احمد الله أننا أدخلناك الجامعة، تظنني راقد على بنك، إنك تأخذ أكثر من نصف معاشي، أتعتقد أنني كنتُ وزيرًا، لا يا ولدي، لقد تقاعدتُ معلّمًا درجة ثانية، معاشي لا يبلغ الخمسمائة دينار، أنا وأمك وإخوتك الثلاثة نأخذ النصف، نحرم أنفسنا من أشياء كثيرة لأجل تعليمك، اشعر معي يا بنيّ أرجوك، أعلم أنك ترى في عمان الكثير من الأثرياء، لهم دينهم ولنا دين يا ولدي، إنهم في عالمٍ غير عالمنا، أرجو أن تقدّر ظروفنا، فأنت تعلم الحال جيّدًا.

ندم على طلبه، قرر التأقلم مع الحياة الجديدة، صار يقضي أغلب وقته في الجامعة، وكأنه عثر على كنز حين أخبره صديقه بأن مكتبة

الجامعة تظل مفتوحة حتى الساعة العاشرة وأحيانًا الحادية عشرة مساءً.

وجد في المكتبة حياةً جميلة، وجوهًا فيها بريقٌ مدهش، رائحةً تسيل لعاب العقل الجائع، وهدوءًا منحه الفرصة لتطوير خياله.

ارتدى ثيابه، حمل حاسوبه، خرج قاصدًا ستاربكس، ليكمل كتابة شمس آفلة.



-١٨-



ذهبت مع كيت إلى ستاربكس، هذه هي المرة الثالثة التي تخرجان فيها معًا، جلبتا كأسيّ كابتشينو وقطعتيّ جاتو، راقبت الناس المنتشرين في جنبات المول، تخيّلته يدور بين المتاجر، أو ربما يجلس في قاعة الانتظار يقرأ إلى حين مجيء وقت عرض الفيلم التالي.

(فدوى، ما بكِ؟)

سألتها كيت بلهجةٍ عربيّةٍ مكسّرة.

(لا شيء)

(هل تكتبين شيئًا جديدًا؟)

كانت أباحت لِكيت عن سرّها، قالت لها أنها تكتب، ولكنها تنشر باسم مستعار، فوجِئت كيت بذلك، سألتها عن السبب، أخبرتها أن ثمة جملةً من الأسباب وليس سببًا واحدًا.

(ﮯ الحقيقة، أجل)

(خمّنتُ ذلك، فحالة الشرود تلك لا بد أن يكون خلفها الكتابة)

تنهّدت فدوى، كانت بحاجة إلى التخفف من بعض الثقل الذي يرزح فوق كتفيها.

(كيت، هل قابلت إنسانًا قلب حياتك رأسًا على عقب؟)

اكتسى وجه كيت الأبيض بالحمرة، تقلّصت ملامحها لتختفي عيناها الضيقتان إلا قليلًا.

(وهل ﮯ الأرض من لم يحدث له ذلك؟)

لم تكن يومًا مولعةً بتفاصيل حياة الأشخاص، تجد ﮯ نفسها حرجًا من طرح أسئلة شخصيّة على معارفها، غير أنها ﮯ هذه المرّة كسرت القاعدة، أرادت أن تستلّ من فم كيت حكايتها، لتبوح لها ببعض ذكرياتها، ستخون الورق هذه المرّة، وتُفرغ فصلًا من حياتها ﮯ أذن إنسان.

(أخبريني إذن)

حدّثتها كيت عن مقتطفات من قصّة حبّها، فحينما دخلت جامعة (زفير) لتدرس التمريض، التقت بفارس أحلامها..

(نحن نلتقي بكثيرٍ من الفرسان ولكن واحدًا منهم فقط يكون صاحب الفرس البيضاء)

شابٌ فيه جميع الصّفات التي حلمت بها، أحبّته جدًا، بيد أن ذلك الحب كان محكومًا بالإعدام قبل أن يولد.

(لمَ؟)

سألتها فدوى، أجابت بأن بينهما فرقًا واحدًا، ولكنه مثل وادٍ منحدر يفصل بين جبلين، كان مسلمًا، أما هي فمسيحيّة، والحرب التي ظلّت ناشبةً في الجنوب بين المسلمين وبين الحكومة، زادت من اتساع الردهة الفاصلة بينهما.

كادا يُقتلان كلاهما، وكلٌّ على يد فئته، الزواج من المسلم سيجلب العار للمسيحيين مثلما سيجلبه للمسلمين، وفي النهاية استسلما، لم يقويا على مجابهة تلك التحديّات، ابتعدا بصمت، لم تنسه ولن تنساه، سيبقى في ذاكرتها أبدًا، ولن يأخذ أحدٌ مكانه في قلبها.

لقد بدّل حياتها، إنهم مثلنا يعيشون حياة الفقر والعوز، أبوها كان صيّادًا شحيح الحال، ما يظفر به من البحر، لا يكفي احتياجات اليابسة، ناهيك عن القراصنة الذين يهاجمونهم بين الفينة والأخرى، يسطون على ما يملكونه، وكثيرًا ما لاقى الرجال حتفهم على أيديهم.

(فرصة الفوز بعملٍ في الخارج تعادل فرحة العثور على كنز)

قالت كيت بصوتها المتهدّج، إنها حساسةٌ جدًا، كثيرًا ما وجدتها فدوى تبكي بسبب صراخ أحد المراجعين عليها.

(الأوطان التي لا تكفل حياةً كريمةً لأبنائها.. أوطانٌ ميّتة)

أردفت وقد اغرورقت عيناها بالدموع، في بداية علاقتهما، ظلت فدوى متوجسةً منها، ولكن حين عرفتها جيّدًا، اكتشفت داخلها إنسانةً تحمل الكثير من القيم، مما حدا بها لتتخذها صديقةً مقرّبةً، مفضلةً إياها على كثيرٍ من الفتيات العربيّات.

زوّج أهل (عبد الوهاب)، ابنهم من فتاة مسلمة، أما أنا ففرضت عليّ رقابة لعينة، استمرّت حتى سفري للعملً هنا.

(فدوى، تبًا لكِ)

كانت قد تعلّمت تلك الشتيمة منها، فهي على كلّ حال بالعربيّة ألطف منها بالإنجليزية.. ابتسمت فدوى، سألتها لماذا شتمتها..

(خرجنا لنتسلى وليس لنحزن)

(معك حق)

غرقت فدوى في شرودها مجددًا، أخذت كيت هاتفها وراحت تلهو به..

(كيت، هل قابلتِ شخصًا بعد عبد الوهاب أحسستِ أن فيه كثيرًا منك؟ يُشبهك نوعًا ما؟)

(فدوى، لماذا لا تريحين نفسك وتتحدثين مباشرة؟)

ردّت عليها كيت، غامزةً بعينها.

(حسنًا، لا أعرف، ولكنني فعلتُ في الأمس شيئًا مجنونًا، ذهبتُ إلى شابٍ وطلبتُ منه أن نشاهد فيلمًا معًا، كان فريدًا من نوعه، أقصد الشاب، غريب الأطوار، بقي صامتًا طوال لقائنا، مرتبكًا خجولًا، وكأنه لم يحادث فتاةً من قبل، كان في بالي موضوعٌ يتخمّر، احتجتُ إلى دفعةٍ قليلة ليتدفّق)

سكتت، شعرت بوخزة حادةٍ في قلبها، اخضلّت عيناها، هوّنت كيت عليها، طلبت منها أن تهدأ.

(فعل بك شيئًا؟)

سألتها كيت، هيئ إليها أن فدوى وقعت في الخطيئة، أشارت فدوى بيدها إشارةً تعبّر عن امتعاضها من تفكير كيت المحدود.

(حسنًا، أعتذر، أخبريني ما الذي حدث؟)

(لا أعرف يا كيت.. ثمة إنسانٌ يذكرنا بخساراتنا كلّها حين نراه.. وجهه مثل ألبوم صور، كلما رنوت إليه، اخضرّ جرحٌ قديم ونزّ قطراتٍ من حكاياتٍ موجعة)

(فدوى، صحيحٌ أنني لم أفهم ما قلتيه توًّا إلا أنه جميل، وكأنه شعر حزين)

تحاملت فدوى على أحزانها، أمسكت بيد كيت، وقالت:

(ولكنك تتحدثين العربيّة بشكلٍ جيّد)

(صحيح، ولكن أعتقد أحيانًا أن أجمل الكلام هو الكلام الذي لا نحتاج إلى أن نفهمه، بل أن نشعر به)

(أما أنا فأعتقد أن أجمل الكلام هو الكلام الذي لا نحتاج إلى أن نقوله)

(تقصدين مثل الحديث بين الحبيبين)

خرج علاء من خيالها، وقف أمامها، همس بصوته الجميل:

(من أكثر الأشياء التي تعجبني فيكِ؛ قدرتكِ على فهم صمتي)

(تصدّق، كنتُ أفكّر بذلك أيضًا، فأنت أيضًا تفهمني بسهولة)

(ولأنني أفهمكِ جيدًا، قررتُ اليوم دعوتك إلى مشاهدة فيلم في السينما، أخبرني عنه صديقي، إنه خبيرٌ في أمور السينما، وأنا أثق في ذوقه، اسم الفيلم رائع: ذا نوت بوك)



شمسٌ آفلة

لفحتها نسمةٌ شديدة البرودة حين رأت عمّتها وابنها خلدون، نادتها أمها، أخذتها إلى الغرفة الداخليّة، طلبت منها تبديل ثيابها، انتقت لها فستانًا جميلًا من التي أحضرتها لها السيدة أمينة، كانت فدوى خبأته للمناسبات، سألت أمها أن تتركها ترتاح قليلًا، لم تسمع لها، ألحّت عليها كي تلبس بسرعة وتخرج لتسلّم على عمّتها وابن عمّتها، فلقد جاءا خصيصًا لزيارتها.

ذهبت إلى المطبخ كي تعدّ قهوة الترحيب بهما، سرحت قليلًا، سرقوا فرحتها، استعادت ما حدث معها قبل هنيهة، المقابلة الإذاعيّة، اللقاء الصحفي، ثمة يدٌ ضخمة تقبض على قلبها وتعصره، لم تفرح، تعلم أن في الدنيا أناسًا منذورين للحزن، كانت قرأت تلك الجملة في إحدى الكتب.

حملت الصينيّة ودخلت خجلى حزينة متعبة، شعرت بعينيّ عمّتها تتفحصانها جيّدًا، عمّتها صيتة، العمّة الأقوى في العائلة، صاحبة اللسان السليط الذي لا يرحم، التي لا يجرؤ أحدٌ على رفض طلبٍ لها، التي مات زوجها مقهورًا بسببها، كانت فدوى تحسدها على شخصيّتها تلك، وقلّدتها حتى حينٍ قريب.

خلدون المجنون، هكذا ينادونه في الحارة، كان يُظهر تصرّفات غريبة، من يراه يظنّه من الأشاوس لامتلاكه جسدًا ضخمًا، إلا أنه يخاف كلّ شيء، الفتيان يتخذونه تسليتهم، يحركونه كيفما يشاؤون، يصدّق كل ما يُقال له، كبر وما زال على حاله، دخل الجيش بواسطة عقيد أشفق لحاله، ظنّ أن العسكريّة ستصقل شخصيّته مثلما حدث لكثيرين.. سمعت فدوى كثيرًا من النوادر عنه حصلت معه في الجيش، إحداها أنه يقوم بتأدية الوظائف عن زملائه الجنود مقابل سندويشة.

(كبرتِ يا ابنة أخي ما شاء الله)

ابتسم أبوها وكأنه يراها لأول مرة، أردفت عمّتها:

(خلدون ابن عمتك بنى غرفتين فوق بيتنا ولديه معاش محترم)

(عمّتك يا ابنتي خطبتك لابنها خلدون وأنا وافقت)

وكأنها تلقّت ضربةً قويّة على مؤخرة رأسها، مادت بها الأرض، رأت أحلامها تتهاوى، سيزوجونها خلدون، ستنتهي حياتها عند هذا الحد.. لا، لن أقبل، نهضت وهربت إلى الغرفة.

(استحت، ما شاء الله عليها)

قالت عمّتها، اتّفقت مع أخيها على موعد كتب الكتاب، دخلت إلى الغرفة قبل أن تغادر، قبّلت فدوى، أخبرتها أنها ستكون سعيدة جدًا مع خلدون، لم تجب، كانت تتلوى من القهر، ودموعها تهطل غزيرةً على وجهها، كيف لها هي الصغيرة أن تقف في وجه العادات والتقاليد، لقد وافق أبوها دون أن يسألها، ولكن أهي مجنونة حتى لا يُسمح لها في أن تبدي رأيها؟ ما دام أبوها قبل، فقد انتهى الأمر.

أتت أمها عقب رحيل عمّتها، رأتها تبكي، حاولت التهوين عليها، أخبرتها أن البنت عليها الرضا بنصيبها، فآخِرتها في بيت زوجها، وكلما كان ذلك أبكر كان أفضل. أفضت إليها بأنها لا تفكّر في الزواج حاليًّا، فما زالت صغيرةً وأمامها مستقبلٌ مشرق، توسّلت أمها أن تخفض صوتها لئلا يسمعها أبوها.

(فليسمع أنا لا أريد أن أتزوّج)

رفعت صوتها عاليًا، جاء أبوها يرغي ويزبد، طلب منها أن تعيد ما قالته، نظرت إليه من بين دموعها الكثيفة، توسّلت إليه ألا يسلمها للموت.

(أرجوك يا أبي)

(يبدو أنك بحاجة إلى التربية من جديد، مر زمن طويل على آخر مرة ضُربتِ بها، وها أنتِ قد تماديتِ، تريدين تكسير كلامي وتصغيري بين الناس، ألا يكفيني أبناء الحرام إخوتك، أينقصنا كلام الناس، ماذا سيقولون حين يعلمون أن ابنتي جاءها عريس قَبِله أبوها ورفضته؟ تعرفين كيف سيلوكون شرفكِ في أفواههم، استعدي لخطبتك الخميس القادم)

ظنّته صار إنسانًا، ولكن هيهات، ألم يقولوا من شبّ على شيء شاب عليه؟ لقد شبّ على الحيونة، مات قلبه منذ القدم، ولم تكن تلك المعاملة اللطيفة إلا مقابلًا للمال الذي طمع به، غير أن زواجها سيريحه منها، سيلقي عن كاهليه حملها الثقيل، فخطيئة الذكور تغتفر أما خطيئة الأنثى فلا، إنها مثل وشمٍ على ظاهر الجبين.

ستطلب مساعدة السيدة أمينة، لا بد أن تتدخل لنجدتها، لن تدعها تغرق، ستنقذها من هذا الطوفان، ستحملها في سفينة النجاة وترسو بها فوق جبل الأمان، ستهرب معها إن لزم الأمر، ستعيش في بيتها.. ليس لديها أطفال، سأكون ابنتها، أو خادمتها لا فرق، المهم ألا تدع هذا يحدث.

تقلّبت على الجمر حتى طلعت الشمس، تجهّزت وهمّت بالذهاب، وجدت أباها في طريقها.

(إلى أين؟)

سألها بصوتٍ غاضب.

(إلى المدرسة)

(لا مدرسة بعد اليوم)



جحرٌ مفقود

انتهى المورِّد، نظر حمزة إلى الأوراق، شهادة ميلاد جديدة باسمٍ مزيّف، عوّاد، هو الاسم الجديد، جواز سفرٍ مزوّر، بطاقة شخصية مزوّرة، وضع الأوراق في ملفّ، طلب المورِّد من صفوان أخذه إلى نقطة التجمّع.

غطى رأسه وخرج، ولما بات المكان آمنًا، نزع الغطاء عن رأسه، انطلق به صفوان في سيارته الفارهة، إلى الأزرق، وقبيل الوصول بقليل انعطف إلى داخل الصحراء، أوقف السيّارة وسارا جهة خيمةٍ وحيدة في الخلاء، أخبره صفوان أن هذا هو الدليل المسؤول عن إدخال رجالهم إلى الدول المجاورة.

(أية دولةٍ سأقصدها؟)

(هذا يعتمد على المورِّد، هو من يتواصل مع من في الخارج)

(في أية دولة كانت بدايتك؟)

(مكانٌ بعيد، لم تكن لأحدٍ قريب بنا حاجةٌ، كانت المنطقة تنعم بالسلام، لذا كنّا ننقل إلى مناطق بعيدة)

رحّب بهما الرجل، طلب منهما الجلوس، سقاهما قهوة وأطعمهما تمرًا، سأل صفوان عن حاله بعد التقاعد، وعن موعد مجيء المورِّد.

تهادت سيارةٌ بالقرب من الخيمة، هبط منها أربعة فتية، تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، كان برفقتهم رجلٌ ابتسم لما رأى صفوان، اقترب منه واحتضنه.

(أهلًا بالغضنفر)

قال الرجل مخاطبًا صفوان بلهجةٍ ملؤها الاحترام والتوقير، عرف حمزة أن صفوان كان مميّزًا في عمله، استشفّ ذلك من تعامل الآخرين معه، أضمر نية التفوّق عليه، إنه يملك كل المميّزات ليفعل ذلك.

(أهلًا أبا جهنّم)

استرجعا بعض الذكريات، دعاه صفوان للسلام والتعرّف على حمزة، قال له:

(هذا شابٌ سيكون له شأنٌ عظيم في هذا العمل)

رازه (أبو جهنّم)، ثم هزّ رأسه، وخاطب صفوان:

(جائع؟)

ردّ عليه صفوان:

(وقلبه ميّت)

(إنهما الصفتان المثاليّتان لهذا العمل)

(ما اسمك يا غلام؟)

انزعج حمزة من نبرة حديث أبي جهنّم الساخرة فلم يجب.

(يبدو صلبًا)

علّق (أبو جهنّم)، أومأ صفوان موافقًا.

لمحوا سيّارة قادمة، توقفت حذاءهم، هبطت امرأة من خلف المقود، ولما أزاحت منديلها، ضحكوا، كان المورِّد متخفّيًا في زيّ امرأة. حيّاهم ثم نادى (مخيبر) صاحب الخيمة، تحدّث معه على انفراد، رجع المورِّد وحده.

(ستنتظرون أنتم الخمسة حتى المغرب ثم تتحركون، سيأخذكم مخيبر إلى أماكن عملكم، أما نحن فعلينا العودة)

(إلى أين سنذهب؟)

سأله حمزة.

(في الحقيقة كانت عليكم منافسة شديدة، أنتم مطلوبون بشدّة، ولكن الذي ربحكم إنسانٌ عزيز على قلبي، سيستلمكم رجاله على الطرف الآخر، وحينها ستكونون في أيدٍ أمينة)

جاء مخيبر، كان يقود بكب (تويوتا)، سيقلّهم به إلى الحدود مع الدولة التي يقصدونها، نظر صفوان إلى حمزة، مودّعًا، أخبره أنهما ربما لن يلتقيا مجددًا، من يعمل في هذا المجال يحمل روحه على كفه، وقد يخسرها في أية لحظة، غادر المورِّد و(أبو جهنّم) وصفوان، جلسوا خمستهم مع مخيبر، سألهم عن أسمائهم ومن أي المناطق أتوا، كان يتقصّد تعريفهم بعضهم على بعض، سيكونون بمسيس الحاجة إلى صديق يستندون عليه وسط بحر الدماء الذي سيلجونه.

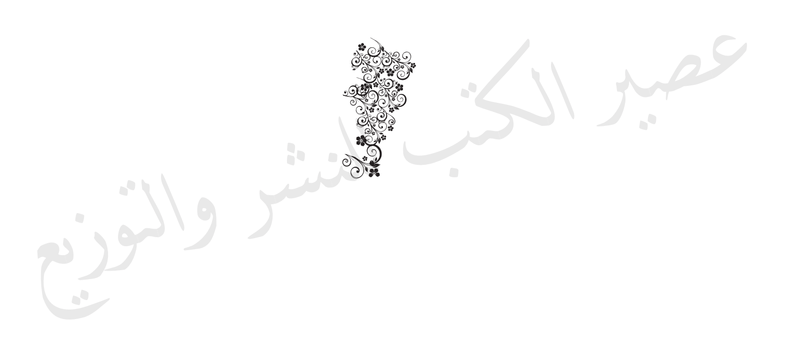
الفتية الأربعة أصدقاء، سطوا على ماشية رجلٍ كان يخيّم في أحد جبال عجلون النائية، سرقوا خروفين، حملوهما في سيارة من خطط لهذه العمليّة، وهو أكبرهم عمرًا، قصدوا سوق الجلابين في عين الباشا، توجس التجّار منهم؛ لم تكن لديهم خبرة في أمور الماشية، لذا عزفوا عن الشراء منهم، فاضطروا إلى تخفيض السعر، مما ضاعف الارتياب منهم، كلّم أحدهم الشرطة، والذين جاؤوا بسرعة وقبضوا عليهم، وبعد بعض الضغط اعترفوا.

نقلوا السائق إلى سجن ققفقفا، أما هم فحملوهم إلى إصلاحية إربد للأحداث، وهناك تعرفوا على فتى حدّثهم عن عملٍ يوفّر لهم مالاً

وفيرًا، أعطاهم عنوان شخصٍ يدعى (أبوجهنّم)، التقوه، أخذهم إلى المورِّد، ثم جلبوهم إلى هنا.

اختصر حمزة كثيرًا من قصّته، كان متشوّقًا للعمل، غير قادر على التفكير بشيء غير المال الذي سيجمعه، وما الذي سيفعله به.

غربت الشمس، شغّل مخيبر البكب، ركبوا، انطلق بهم إلى المجهول.. إلى اللاعودة.



-١٩-

هوَ

مثل كلّ شيءٍ يعدو الدهر فوقه فيغدو ذكرى، صارت فدوى تتسرب من ذاكرته، استيقظ في الصباح، حاول لملمة ملامحها وتجميعها في صورةٍ واحدة، تبخّرت، بقي منها جنونها ورنين صوتها، أما هي فتماهت مع الظلال.

عبّ نفسًا عميقًا، زفره مع تنهيدة طويلة، ودمعة، إنها الوحدة التي تثير الشجون، المرآة العاكسة للأوجاع، الوحدة سلاحٌ ذو حدّين، ومرآة ذات وجهين، نصفٌ جميل وآخر بشع، كان ينظر إلى الوجه القميء، فيرى فيه جرحًا عميقًا كاد يودي به، طعنةٌ بيد حبيب، وطعنة الحبيب إن لم تقتل.. فتحت جرحًا لا يلتئم.. مع كلّ نسمة شرود؛ التهب ونزّ مجددًا.

جرح الحبيب نديّ أبد الدهر.

(أسماء)

يخرجُ اسمها من بين شفتيه مثل لحنٍ بديع، يثمل بمجرّد نطقه، وحين تردّ عليه بِـ(نعم) يطرب قلبه، يقرع بقوّة، يشعر به وكأنه يهمّ بمغادرة ضلوعه، يضطرب، لا يعرف ماذا يفعل، يبتسم مرة، ويتصنّع الجد أخرى، يحاول استحضار نكتة من مخزون النكت الهائل لديه، ليخبرها بها، ليظفر منها بابتسامة تدخله في نشوة تدوم طويلًا، لا يجد، تطير الكلمات من عقله، يتأتئ، يُهمهم، ثمّ يلجأ لحيلته الأخيرة، يمدّ يده بورقةٍ بها قصةٌ جديدة.

(ما شاء الله قصة جديدة)

تسأله عن مضمونها، فيتنفّس الصعداء، الإجابة عن الأسئلة أسهل كثيرًا من فتحه للحديث.

(عن الحب)

يقول ذلك، وهو يتعجّب كيف قوي على نطق تلك الكلمة في حضرتها، لقد تدرّب كثيرًا على ذلك، قضى نصف ليله أمام المرآة، يمرّن ملامح وجهه على الاتساق مع وقع الكلمة، كساها الحياء لما سمعته، أخذت الورقة وغادرت.

(سأعطيك رأيي فيها حين أقرؤها)

سأنتظره على أحرّ من الجمر، همس في نفسه، تسمّر أمام حاسوبه الذي ابتاعه بالأقساط، ترقّب خبرًا منها، إنه ذكيّ، ذلك أمرٌ لا شك فيه، لقد كتب قصّةً يخبرها بواسطتها أنه يحبّها، تمنى رؤية ولو إشارةً منها تعطيه الضوء الأخضر ليتقدم نحوها، سيقسم لها أنه جادٌ لا يلهو، لم يكن يومًا كذلك، مشاعر الفتاة بالنسبة إليه شيءٌ

مقدّس.. جرحها يستوجب لعنةً أبديّة، وهو في غنًى عن الإصابة بلعنةٍ أخرى، تكفيه لعنة الفقر، وكفى بها لعنة.

«القصة جميلة»

كاد يشلّ حين قرأ رسالتها، قفز عاليًا، ارتطم رأسه بنجمة الأمل.

«أعجبتكِ؟»

«كثيرًا، أهي قصةٌ حقيقية؟»

«أتمنى أن تصبح حقيقية»

«كيف؟»

«أنا أحبك»

لم تجبه، خاف من أن يكون قد أغضبها، أكل التفكير كبده، لم يعد قادرًا على التحمّل، ذهب إلى شريكه في الغرفة، أخبره بما جرى، طلب منه التريّث حتى الصباح، وسيرى ردّة فعلها على أرض الواقع.

(إما أن تلمّح إليك بشيء، أو تهوي بحذائها على رأسك)

معظم الشباب فقدوا مشاعر الحبّ القدسية؛ لكثرة حديثهم مع الفتيات وتنقّلهم من حبٍّ إلى آخر بسرعة الضوء، صار الأمر لهوًا أكثر من أيّ شيءٍ آخر، تسليةً يسرّون بها فراغهم الواسع، والعجيب في الأمر أن الفتيات يسايرنهم وأحيانًا تنعكس الآية، فيكون الفتى ضحية جنون وطيش فتاة.

أما هو فيعدُّ الحبّ شعورًا ساميًا مقامهُ، خبأ مشاعره، كما تخبأ الكنوز، ولن يمنحه إلا لمن تستحقه، سيضع بيدها المفتاح، ويقول لها اغرفي، إنني أملك الكثير.

كانت ليلته عجيبة، فاقت أخواتها، مذ التقى أسماء تزوّد بطاقة عجيبة، صار لا ينام إلا قليلًا، دائم النشاط والحيوية والسرور، العملُ جنّته التي لا يتمنى الخروج منها، يدهمه الحزن فور مغادرته باب المركز، تُكسّر أجنحته فيعود بشريًّا بعد أن كان منذ لحظاتٍ.. ملاكًا يحوّم في سماء العشق.

كُوِّرَ النهار على الليل وهو محدقٌ بشاشة حاسوبه، غير أنها تركته يتقلّب فوق جمر الحبّ، الآن وبما أنك أعلنت لها حبّك باتت قويّة، ربما أنها سعت إلى سماعها منك حتى تطمئن وتُقلق راحتك، لن ترحمك، ستدوّخك، لن تنال منها الخبر اليقين حتى تفتك بأعصابك، ولكن، افرح، فتلك هي أجمل مراحل الحب.

ارتدى أجمل ثيابه، نظر إلى عينيه المنتفختين، عرف أنه سيُفضح، ولكن لا بأس، أنعم بها فضيحة، دعها ترى آثار سهادك وقلقك، إنك عاشقٌ صادق، لو كنت كاذبًا لنمتَ ملء جفنيك غير مبالٍ بشيء.

كان أول الواصلين إلى العمل، أعدّ كوبًا من النسكافيه، جلس على مقعد خشبيّ بجانب الباب الرئيسي، مشاعره خليطٌ غير مفهوم؛ سعادةٌ وحزن، طمأنينة وخوف، بدأ العاملون بالتوافد، لمح الحافلة التي تأتي بها تدلف من الباب، ولّى هاربًا ولم يعقّب.

دخل بعض زملائه وزميلاته غرفة المعلّمين، سلّموا عليه ثم راحوا يثرثرون، أمّا هو فكان متواريًا في الزاوية، وكأنه محموم، جسده

يرجف، انسحب من الغرفة وخرج إلى الساحة، بدأت الحافلات التي تجلب الطلبة بالوصول، الأطفال ملجأه الحصين، معهم يكون في أعلى درجات الحريّة.

(صباح الخير)

لسعه تيارٍ بارد، تغلغل صوتها في أقصى نفسه وفرقع مثل ألعابٍ ناريّة، جلس يتفرّج على هذا المنظر المدهش، ألهاه عنها قليلًا، ثمّ استجمع قواه العقليّة والجسديّة والتفت إليها، وجهها يبرق بسعادة، إذن فهي ليست غاضبة، عثر على صوته الخائن، الذي غار كعادته في حضرتها، في أحد الدهاليز، جرّه إلى عمله جرًّا.

(صباح الورد)

ابتسمت وهربت، رقص مع الأطفال الذين شاركوه فرحه وجنونه، ها هو يفتح فصلًا جديدًا في كتاب حياته اسمه، الحب.

أخرجه رنين الجرس من رحلته الطويلة إلى أرض الماضي، فتح الباب..

(أهلًا أميهان، ادخلي)



-٢٠-



خفّفت قليلًا من حملها بالبوح، حكت لِكيت ما حدث معها، أخبرتها كيت بأن ذلك يشبه الخيال، تمامًا مثل الأفلام.. نعم، كانت تشعر أحيانًا أنها في فيلم عجيب، مذ أولعت بالأفلام، وهي تتخيّل نفسها خلف شاشة كبيرةٍ، برفقة حشدٍ كبيرٍ من الممثلين، بعضهم الأبطال وبعضهم كَمبارس وطرفٌ ثالثٌ بين بين.

عقب انتهاء الفيلم، باتت عاشقةً للأفلام، يكفينا أحيانًا مشاركة أشياء صغيرة مع من أحببناهم لتستحيل ذكرى عظيمة محالٌ نسيانها.. تصير تلك الأشياء ثمينة، تكفي لنشر بسمة واسعة على محيانا كلّما تعثرنا بها.. أعجبها فيلم (ذا نوت بوك) كثيرًا، أعادت مشاهدته مرّات ومرّات، تحوّل رايان غوسلينج ورايتشل مكأدمز إلى مقرّبين، تشعر بالفرح كلما رأت أحدهما، تتبعت أعمالهما مذآك، وحينما ترى رايان غوسلينج تتذكّر علاء فورًا.

(أأعجبك الفيلم؟)

(إنه رائع، لم أتمالك دموعي)

(أرأيتِ؟ أخبرتك، ساعةٌ كاملة وأنا أحاول إقناعك)

(أنت تعلم ما الذي من الممكن أن يحدث إن رآني أحدٌ معك في مكان كهذا، هل سمعت عن الذي قتل شقيقته في الأمس لأنه رآها مع أحدهم؟)

(عجّل الله فرجنا، عندي غدًا مقابلةٌ في مستشفى كبير، ادعي لي بالتوفيق)

(إني أدعو لك صبح مساء، لقد بتّ مذعورة من فكرة فقدانك)

(أموت ولا أفعلها)

(لا تقل ذلك، جعل الله يومي قبل يومك)

كان يقول لها بأنه لا يستطيع النوم إلا بعدما تنام، سألته كيف يعرف أنها نامت، قال إن ذلك من شؤون القلب، فالمحب يدرك بقلبه ما لا يدركه العالم بعقله.. حديثه جميل، يُدخل البهجة إلى قلبها، لا تريد من الدنيا سَواه، سيغنيها عن كلِّ شيء، وسيكون عوضها عن أيام الشقاء والهم، إن حصل على العمل غدًا فذلك يعني اقتراب الأمل من الحقيقة، سيمتزجان معًا ويصبحان سعادةً دائمة.

نزعها صوت المنبّه من أحلامها التي لا تفارقها، حان موعد الصحيان، استيقظي واستعدي لتذهبي إلى عملك، فذلك أجدى وأفضل من أحلامٍ تهيم بك في عوالم الزيف، كم مرّةً أقسمتِ أن

تنسيه وألا تعودي للتفكير فيه؟ لماذا تحنثين بيمينك ولا تفكّرين إلا فيه؟ دعيه يرحل بسلام، عيشي حياتك، ابحثي عن قلبٍ جديد، ولكن هذه المرّة بعقلك، حكّميه، فتنحيته في السابق كان غباءً منقطع النظير، القلب وحده ليس كفئًا للانتقاء، يصيب أحيانًا ويخطئ كثيرًا، لا بدّ من اللجوء للعقل، فهو الأقدر على كبح العواطف المجنونة ولجمها، المشاعر الجامحة جميلة، غير أنها تورث تعبًا أبديًّا، هيا انهضي فما زال في حياتك الكثير.

نظرت عبر النافذة إلى البحر، نحن في الأردن نملك بحرين بعيدين، واحد في الأغوار وهو أخفض بقعة في العالم (البحر الميّت)، والآخر في العقبة، بعيدان عن المدن الرئيسية، لذا فالعيش بجانب البحر غنيمة، إنها تعشقه، تخاله يسمع حديثها ويردّ عليها بصوتِ موجه الشجيّ، لم يفتر بعد تعلّقها به، على عكس كُثر من الساكنين حوله، والذين لا يأبهون به أحيانًا، كيف يكون بجانبهم بحرٌ ولا يستشعرون هذه النعمة؟

ركبت في سيّارتها وقصدت المستشفى، في الماضي كان كلّ شيءٍ متوفّرًا إلا المال، أما الآن فكلّ شيءٍ متوفّر إلا الحب، لا بد من وجود نقص في حياة الإنسان حتى يقوى على مواصلة العيش.. فإن اكتملت باتت لا تُطاق، ستصير عبئًا ثقيلًا، جلطة تجثم على القلب فلا يعود يشعر بسعادة أو حزن، يتبلّد، يفقد إحساسه بما ومن حوله، ولا يكون كذلك إلا.. الميّت.

دلفت إلى قسم الطب النفسي، ألقت التحيّة على زميلاتها اللائي يتهيأن للمغادرة، بدّلت ثيابها، وباشرت عملها، الأطباء يضعون حواجز بينهم وبين الذين يعملون معهم، لا يتحدثون خارج إطار

العمل، خصوصًا أنهم أجانب؛ أمريكيّان وبريطاني، يقدّسون عملهم، وينصبون حوله هالةً تحفظ سرّيته، حين يغلقون الباب على مرضاهم، يصبح الدخول محرّمًا، يساوي في حال الشكوى، الطرد.

جاءتها الكثير من الأفكار المجنونة، فأن تكون كاتبًا يعني أن تكون مجنونًا، قررت ذات يوم أن تعيش قصة حب مع أحد المرضى، غير أنها فكّرت كثيرًا ثم أقلعت في النهاية، حاولت الوصول إلى ملفّات المرضى، لم تقدر؛ محفوظة في أماكن سرية.

من المستحيل تصديق أن مراجعي قسم الطب النفسي مرضى، لا تلوح عليهم أشراط المرض، إنهم طبيعيون أكثر من الناس الطبيعيين أنفسهم، تتحدث معهم فيردون عليها بلباقة، وحين تباشر فحصهم يبتسمون لها، وكأنهم يقولون نحن متعبون قليلًا ليس إلا.

لقد شوّهت وسائل الإعلام حقيقة هؤلاء، فحالاتهم تتدرج من مشاكل تكاد لا تذكر إلى أن تصل إلى المراحل الخطرة، وبين هاتين المرحلتين مدى واسع لأمراض واضطرابات عديدة، إلا أن إطلاق وصمة المرض النفسي، تصبغ الجميع بلونٍ واحد.. ثمة حالات حرجة وشديدة الخطر ذلك صحيح، ولكن أعراض المرض الواضحة عليهم تتيح التعامل معهم بسرعة.

الكثير من الحالات البسيطة تزداد سوءًا، وخاصةً في الدول النامية، سواء أخضع للعلاج أم لم يخضع؛ ففي حال عزف عن الذهاب إلى الطبيب النفسي خوفًا من المجتمع ستتفاقم مشكلته مع مرور الأيام ولن تقف عند حدٍّ معيّن، بل تتحوّل لتصبح اضطرابًا جديدًا أكثر قوّة من سالفه، أما إن قرر الذهاب إلى الطبيب النفسي، فسيضع نفسه في دائرة الضوء، وأي حركة تصدر عنه ستأوّل على

أن سببها مرضه، وكثرة الضغوطات الاجتماعية التي ستفرض عليه، ستدفعه إلى تطوير وسائل دفاع قد تأخذه إلى منحدرٍ وعر.

في روايتها (خفايا النفس)، والتي لاقت نجاحًا باهرًا، اضطرّت فدوى إلى قراءة الكثير من كتب علم النفس حتى تتمكن من وصف بعض الاضطرابات بطريقة سليمة، إلا أنها ما زالت تحلم برواية تصل فيها إلى لبّ النفس، القعر، أسفل اللاوعي بكثير، تريد ابتداع طريقة جديدة في تعرية النفوس وعرضها على أصحابها، غايتها في ذلك التأكيد على أن الجميع مرضى نفسيون بدرجاتٍ متفاوتة.

دعتها كيت إلى الخروج ليلًا، ستذهب إلى السينما، تريد أن تشاهد فيلم (أمير خان) الجديد (دانجل)، قرأت عنه تقييمات ممتازة، تُشيد بهذا الفيلم على غرار أفلام أمير خان الرائعة، وافقت، فهي على كلّ حال مضطرة للخروج، اليوم موعد استلام المعاش، وبالتالي آن وقت الحوالة.

تحسّنت ظروف أهلها كثيرًا، كلما تحدّثت مع أمها في الهاتف أمطرتها بالدعاء، تقول لها إنهم صاروا يأكلون ويلبسون مثل الناس، سدّدوا ديونهم ولم يعودوا يسألون أحدًا شيئًا.. أمها الوحيدة التي تربطها بذلك العالم، هي التي دفعتها مرّاتٍ عديدة إلى التراجع عن قطع صلتها بهم، لم تنسَ وقفتها معها، ساندتها حتى أكملت تعليمها في الجامعة، كانت تخبئ لها المال الذي تأخذه من فاعل الخير وتضعه بين يديها غير منقوص، لا تريدها أن تصير نسخةً مكرورةً منها، إنها خير من تعرف قيمة التعليم، فلو كانت متعلّمة.. لكانت نجت من نيران زوجها، تسألها فدوى عن نصيبها من الحوالة، فتقول: وما حاجتي

للمال، تعلم أن أباها نارٌ لا تشبع، لذا تبعث لأمها هدايا عينية لا يستطيع غيرها الاستفادة منها.

(أمي أريد أن أقول لكِ شيئًا)

(قولي يا ابنتي)

(هناك شابٌ يريد أن يتقدّم لخطبتي)

(هل هو غنيّ؟)

كان ذلك أول سؤالٍ أطلقته الأم في وجه ابنتها، لا يهم أخلاقه وتعليمه، المهم كم يملك، إنها لغة العصر التي يجيدها الجميع، تلعثمت، لا ليس غنيًّا، إنه مجرّد شاب في بداية طريقه، أرادت أمها أن تحميها من مصيرها، الفقر أسود، ردّدت تلك العبارة على مسمعها مرارًا وتكرارًا، الفقر أسود، ظلمة حالكة تسلب الأشياء بريقها وجمالها، يقتل الحب، ويسرق الفرحة، يزرع الألم بين جدران البيت، فيغدو كئيبًا لا يصلح للعيش، بل مرتع للخلافات والنكد، وثقب في سفينة الزواج، سيغرقها مع مرور الوقت.

(ولكنه ليس فقيرٌ مثلنا، إنه ممرض مثلي وسنعمل معًا ونعيش بكرامة)

(لا أعلم يا ابنتي، كنتُ أتمنى لكِ عريسًا غنيًّا يحميك ويدللك ويعوّضك عن الماضي المليء بالحرمان)

(لا بأس يا أمي، المستقبل أمامنا، ربما نسافر إلى دول الخليج، نعمل هناك ونجمع مالًا يكفينا ويزيد)

(حسنًا، متى سيجيء؟)

(قريبًا جدًا)

لم يفرح كثيرًا حينما أخبرته، قال لها إنها تعجّلت، كان عليها التريّث، لاحت عليه أعراض التغيّر، استلم عمله الجديد في المستشفى، صار يتقاضى معاشًا محترمًا، يؤهله إلى التقدّم لخطبتها، ومع ذلك انزعج من تصرّفها.

(لا بأس، لم أخبر سوى أمي، سأقول لها إن الموعد تأجل، ولكن إلى متى؟)

التزم الصمت، اعتراها الخوف، غادرته مستاءة، ظل جالسًا، لم يلحق بها كعادته، تركها ترحل غاضبة حزينة.. تساءلت والدموع تنهمر من عينيها:

(ترى ما بهِ؟!)



شمسٌ آفلة

لم ينجها صراخها وبكاؤها، توسّلها، تهديدها له بالهرب، أصيبت بصدمةٍ قاسية، ارتطمت بصخور الواقع، فأردتها مقعدة، هي التي كانت قبيل قليل تطير في فضاءٍ رحب، يفتح لها آفاقًا واسعة مزركشة بكلّ ما هو جميل، لا، من اليوم وصاعدًا لن تحلّق، سيقصون جناحيها ويحبسونها في قفص متين، لن تقوى على الخروج منه، لا يصحّ ذلك، ستكون كافرةً إن فعلت، ستكفر بالعادات والتقاليد، بأوامر أبيها.. حلم الفتاة بالحياة مثل حلم البحر بمعانقة الشمس أبدًا، ذلك محال، لا يجب أن تحلمي، ما عليك فعله هو الدعاء، الدعاء بأن يرزقك الله رجلًا يسترك، حذارِ من الأوهام، إنها قاتلة، ستزرع في قلبك خنجرًا طويلًا، اسمه الأمل، وحين تفقدينه، سينزف قلبك حتى الموت.

(يا ابنتي ما لنا والتعليم، ابن عمّتك رجلٌ سيحميك من عثرات الزمان)

أنتِ من تقولين ذلك يا أماه، ألم تعاني من ويلات الجهل؟ ها أنتِ تزوّجتِ، وماذا بعد؟ أنجبتِ ثلاثة مجرمين وفتاة تريدين لها أن تكون مثلك.

(يا بنيتي أنتِ تعلمين أننا مختلفون، من سيتزوّج فتاةً بظروفك، إخوتها في السجن، إنني أخاف عليك العنوسة)

آهٍ من الخوف ما الذي يصنعه بالإنسان، تخافين عليّ أم على نفسك، إنكم خائفون عليكم لا عليّ، لو كنتم تكترثون لأمري لتركتموني أعيش حياتي كيفما أريد، لا، إنكم كاذبون، حتى أنتِ يا أمي تكذبين، إنك لا تحبينني، لو أحببتني حقًّا ما كنتِ جلبتني لهذي الحياة.

(يا فدوى إنك لا تدركين، لا تعرفين أين هي مصلحتك، لذا فأنا قويمٌ عليكِ)

أنت يا أبي، لا أعرف ما الذي فعلته كي أحظى بأبٍ مثلك، آهٍ منها الأقدار، لو أنني ولدتُ في عائلةٍ أخرى، يقدرون موهبتي وذكائي، يهيئون لي الظروف، ويذللون الصعاب كي أصير ما أصبو إليه.

لا بأس، سأنتظر السيدة أمينة، مستحيلٌ أن تتخلى عني، ستأتي لتنقذني من براثنكم أيها المتوحشون، سأرجوها كي تأخذني لأعيش معها، سأنساكم، لن أزوركم إلا حينما أنجح، سأعود لأثبت لكم أنكم لا تستحقون فتاةً مثلي.

كتبت لها رسالةً بعثتها مع صديقتها ربى التي اعتادت الذهاب معها إلى المدرسة، قالت لها بأنها مريضة، لن تستطيع الذهاب، أرجوكِ أعطِي هذه إلى السيدة أمينة، لا بد أنها قرأتها، ستأتي بعد انتهاء اليوم الدراسي، سأحضّر حقيبة ثيابي سرًّا، لن أبقى هنا بعد الآن دقيقةً واحدة، سأترك هذا البيت غير آسفةٍ عليه، لم أنل منه سوى الهم والكدر، لولا ظهور السيدة أمينة في حياتي لصرتُ مثل إخوتي، مجرمة.

هدأت ثائرتها وجلست تترقّب، ظنّت أمها أنها استسلمت، أما أبوها فكان فرحًا لأنه سيتخلّص من عبئها، لن يعود مسؤولًا عن جنونها، سيئدها لَحْد الزواج وينتهي الأمر، سيقرأ الفاتحة على قبرها، ثم ينفض الغبار عن يديه، ويذهب، سيطمئن أخيرًا، لن تنهض، سيرتطم رأسها برخامة صلبة يشجّه، ستمكث فيه للأبد، سيغلبها الألم فتيأس، ستوقن أن لا مناص، إنك باقيةٌ إلى أن يشاء الله.

سمعت صوت السيدة أمينة فانهمرت دموعها، ركضت واحتضنتها، سيقتلونني، يريدون تزويجي، أخبريهم أن في انتظاري مستقبلًا مشرقًا، قولي لهم أنني مميّزة، أرجوكِ لا تدعيهم يفعلون، أنتِ التي أنقذتني من سلاسل الفشل واللامبالاة، لا تسلميني إليهم، أعطيهم الفدية وحرريني، اعتقي رقبتي، أريد أن أكون حرّة، أرهقتني العبوديّة، أنتِ من فتّح عينيّ على العالم الجميل، لولاكِ

لظللتُ على حالي، وما كنتُ لأحزن، بل سأفرح لأنني سأتخلّص منهم وأتزوّج، أما الآن فلا، لن أهرب من قيدٍ إلى قيدٍ أقوى، الموت أهون عندي من ذلك.

لا عليكِ يا ابنتي، اطمئني، أنا هنا، سأدافع عنك، لن أخليك، إنهم مجانين، لا يقدّرون نعمة أن تكون لديك ابنة، وموهوبةٌ أيضًا، سبحان الله، أنا لا أنجب، ومن لا يستحقون الأبناء، يحظون بهم.. آهٍ لو يشعرون بألم الحرمان، أن تكون مستعدًّا لخسارة كلّ ما تملك مقابل كلمة (ماما)، هذا هو الإنسان، لا يعرف قدر الشيء إلا حين يكون مستحيلًا.. وحين يملكه، يصير بلا قيمة.

(لو سمحتِ يا أستاذة، لا تتدخلي في حياتنا الخاصة)

إنها ليست حياتكم أيها المجرمون، إنها حياتها هيَ، ليس لأحدٍ الحق في سلبها إياها، ألا تعلمون أيها الجهلة أن أكبر حقٍّ للإنسان في جميع الأديان هو حق الحياة؟ لماذا تظنون أنكم تملكون حياة أطفالكم لمجرّد إنجابهم؟ وكأنكم من خلقهم، أيها المرضى النفسيون تداووا، واعلموا أن الحياة ملك صاحبها فقط، وهو الوحيد الذي يملك حرية عيشها كيفما أراد، أفيقوا من سكرتكم، واعلموا أن آخر شيء يريده أبناؤكم هو السير على خطاكم وملاقاة مصيركم، إنهم ليسوا أحلامكم التي عجزتم عن تحقيقها، دعوهم يختارون طريقهم لعلّهم يخلصوننا مما أورثتمونا إياه من ظلام، امنحوهم الفرصة ليحفروا

كوّةً في هذا السرداب الذي أنزلتمونا فيه، لربما يجدون النور، لا تجبروهم على البقاء خفافيش تعيش في المغارات، لا تنقلوا إليهم عدوى كراهية النور.

(لقد تعدّيتِ حدودك يا أستاذة)

حدودي أيها الفاجر، أنت من يجب أن يقام عليه الحد، حد القتل، تريد قتل نفسٍ زكيّةٍ بغير ذنب وتنجو بفعلتك، لا، لن أسمح لك، القاتل يُقتل، تلك هي القاعدة، ستموت إن ذبحتها.

(أنتِ مجنونة)

أنا المجنونة أيها الماجن، أنتم المجانين، تظنون الفتاة عاهةً يجب مداراتها عن الأعين، من قال إن زمن الجاهليّة انتهى؟ لا، سيظل أبدًا، الجاهليّة في العقول، لن تفنى ما دام الإنسان حيًّا، ما هو ذنبها لتحكم عليها بالموت؟ من أنت لتأخذ منها مستقبلها؟

(أنا أبوها ووليّ أمرها)

كيف تكون وليّ أمرها؟ إنك بحاجةٍ لمن يتولّى أمرك، سأعطيك ألفي دينار ودعها تأتي معي.

(حسنًا، إنها ابنتي حبيبتي، زيدي المبلغ قليلًا)

اطلب ما تريد ودعها تعيش، سأفتديها بما أملك، لكن اتركها، إنها صغيرةٌ على الموت، ما زالت أمامها حياةٌ طويلة، ستتعلّم، وتكتب، وبعدها ستعثر على زوجٍ يقدّرها، زوج لا يعدها قطعة من ملكيته له حق التصرّف فيها كيفما أحب، وستنجب أطفالًا لا مجرمين جدد، هذا العالم اكتفى من المجرمين، آن الأوان لإنجاب الأطفال الأبرياء، الأطفال الذين لم تلوّثهم نجاساتنا، لم يتربوا على الكره والحقد، نحن ننجب مسوخًا، نِصفهم بشرٌ والنصف الآخر وحوشٌ ضارية، القتيلة لا تلِد أطفالًا، كيف لها أن تفعل، إنها تحملهم رغمًا عنها من إنسان لا تطيقه، يبقى بينها وبينهم حاجزٌ كبير اسمه؛ كره أبيهم، هيَ لن تكرههم، إلا أنها لن تحبّهم حبًّا كاملًا، لذا ستهملهم، ستخرجهم للشارع كي يربيهم، وحينها سيتعلمون كيف يصيرون قتلةً، قتلة يذبحون كلّ شيءٍ جميل، لقد ترعرعوا على السوء، الجمال يثير في أنفسهم غلًّا دفينًا، يدفعهم لإبادته.

(خمسة آلاف دينار وخذيها معك الآن، إنها كنزٌ لا يعوّض، ولولا أنني أعرف أنك ستعتنين بها جيّدًا ما كنتُ خلّيتها أبدًا)

أقفل المزاد، ربحتها السيدة أمينة مقابل خمسة آلاف دينار، لم تشعر فدوى بالحزن، جرّت حقيبتها وخرجت دون أن تلتفت، أمّها المسكينة تضاربت مشاعرها، لا تعرف تحزن أم تفرح.. ركبت في

سيّارة السيدة أمينة، رجتها أن تنطلق بسرعة، تهرب بها من وكر الذئاب هذا، تُخرجها من المستنقع المليء بكلّ شيءٍ مفترس.

(لا تخافي يا ابنتي، لقد بدأت حياتك الآن)



جحرُ مفقود

أَرْوَدَ بكب مخيبر في طرقٍ وعرة، لم يروا حولهم سوى الظلام الدامس، قال لهم أنه سيسلِّمهم إلى رجلٍ آخر في الطرف المقابل، والذي سيوصلهم بدوره إلى رئيس المنظمة في تلك المنطقة.. حمزة كان متلهّفًا للبدء، سيمارس عملًا يحبّه ويجني بسببه نقودًا وفيرة، سيصير أسطورة، سيمحي صفوان من سجلّات البطولة، سيؤرِّخُ باسمه عهد جديد.

تحدث طويلًا مع مخيبر، سأله عن الاعتزال، أجابه إن الأمر يسير، إن استطاع الهرب حيًّا فلن يطارده أحد، هو الآن غير موجود، لقد تلاشى من الحياة، حلّ بدلًا منه إنسانٌ جديد، اسمه عوّاد، كثيرون اعتزلوا ورجعوا إلى حياتهم الطبيعية.

(حتى صفوان؟)

سأله حمزة، فردّ مخيبر:

(صفوان كان قاب قوسين أو أدنى من الظفر بمنصب مرموق في المنظّمة غير أنه فضّل الاعتزال، أصيب بلوثةٍ في عقله، لقد قضى وقتًا طويلًا في هذا العمل، أذكره حينما جاء أول مرّة، كان صغيرًا ومتحمّسًا مثلك، ولما عاد، تبدّل كثيرًا، انطفأت في عينيه جذوة الحياة، مات الكثير منه في البلاد العديدة التي عمل بها)

(سأحقق ما عجز عنه)

(كن حذرًا يا بنيّ، الطمع في عملٍ كهذا مُهلك، جمّع نقودًا تكفيك واهرب، لا تستمر، ليس من عادتي أن أقدّم النصائح، ولكنك ذكرتني بشبابي)

(هل عملتَ معهم؟)

(وما الذي أوصلني إلى هذه الحالة إذن؟ عملتُ سنةً كاملة، وبعدها انسلخ جلدي القديم، ونبت شيءٌ جديد لا أعرف ماهيته، نحن لا ننام يا بنيّ إلا بالحبوب المخدّرة والكحول، نثمل حتى ننسى تلك الوجوه التي تلاحقنا بملامحها المرعوبة، نسكر لئلا نحلم بشيء، لنصحو بسرعة قبل أن يسحبوننا إلى الجحيم)

(وما الذي يجبرك على العيش في هذا المكان المقفر؟ ألم تحصل على نقود؟)

(نقود، اللعنة على النقود، لقد صارت تتراءى لي كأنها ثعابين، اضطررت للتخلّص منها، وعدتُ مجبرًا على العمل مع المورِّد، ولكن كما ترى، مجرّد سائق)

إنك جبان، تلك هي الحقيقة التي لا تدركها، أو ربما تحاول إخفاءها، منعك جبنك من التمتع بالحياة، وتظن الجميع مثلك، يا لك من مسكين، لا، سأبرهن لك أنك مخطئ، سألتقيك بعد سنين وسترى بأنني أعيش الحياة طولًا وعرضًا ولا آبه بشيء. قال حمزة في نفسه.

(أين سرحت؟ لا تقل لي بأنك ستغيّر رأيك)

(لا، لن أغيّر رأيي، ولكن كلامك أثّر في نفسي وكنتُ أفكّر فيه)

تململ الشباب الأربعة النائمون في المقعد الخلفيّ، كانوا منهكين لطول الطريق التي قطعوها، سألوا مخيبر كم بقي حتى يصلوا.

(خمس دقائق)

أجابهم، صمتوا، لاحت في وجوههم تعابير الخوف من المجهول، دوّت تلك الصرخة في رؤوسهم، الصرخة التي نسمعها قبيل اقتراف الخطيئة ونتظاهر بأننا لم نسمع، إن هو إلا مجرّد صوتٍ أثيم يحاول ثنينا عن تحقيق النجاح، نكتمه، يختنق، فيصير أضعف مع كلّ خطيئة جديدة، وفي النهاية يطلق صرخته الأخيرة قبل أن يختفي إلى الأبد.

أوقف مخيير البكب خلف تلّة صغيرة، طلب منهم المكوث وعدم الخروج حتى يعود، تحسس طريقه في الظلام باحثًا عن تلك الأمتار من الحدود غير المحروسة بشكلٍ جيّد، نبش التراب، عثر على الحبل المدفون والموصول بالجهة الأخرى، هزّه وانتظر، اهتزّ الحبل مجددًا، فعرف أن الرجل بانتظار الوافدين الجدد.

رجع إلى البكب، طلب منهم النزول واتباعه بحذر، أي غلطةٍ هنا تؤدي إلى الموت، مشوا خلفه، أمسك بطرف الحبل، طلب منهم السير وهم يتحسسونه.

(عليكم السير في خطٍّ مستقيم)

ارتعب ثلاثةٌ من الفتية الذين جلبهم (أبو جهنم)، قرروا التراجع، لن يعبروا الحدود إلى مكان لا يعلمون أهو للإنس أم للجن، سحب مخيير مسدسًا من خصره، وجهه نحوهم فارتعدوا.

(لا يمكن التراجع الآن، لقد كشفتم مواقع سريّة، فإما أن تمضوا أو تدفنوا هنا)

أنبأ الوضع بخطرٍ ماحق، إذن فهم ليسوا في لعبةٍ بإمكانهم مغادرتها حين يشاؤون، لا، لقد تخطوا حاجز المعرفة والآن بات لزامًا عليهم المواصلة، راقب حمزة المشهد صامتًا، أما صديقهم الرابع فحاول الشدّ من أزرهم، غير أنه لم ينجح، بكوا مثل أطفالٍ صغار

تائهين، رجوا مخيبر أن يعيدهم إلى الشارع وسيتدبرون أمرهم، أقسموا له بأنهم لن يفتحوا أفواههم بشيء، سيشطبون هذا اليوم من ذاكرتهم، أطلق مخيبر رصاصةً من مسدسه المزوّد بكاتمٍ للصوت تحت أقدامهم، انتثر التراب.

(أنا لا أمزح معكم، إما الذهاب أو الموت، هذان هما الخياران الوحيدان)

أمسك حمزة بالحبل، نظر إلى مخيبر وقال:

(ماذا عليّ أن أفعل غير المشي؟)

(لا شيء، رجلنا على الطرف الآخر سيتكفّل بالباقي)

ابتلع الظلام حمزة، حاول بثّ الشجاعة في أنفس الفتية، قطع مسافة مئتي متر، سمع صوتًا يدعوه إلى المواصلة، فلم يعد بينه وبين بلوغه سوى بضع خطوات.



-٢١-

هوَ

غادر بيته، ترك أميهان تنظّفه براحتها، أميهان امرأة فلبينية أخرى من ضمن عدد مهول منهن يعملن هنا، فتاةٌ من تلك الدول التي لا يحيا بها إلا السادة، أما الشعوب فلتمت بغيظها، إنها المسؤولة عن تأمين حياتها، أما الأسياد فيولدون أسيادًا، ذلك قدرهم، أن يجدوا أنفسهم على العروش جالسين، يأمرون فيطاعون، والويل لمن يخالفهم.

أميهان تعيل أسرتها في الفلبين، رشّحتها له عاملةٌ نظافة في المدرسة، شرحت له قصّتها الحزينة، إنها مقيمةٌ بلا عمل رسميّ، تعتمد على تنظيف البيوت لمن يطلب ذلك.. أنت تعرف يا سيدي أن كلّ بيتٍ هنا فيه خادمتان وثلاث، حاولَت العثور على واحد يكفل لها الإقامة والعمل فلم تجد، إنها يا سيدي مسكينة تزوّجت رجلًا فقيرًا، أنجبا ابنةً كالقمر، عرض عليها أحد أصحاب المكاتب المسؤولة عن تأمين الخادمات للدول المحتاجة السفر لتعمل مقابل عائد ماديّ ممتاز، تشاورت مع زوجها فوافق، لا حلّ آخر لديهما، دفعا لصاحب المكتب مبلغًا من المال جمعاه من الناس على أمل سداده قريبًا، ولما وصلت

إلى هنا تبيّن أنه محتال، المسكينة، تعرّفتُ عليها يا سيدي صدفةً، كنتُ ذاهبةً إلى أبوظبي فوجدتها على قارعة الطريق، تعرف أنه لا يشعر بك إلا من يحمل ألمًا مثل ألمك، أشفقتُ لها، ظننتها مريضة، سألتها ما بها، أفضت لي بقصّتها وهي تبكي مقهورة، حملتها معي يا سيدي وجئتُ بها إلى (مدينة زايد)، توجد كثيراتٌ مثلها هنا، نكفل بعضنا بعضًا، ونسمح لمن لا يجدن مأوى العيش معنا، تعرف أن العمل يمنحنا بيوتًا نعيش فيها، صحيحٌ أنها صغيرة، ولكنها تفي بالغرض، يصل عددنا في بعض الغرف إلى خمس فتيات، لا بأس، فنحن نشعر بالسعادة مع ذلك، الحياة بين الناس البسطاء تحيي القلوب، ربما لم تجرّب ذلك يا سيدي، عليك تجريبه، إنه أمرٌ في غاية الروعة، البسطاء يعشقون الحياة يا سيدي، هل نظرتَ يومًا إلى وجه إنسانٍ بسيط ولم يضحك؟ آسفة يا سيدي لقد تحدّثتُ كثيرًا، المهم يا سيدي، إنها تعمل في تنظيف البيوت، لا تأخذ مبلغًا كبيرًا، مهما أعطيتها لن تُعارض يا سيدي، هذا رقم هاتفها، كلّمها في أي وقتٍ تشاء وتجيء فورًا.

إنه خيرُ من يعلم معنى الحاجة، لقد اتخذ من الفقراء عشيرته، كلّمها واتفق معها، تأتي مرّةً في الأسبوع، مقابل خمسمائة درهم، تشكره كثيرًا والدموع تملأ عينيها، تعرف أنه مبلغٌ كبير، أما هو فيشعر بضآلته، لن تحلّ هذه النقود الشحيحة مشكلتها.. أرته مرةً صورة ابنتها، قالت أنها تشتاق لها كثيرًا، لا تستطيع النوم قبل أن تسمع صوتها، يسجلونه لها على الواتساب ويبعثونه إليها.. تعلم يا سيدي أن تكاليف المكالمات الهاتفية باهظةٌ جدًا، سأعمل من أجلها ليلًا ونهارًا، إنني أتمنى يا سيدي أن تعيش حياةً جميلة، لقد مرّت سنة على فراقنا، كبُرَت في هذه السنة وازدادت جمالًا، أترى وجهها؟ إنه

مثل وجه خيسا زاراغوزا، أنت لا تعرفها يا سيدي، إنها ممثلةٌ مشهورة عندنا في الفلبين، أتمنى أن تحظى بحياة مثل حياة خيسا، الفقر موجع يا سيدي، أنت لا تعرف ذلك، حماك الربّ من الفقر، أترى يا سيدي ها أنا أبكي مجددًا؟ أعتذر منك، أوجعتُ رأسكَ بحديثي، ولكن لا أعلم يا سيدي، أحسّ أنك قريبٌ منّا نحن الفقراء، فيك شيءٌ يشبهنا، ولكن بالتأكيد أنني مخطئة، حماك الربّ من الفقر يا سيدي، إنه أشدّ الأوجاع ألمًا، أنا لا أقول ذلك يا سيدي لأستعطفك، لا، إنك تمنحني مبلغًا كبيرًا، ولكن يا سيدي ربما لأنك صاحب قلبٍ كبير تصغي إليّ، لقد أخبرتُ جين ابنتي عنك، طلبتُ منها أن تدعو لك في صلاتها، إنها تصلّي الآن، صار عمرها خمس سنوات، وأوليفر زوجي أيضًا يدعو لك، إنني أبحث له عن عمل، ربما أتمكّن من العثور له على واحد جيّد، وإذا وجدتُ، سأطير فور وصوله إلى الفلبين، سأحتضن جين طويلًا، وأدعها تنام في حضني، هل أنت متزوّجٌ يا سيدي؟ لا، أتمنى أن تجد فتاةً تستحقّك، إنك صاحب قلبٍ طيّب، ولكن احذر يا سيدي، فأصحاب القلوب الطيبة يُجرحون بسهولة، وجروحهم لا تشفى، إنني أعرف ذلك جيّدًا يا سيدي، أعتذر منك يا سيدي لقد عطّلتك عن عملك، باركك الرب ووقاك شرور البشر، فكلّ شيء هيّن أمام شرّ الإنسان.

يظنونني غنيًّا، آه لو يعلمون الحقيقة، لن يصدقوني إن أخبرتهم، تقول إنهن ينمن خمسًا في غرفة واحدة، وأنا أحيانًا كنتُ أنام رفقة ستة أشخاص في غرفة تنخرها الرطوبة، لقد اضطررتُ إلى ذلك، ارتفعت إيجارات البيوت في عمّان بصورة جنونية وفي فترة زمنيّة قصيرة جدًا، زاد صاحب البيت الإيجار أسوةً بأصحاب البيوت الآخرين، أجبرنا على مضاعفة عددنا، وفي كلّ مرّة يرتفع نزداد عددًا.. تخيّل نفسك

تنام مع اثني عشر شخصًا في غرفتين، اثنا عشر شخصًا باثني عشر عقلاً واثني عشر نفَسًا، صار البيت آنذاك مرتعًا للخلافات، تحوّل إلى مكرهة صحية، يأكلون ويشربون مخلّفين البقايا على حالها في كلّ مكان، بات البيت جحيمه الذي عليه التأقلم معه، سيُشوى سنتين أخريين إلى أن يتخرّج، وحين يحصل على وظيفة ستتحسّن الأمور، راح يقضي يومه خارج البيت، يصحو قبل الفجر، يرتدي ثيابه يصلّي ويخرج، يذهب مشيًا إلى الجامعة، يُكمل محاضراته ثمّ يلجأ إلى المكتبة، المكتبة مزوّدة بالتكييف صيفًا وشتاءً، يجلس مسرورًا، يقرأ ويكتب، يسترق حديثًا مع أحد روّاد المكتبة، ولا يعود للبيت إلا حين تُغلق المكتبة أبوابها.. لا يحبّ العودة إلى بيته في القرية كلّ أسبوع، يمكث في عمّان التي أحبّها، عمّان الفاتنة التي تملك قلب كلّ من حطّت قدماه فوق ترابها، يخرج، يمشي إلى حدائق الحسين بجانب المدينة الطبّية، يجلس هناك، يراقب الناس وهم يسرحون ويمرحون، ثم أخذ يُحضر ملابس الرياضة ويلعب كرة القدم مع الغرباء، يعود ليلاً، يكون البيت شبه خالٍ، ليس فيه إلا من لم يجد أجرة الذهاب إلى بيته.

الحياة في عمّان مع الفقر قاسية، الفوارق بين ساكني عمّان مهولة، نصفهم في الأعلى والنصف الآخر في الأسفل، ورؤية الفقير لبذخ الغنيّ يقلّب مواجعه، يذكّره بحالته، فيثور في نفسه الحزن والسخط، إنه حزينٌ على حاله، ساخطٌ على الأغنياء، ساخطٌ على قدرتهم في الحصول على ما يشاؤون دون عناء.

(هناك من يريد خطبة أسماء)

دوّى الصوت في رأسه مثل صوت مطرقة ضربت جمجمته.. لا، لن تتخلى عنّي، لقد راهنتُ على حبّها لي منذ البداية، فعلتُ كلّ ما

بوسعي لتحبّني، لقد عرفتني على حقيقتي، لن تجد إنسانًا مثلي، لقد قالت لي ذلك، أقسمَت على الوقوف بجانبي، محالٌ أن تحنث بقسمها، إنها أسماء، صاحبة القلب الطيّب، تعرف جيدًا ما الذي سيفعله بي جرحها، لذا لن تفعلها، لن تطعنني في مقتل، إنك كاذبةٌ يا سميّة، لقد حدّثتها في الأمس ولم تقل لي شيئًا، بل أسرّت إليّ أن موعد فرحتنا قريبٌ جدًا، أنتِ لستِ سوى عذولة، سأثبت لكِ أنك مخطئة، اليوم سأذهب إلى بيتهم وأَخطبها، إنها تتمنى هذه اللحظة، تترقّبها بشوق، قالت لي كثيرًا أن ذلك اليوم سيكون أسعد يوم في حياتها، لا، لن تفعلها، إنك واهمة يا سميّة، واليوم سنبدد أوهامَك، إن أحببتِ تعالي واشهدي فرحنا، لا بأس، أعرف أنك تغارين منّا يا سميّة، أَعذرك، فأنت لم تري عاشقَين مثلنا، ترغبين في حبيب مجنونٍ مثلي، ولكن هيهات أن تجدي، اليوم يا سميّة سنقترن برباطٍ مقدّسٍ إلى الأبد، ولن تستطيع أي قوّة التفريق بيننا.

تساقطت ذكراه معها أمام ناظريه..

لماذا أملك هذه الذاكرة الحديدية اللعينة؟

ظلّ يتحاشاها حتى باتا وحيدين، نظر إلى وجهها الطفولي، ابتسمت، فضربه الزلزال الذي يجتاحه في كلّ مرة تفعل ذلك، ترقّب بوحها، إنه جاهلٌ بأمور النساء، ظنّ أنها ستخبره بحبها له بلا أية مقدّمات، ولكن الواقع ليس كالروايات التي يقرؤها، حيث من الممكن أن تكون البطلة مجنونة وتدعو شابًا غريبًا لمشاهدة فيلم! أو تصرخ في مكانٍ مزدحم بأعلى صوتها: أحبك أيها الأحمق، لن يحدث أيٌّ من ذلك، ران الصمت بينهما غير قصير، وفي النهاية تحدّثت.

(هل كتبت شيئًا جديدًا)

ارتبك كعادته، ثم جاوبها قائلًا:

(نعم، غدًا أحضرها لكِ)

كان كاذبًا، لم يكن مشتتًا يومًا كما هو الآن، لقد تبعثر، صار أجزاء، وكل جزء منه يفعل ما يحلو له.

(حسنًا، مع السلامة)

ضربه كلامها مثل صاعقة، لم يكن ينتظر ذلك، تبدّل المشهد، بدا له سلامها باردًا خاليًا من المشاعر، إنه جاهل لا يعرف أنها الآن معشوقة تتدلل على حبيبها، تختبر مدى حبه لها، ما الذي من الممكن أن يفعله في سبيل الظفر بقلبها؟ إنه جاهل والجاهل كما قالوا عدوّ نفسه.

تعجّل هذه المرّة انتهاء العمل، هرع إلى حاسوبه، رجعت شخصيته الشجاعة، بعث إليها رسالةً مستعجلة، «لم أتوقّع هذا الردّ منكِ»، لم تجبه، تركته يتقلّى فوق الجمر، إنها أنثى يا أحمق، لعبت برأسه الظنون، جنّ إلا قليلًا، قرر الذهاب إلى بيتها، سيحدّث والدها وينتهي الأمر، الحب الأول جنونٌ كلّه.. تذكّر أنه لا يعرف أين بيتها فارتدّ على أعقابه حزينًا، وصلته رسالةٌ منها «هذه الأمور لا تسير هكذا»، فقد صوابه، ما الذي تقصده؟ هل هي موافقة أم لا، «لم أفهم، هل أنتِ موافقة؟»، «أخبرتك، هذه الأمور لا تسير هكذا، أنا لا أعرفك جيّدًا»، أوجعته كلماتها، اعتقد المجنون أنها هائمةٌ به، وستفتح قلبها فورًا قائلةً: تفضّل ههنا بيتك، خاب أمله، «ما الذي تريدين معرفته عني؟»، «حسنًا، تأتي إلى بيتنا ونتحدّث»، لا، ليس الآن، إنني غير مستعدٍ

لذلك، عليكِ أن تمنحيني فرصةً كي أُنظّم شؤوني وبعدها آتيك سعيًا، «أعطني بعض الوقت»، «لك ذلك».

ما أقساها، ما أقواها، كيف تمكّنت من قلبي وخلّته وحيدًا؟ ظننتُ أنني سأعيشُ قصّة حبٍّ مجنونة، ما كان عليّ أن أبوح لها بحبي، لقد تعجّلت، حسنًا، ماذا أفعل الآن؟ كيف أتعامل معها؟ ربما من الأفضل أن أظهر لها حزني، لتعرف ما الذي أحدثه كلامها في نفسي، لو كنتُ أملكُ المال لذهبتُ فورًا إلى بيتها وخطبتها من أبيها، يجب أن أخبرها بالحقيقة، إنها طيّبة وستقدّر ظروفي، إنني شابٌّ مكافح، ستقف إلى جانبي وتساندني.

-٢٢-



- لقد كان فيلمًا رائعًا.

قالت لها كيت، وافقتها الرأي، حقًا إنه فيلمٌ مدهش، يشبه حكايات الفتيات في جميع بلدان العالم الثالث، حيث يربدّ وجه الأب حين يعلم أن بنتًا ستجيء إلى الحياة لتُثقل كاهله، إنها مجتمعات الذكورة الخالصة، والفتاة فيها مثل ذوي الحاجات الخاصة، تجد في طريقها معوّقاتٍ جمّة تمنعها من العبور والذهاب بعيدًا.

كان من ضمن الجمهور نسبةٌ لا بأس بها من الهنود، وفي إحدى اللقطات في الفيلم، يُعزف النشيد الوطني الهندي، فيقفون جميعًا، أصابها منظرهم بالقشعريرة، تساءلت هل كنتُ لأقف لو عُزف النشيد الملكي؟! لا أعرف، على الأرجح لا، أنا لا أكره بلدي، غير أنني أكره ظلمها وقهرها، ولكن لمَ يحبّ الهنود وطنهم وهم مثلنا مظلومون ومشرّدون في بقاع الأرض، ناهيك عن مللهم وثقافاتهم المتعددة؟

لماذا وكيف نزعوا منّا انتماءنا لأوطاننا؟

(لقد تخلىّ عنكِ من أجل الجنسيّة الكنديّة)

لم تشأ أن تتذكر ذلك، هربت منه طويلًا، غير أننا لا نتذكّر إلا الأشياء التي نجتهد في نسيانها.. اغرورقت عيناها، تلك هي الحقيقة المرّة، لم تصدّق بادئ الأمر، ظنّت صديقتها ليلى تمازحها كعادتها، حتى حين تأكدت، كذّبت نفسها، آخر ما يمكن أن نصدّقه هو خيانة الحبيب، يرفض عقلنا ذلك، يستخدم ميكانزمات دفاعيّة للحيلولة دون أخذ الأمر على محمل الجد، ولذا حين يثوب إليه رشده، يصابُ كثيرون بصدمات نفسيّة يخرجون منها أشخاصًا آخرين.. يتبدّلون، أحيانًا للأفضل، وكثيرًا للأسوأ.. مثلما حدث لها.

طلبت من كيت الجلوس في المقهى قليلًا، سألتها إن كانت بخير، أجابت أن نعم، ذهبت كيت إلى الحمّام، خلّتها وحيدة تتلوى من الألم الذي عاد وأطبق عليها، القهر، يا له من ألمٍ ممض، ليس في وسع جميع الأجساد احتماله.

تركني من أجل الجنسيّة، علّقني به ثم هكذا ببساطة قال لي سامحيني، كيف أسامحك؟ إنني أدعو عليك صباحًا ومساءً، لن أسامحك أبدًا، أنت لا تعرف ما الذي فعلته بي، لقد جعلتني قصّةً يتسلّى بها كل من عرف بأمرنا، صرنا مضرب المثل في الحياة، علاء وفدوى، الفتيات يقلن لمن يطلب ودّهن لا تفعل بي مثلما فعل علاء، صنعتَ منّي أضحوكة، أنا التي كانوا يضربون المثل في أخلاقها، تحوّلت إلى خرقةٍ قذرة لكثرة ما مُسحت بها الألسن.

حين قالت لها ليلى أنه خطب صديقتهن جنى من أهلها، ضحكَت،

إنها طرفةٌ فريدة، علاء وجنى، مستحيلٌ حدوث ذلك؛ أولًا لأن علاء يحبّني أنا؛ وثانيًا لأن جنى تعرف ما بيني وبينه، ولما رأت الجدّ في ملامح ليلى، اتصلت بجنى، لم تُجبها، اكتفت برسالة قصيرة «أنا لا شأن لي، أبي هو من أعطاه كلمته»، كاد يغمى عليها، خيل إليها أنها في مسرحيّة وبعد قليل يسدل الستار، فيصفّق الجمهور وتعود الشخصيّات إلى حقيقتها، طلبت علاء، ضغط على زر المشغول، بعث إليها كلمتين «سأكلّمك لاحقًا»

لو علمت أنهما معًا في تلك اللحظة لربما قُضي عليها، لماذا لا نقع إلا في حب المخادعين؟ لماذا لا نعثر على قلب يقدّر حبّنا إلا بعد فوات الأوان؟ ما هو الدرس الذي علينا تعلّمه من ذلك، هل نقفل على قلوبنا ونمنع أيّ أحدٍ من دخولها؟ وهل الأمر بأيدينا حتى نقرر ذلك؟

فدوى التي قاومت كلّ من توددوا إليها وصدّتهم، تقع في حبّ إنسانٍ غامض هيَ التي سعت إليه بقدميها، جرّها قلبها رغمًا عنها وألقاها في حجره، قالت له هيت لك، خذني بكلّي، إن قلبي ما زال أبيضَ لم يحبّ قبلك، رفض جميع القلوب، ولم ينجذب إلا لقلبك، ما الذي يختلف فيك حتى يحبّك قلبي؟ علام عثر حتى يستسلم ويفتح أبوابه على مصراعيها مرحّبًا بك؟ ها قد أتيتك أنا وقلبي فلا تردّنا مكسورين جريحين.

هربت إلى البيت، لجأت إلى أمها، كانت مهزومة، خائفة، بحثت عن الأمان في حضن أمها، لعلّ أمها تُفلح في طرد شبح الفراق والخيانة، كيف تكون أمًّا إن لم تفعل؟ بكت، بللت دموعها صدر أمها المكلوم، عرفت أن ثمة خطبًا بينها وبين الشاب الذي حدّثتها عنه، كيف تكون أمًّا إن لم تعرف؟ لم يرتح قلبها لهذه العلاقة من البداية، حدست أنها

لن تنتهي على خير، بل ستجلب على ابنتها الويل والعذاب، قلب الأم جهازٌ فائق الدقّة، بإمكانه تسجيل الخطر قبل وقوعه، ويستطيع أيضًا تحديد شدة الألم التي ستنجم عن الخطر حين يقع.

سيفتك الوجع بقلب ابنتها، سيفترسه بلا رحمة، ولن تعود لسابق عهدها بعد ذلك، ستصير شبحًا نزعت الخيانة هيكل الإنسان عنه، إنها ابنتها التي تعرفها جيّدًا، حاولت تخفيف أثر الصدمة، قالت لها لربما يكون الأمر خيرًا لها، ولكن هيهات أن تصدّق هذا الكلام، كيف يكون خيرًا ذلك الذي يحرمها حبيبها.. نحن لم نربَّ على قبول الخسارة، بل علّمنا أن الخسارة فعلٌ مشين لا يناله إلا الضعفاء، ترعرعنا على حبّ الفوز والكسب والأخذ، نظنّ الخسارة تعني النهاية، لا نعرف أن الخسارة كثيرًا ما تكون البداية.

فدوى تخشى الخسارة، غير مستعدة لها، ستخسر أحلامها التي زرعتها وعنيت بها حتى كبُرت، ستجتثّها الحقيقة البشعة من جذورها، ستتعرّى بدون تلك الأحلام، وتصير هشّةً ضعيفة تهزمها أية عقبةٍ تواجهها، خسارتها ستكون مضاعفة لأن من انتصر عليها هي جنى صديقتها، علامَ اختارها يا ترى؟ طالما سخر من شكلها، كان يقول إنها تفتقد للأنوثة، فما الذي بدّل رأيه فيها؟ كيف يفضّلها عليّ؟ لماذا كان يخبرني أنني فتاة أحلامه التي لم يصدّق أنه عثر عليها؟

رنّ هاتفها، كان هو المتصل، مسحت دموعها، ها هو يكلّمها ليفنّد ظنونها.. إنه يكره الغيرة، سيجنّ إن عرف أنني أخشى عليه من جنى، نهضت من حضن أمها، انزوت في غرفتها.

(قلقتُ عليك، كيف حالك يا حبيبي؟)

(هل علمتِ بالأمر؟)

هيئ إليها أن هلاوسًا تعبث بها، في أذنيها خللٌ يبدّل الأصوات، لقد قال اشتقتُ إليكِ ولكن أذنها الآثمة حوّلت ذلك إلى هل علمتِ بالأمر.

(لقد خطبتُ جنى، سامحيني)

رجعت كيت من الحمام، ظنّت أن فدوى غفت، نادتها برفق، لم تجب، هزّتها، لم تتحرك، رفعت رأسها عن الطاولة.. فعرفت أنها فقدت وعيها.



شمسٌ آفلة

لماذا لم أولد في هذا البيت من البداية؟ سألت فدوى نفسها، باتت الآن في أمان، إنها في منزل السيدة أمينة، بيتٌ واسع فيه أثاثٌ جميل، أعطتها غرفةً كاملةً لها وحدها، قالت لها السيدة أمينة أنها الغرفة التي خصصتها لابنتها ولكنها لم تأتِ.. لقد عوّضني الله خيرًا حين بعثكِ إليّ، ستصبحين منذ اليوم ابنتي، وسأبذل كلّ ما في وسعي لأعوّضك عمّا قاسيته، وسنخطط معًا ليكون مستقبلكِ مزهرًا، وحينها سأفتخر بكِ أمام العالم أجمع.

جاء زوج السيدة أمينة، والذي يدرّس الرياضيات في جامعة اليرموك، قدّمتها السيدة أمينة إليه، أخبرته أنها فدوى تلك الفتاة التي حدّثته عنها، أومأ برأسه، كان يلوح على وجهه علائم الاستياء، رحبّ بفدوى بكلمات جافّة وذهب ليبدّل ثيابه، تبعته السيدة أمينة.

(هل ستعيش معنا؟)

(وماذا في ذلك يا أحمد؟)

(كان عليكِ أن تستشيريني أولًا)

(أنا آسفة، إنها فتاةٌ مسكينة، تخيّل لقد باعني إياها أبوها وكأنها عبدة، تخلّى عنها مقابل خمسة آلاف دينار)

(ماذا؟! دفعتِ له خمسة آلاف دينار، هل جننتِ؟)

(وماذا كنت تتوقع؟ أن أبقى مكتوفة اليدين وهي تضيع، لقد تعلّقتُ بها يا أحمد، أرجوك كن مثلما عرفتك دائمًا، الرجل الطيب، محبّ الخير للناس)

(تعلمين جيّدًا يا أمينة أنني لا أحبّ كسر خاطرك، لا أعرف، إنني خائف من عاقبة هذا الأمر)

(لا عليك، ستعتاد عليها، ستحبّها والله ستحبّها، إنها مثل النسمة لن تضايقك بشيء، وإن فعلت فحاسبني أنا)

إنه يُشفق عليها، يحبّها كثيرًا، لم يكن هكذا في البداية، لكنّ طول العشرة بينهما كشف له معدنها الأصيل، وقفت إلى جانبه منذ أن كان مدرّسًا مُعدمًا في وزارة التربية والتعليم، دفعته إلى إكمال دراسته، أقنعته، كانت تعطيه كلّ معاشها، وكأنها هيَ التي

حصلت على الشهادة، كانت في غاية السرور حين أنهى مناقشة أطروحته، أعدّت له حفلةً ما زالت عالقةً في باله.. لم يحدث أن أوحت إليه بالكلام أو التلميح بعقمه، طبطبت على رجولته، قالت له أنه حظّها ورزقها من الدنيا، ويغنيها عمّا سواه، عاشا حياةً شبه طبيعية، دارت رغبتها الجامحة في الحصول على طفل، غير أنه يعلم ذلك، يقرأه في عينيها وهي تنظر إلى الأطفال في الشوارع، وهي تلمس وجوههم وتقبّلهم حين يقتربون منها، وهي تكاد تطير فرحًا حينما تسمع ضحكةً خارجةً من قلوبهم الطاهرة، وفّر لها عملها فرصة الاقتراب من الأطفال أكثر، كانت بالنسبة لهم أمًّا وليست معلّمة، تطلق العنان لمشاعرها المكبوتة، تأخذ الجميع في صدرها الذي يتّسع لأطفال العالم كلّهم، تُحضر الهدايا للمتفوقين، والثياب للمحتاجين، تعطي المعوزين مصروفًا ليبتاعوا ما يريدون من مقصف المدرسة.. تربّت وحيدةً لأبويها، لم ينجبا غيرها، أصيبت أمها بسرطان الرحم بعد ولادتها، عاشت مدلّلةً، إلا أنها حُرمت من الإخوة والأخوات وذرّيّتهم.

اقترح عليها زوجها من زمنٍ طويل تربية طفلٍ يتيم، غير أنها لم تستسغ تلك الفكرة، في الحقيقة ظلّ لديها أملٌ لا تريد اغتياله، ولكنها يئست بعد مرور الأيام وبطنها على حاله، لم يكبر، إنه حظ فدوى أن يصير الوقت ملائمًا الآن.

لم تسمع فدوى ما دار بين السيد أحمد والسيدة أمينة، لقد دخلت مملكتها الصغيرة، رتّبت كتبها ودفاترها فوق المكتب الجميل، فردت

جناحيها وحلّقت في عالم الأحلام، رأت نفسها في جنّةٍ مليئةٍ بأمنياتٍ محققة، كلّ شيءٍ يسيرٌ هنا، ولك الحق بأن تحلم، الحلم لم يعد محرّمًا، خرج من سجنه، إنه حرٌ بإمكانه الطيران.

نادتها السيدة أمينة، رجت السيد أحمد أن يرحّب بها بطريقةٍ أفضل، قالت له إنها حساسةٌ جدًا، وأقلّ كلمةٍ تؤذيها.

(إنها كاتبةٌ فذّةٌ يا أحمد، لقد قرأتَ قصصها وأعجبتك، والكتّاب يا أحمد أكثر الناس حساسيّة، لقد سمعتُ ذلك من كاتبٍ كبير، أتصدّق أنهم أحيانًا لا ينامون ليلهم لمجرّد كلمةٍ سيئة، لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس والتفكير بتلك الكلمة، ياه تخيّل، أرجوك يا زوجي الحبيب، إنك أطيبُ رجلٍ رأيته في حياتي، أرجوك عاملها برفق)

جاءت فدوى تحفها السعادة، سلّم عليها السيد أحمد بدفء هذه المرّة، سألها عن حياتها.. لماذا تنكأ جروحي؟ دعني أنسى تلك الحياة، لقد هربتُ منها ولا أريد أن تطاردني، لا حاجة لي بها، شبعتُ منها، ألم تشبع هي من ألمي؟ ما الذي تريد معرفته؟ أبي باعني بثمنٍ بخس، أمي ألِفت حياة الذل، إخوتي مقيمون في السجون، هل ارتحت الآن حين اطّلعت على حياتي؟ أما أنا فآلمني الحديثُ كثيرًا، لن أتحدّث عن تلك المآسي، سأصمت، سأترك الجروح على حالها، لن أسمح لها بالتعمّق أكثر في قلبي، إنني آمل في أن تشفى فوخزها موجعٌ جدًا، ولا أرغب

بتهييجها، كفاني ما لاقيت، لا، لن أتحدّث عن تلك الحياة، ربما أقصّ عليك حكاية فتاةٍ أخرى حلمتُ أن أكونها، هل تملكُ الوقت لتسمع؟ إنها حكايةٌ طويلة، حسنًا، لعلّي أكتبها ذات يوم، ليقرأها الجميع، ليعرفوا أية فتاةٍ كنتُ سأصيرها لو ولدتُ في ظروفٍ أفضل، لا بأس، منحتني الحياة فرصةً أخرى، حياةً أخرى، وسأختارها بكلّ ما أوتيت من قوّة، سأخلع تلك الحياة من عقلي لأعيش حياتي الجديدة، لذا أرجوك يا سيد أحمد، لا تسألني مجددًا عن تلك الكارثة التي حييتها رغمًا عنّي، حياتي ابتدأت منذ اليوم ولا شيء يذكر فيها.

غرقت فدوى في الصمت، لم تجب عن سؤال السيد أحمد، أنقذتها السيدة أمينة.

(أحمد، ما رأيك أن نخرج لنتناول طعام العشاء في الخارج الليلة؟)

(لا بأس، يبدو أن فدوى لا تحب الحديث)

(إنها كاتبة، أرأيتَ كاتبًا يحبّ الثرثرة؟)

قالت السيدة أمينة، طلبت من فدوى أن تكون على راحتها تمامًا وأن تفعل ما يحلو لها، استأذنت ونهضت قاصدةً غرفتها، أرادت الاختلاء بنفسها، بمملكتها الواسعة، تمددت فوق السرير، خيل إليها أنها في حلمٍ جميل، خشيت أن تصحو لتجد نفسها في ذلك البيت، ذلك السجن

السرير الذي ألقي بها فيه، أغمضت عينيها وفتحتهما، إنها الحقيقة، ليس حلمًا ما أنا فيه، تركت بسمتها على شفتيها ونامت كما لم تنم يومًا.



جحرٌ مفقود

عبر حمزة إلى الطرف الآخر، التقاه عند نهاية الحبل رجلٌ يتدثّر بثيابٍ سوداء، لم يره بدايةً، حتى نادى عليه، ولما اقترب منه، سأله عن الباقين، أخبره حمزة بأنهم قادمون، وبعد قليل وصل حمدان، أحد الفتية الأربعة، كان خائفًا، اطمئن قليلًا حين رأى حمزة، سأله الرجل عن أصحابه، قال حمدان إنهم لن يأتوا، لقد أرداهم مخيبر قتلى بعد رفضهم إكمال الطريق.

(لو جاؤوا لكان خيرًا لهم، فلربما نجوا أو ماتوا شهداء، هكذا ذهبوا بالمجّان)

قال الرجل.

ردّ حمدان بصوتٍ متهدّج:

(لم يمنحهم مخيبر فرصة، قال لهم إن الوقت ثمينٌ جدًا، فمن الممكن أن ترصدهم إحدى أجهزة حرس الحدود فيقبض عليهم جميعًا، ولما أتمّ جملته دون أن يتحرّكوا صوّب مسدسه إلى صدورهم واحدًا تلو

الآخر، وكاد يقتلني أيضًا ولكنني لم أمنحه فرصة، درتُ ومشيت، ظنوا أنه لن يفعلها، وأنا كذلك اعتقدتُ أنه يهدد فقط..)

بكى حمدان، أفاق من صدمته وذهوله بعد حديثه إليهما، قتل مخيبر أصدقاءه أمام عينيه بدم بارد، قال إن من يختار السير في هذا الدرب ليس أمامه إلا الموت أو الجنون، أنا اخترتُ الثاني، كان يضحك وهم يسقطون أرضًا، (لقد ذكروني بالماضي)، قال مخيبر لـحمدان وهو يضحك، أوشك أن يرديه هوّ الآخر ولكنه قبض على الحبل ومشى، (إنك مثلي، انتقيتَ الخيار الثاني)، ظل حمدان يرتعد، خيل إليه أن مخيبر سيرسل رصاصةً تستقرّ في ظهره، ولما بات آمنًا، تنفّس، وبكى بحرقة.

هوّن الرجل وحمزة عليه، عرّفهم الرجل بنفسه.

(أنا عدنان، أبو منيرة، المسؤول عن استقبال وتدريب المستجدّين، مخيّمنا يبعد من هنا ربع ساعة، إننا نسيطر على مساحةٍ شاسعة من الحدود، خضنا معارك شرسة لأجل ذلك، والحمد لله الذي نصرنا، علينا السير الآن، وستعرفون الكثير لاحقًا)

رأى حمزة بعض ملامح وجه عدنان، كانت له لحيةٌ كثيفة، رأسه معصوب بقماشةٍ سوداء، كان قد سمع عن نشوب حروبٍ في الدول المجاورة للأردن، وظهور عصابات ومجرمين لا تنفك الأخبار تتحدّث عنهم، لم يتصوّر أنه سينضم إليهم.

استرجع حديثه مع حسّان في الإصلاحيّة، أخبره أن ابن عمّه ويدعى صفوان، ترعرع يتيمًا، مات والداه في حادث سير وخلياه

وحيدًا، تربى في الشارع، تعلّم ضرب الموسى والشفرات، شوّه وجوه كثيرين، كان حاقدًا على الحياة التي سلبت منه والديه وجعلت منه مشرّدًا، انضم إلى عصابة منذ نعومة أظفاره، وكانت تحدث معارك عديدة بين هذه العصابات لإثبات السطوة على الشوارع والحارات، تعرّف عليه أحدهم في مشاجرة اشترك فيها كلّ أصحاب السوابق، رأى الرجل قوّة صفوان، تطقّس عن أحواله، وحينما علم بفقره وحاجته إلى المال، عرض عليه الالتحاق بعصابةٍ أخرى تسمى (المرتزقة)، أقوى وأكثر مالًا، ستجعله ثريًّا في وقتٍ قصير. المورّدون يحصلون على عمولة عن كلّ عنصر جديد يجيّشونه، وافق صفوان، فأخذه إلى رجلٍ آخر، استصدر له شهادات وجواز سفر مزوّر، وسافر إلى أفريقيا، ومذّاك انقطعت أخباره، حتى عاد بعد عشر سنين بحالةٍ أخرى، رجع غنيًّا، اشترى بيتًا وتزوّج، إلا أن خللًا أصابه، صار مدمنًا على الكحول والحبوب المخدّرة والقمار، ورويدًا رويدًا خسر كثيرًا من الثروة التي جلبها.

لاحت لهم قرية صغيرة مضاءة بالفوانيس.

(ها قد وصلنا، هذا هو المخيّم الذي نقيم فيه حاليًا)

نظر حمزة وحمدان الذي ما زال في غياهب الصدمة إلى القرية الصغيرة، قرابة الخمسين بيتًا، اقتربوا أكثر، أومض عدنان بضوءٍ يدويّ ومضات ثلاث، ردّ عليه رجلٌ بضوءٍ آخر، ساروا، ولما بصروا القرية،

ذهلوا، الرجال فيها مثل خليّة النحل، بين بيوتها دبابتان وبكبات منصوبٌ فوقها رشاشات، رحبوا بهم، دهم الرعب حمدان حتى كاد يبول على نفسه، انتاب حمزة الخوف أيضًا إلا أنه سيطر عليه.

(سآخذكم إلى المضافة)

قال لهم عدنان مبتسمًا لنجاح مهمّته في إيصالهم بأمان، دلفوا إلى بيتٍ محاطٍ بعدد كبيرٍ من الحرس، سلّموا على عدنان وهنأوه بالسلامة، دخلوا البيت، رأوا مجلسًا طويلًا، ألقى عدنان التحية عليهم، سألهم عن الزعيم، قالوا إنه سيأتي بعد قليل، أخذ حمزة وحمدان ليعرض عليهما بعض الملذّات كي يخفف من خوفهما، طلب منهما اللحاق به، وجدا نفسيهما في غرفةٍ واسعة، بها صنوفٌ عديدة من الطعام، وفتاتان في غاية الجمال.

(افعلا ما يحلو لكما، سأرجع بعد ساعة لآخذكما إلى الزعيم، هذه مجرّد البداية فقط)



-٢٣-



كم يكره هذا المشهد، حين يأتي جيش الخادمات في نهاية اليوم التعليمي لاصطحاب الطلبة إلى بيوتهم، تجرحه مشاهد الوجوه البائسة، فتيات بعمر الزهور، أجسادهنّ نحيلة، أعينهنّ مليئة بالأسى، لا يرفعن نظرهن عن الأرض وهنّ يسرن، يحملن حقائب الطلبة على ظهورهنّ الضعيفة.. الكثير من الطلبة يعاملون الخادمات وكأنهن شيءٌ يملكونه، لهم حق التصرف فيه كيفما أحبوا.. أما الطلبة الصغار، فلا يشعرون بالأمان إلا مع خادماتهم، في بداية العام الدراسي، يبكي كثيرٌ منهم ويصرخون منادين على خادماتهم، ولكن حين يكبرون يتغيرون.

يراهنّ قبيل السماح لهن بالدخول إلى مبنى التعليم، يقتعدن الأرض زمرًا زمرًا، يسترق النظر إليهن، تتنازعه نفسه على الذهاب والجلوس معهن، الاستماع إلى قصصهن المؤلمة، والغوص في أعينهن المليئة بالحكايات التي لا تُقال بالكلمات.

صادف في طريقه إلى المكتب المعلّم شارلز، وهو الآخر جاره في نفس العمارة، ويعدُّه حكيمًا، يستمع إلى كلماته بحرص شديد، يجتهد في فهم كلّ كلمةٍ يقولها.. في بداية عمله واجه كثيرًا من الصعوبات، أغلب التواصل باللغة الإنجليزية، كان يتظاهر بأنه يفهم ما يُقال، يهزّ رأسه، وحين يشعر أن محدّثه يسأله شيئًا، يجيب بـ (Yes)، أو (No)، دفعه ذلك إلى الإصرار على تعلّم اللغة الإنجليزية، لم يكن الأمر سهلًا ألبتّة، غير أنه تمكّن من تطوير قدراته.. سأله شارلز عن حاله، شارلز من أمريكا، يعلّم منذ سنتين في المدرسة، متزوّج، وزوجته تعمل في كندا، يلتقيان في الإجازة الصيفية، ما زالت واحدةٌ من عبارات شارلز محفورةً في خلده «أنا بحاجة إلى السفر والتعرّف على الناس الآخرين لأقيّم نفسي، لأعرف إن كنتُ على قيد الحياة أم لا». شارلز مسؤول عن تدريس الصف الثاني، يبذل مع الطلبة مجهودات جبّارة، ومع ذلك لا يشتكي، على عكس المعلمين العرب، الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، دائمو التذمّر، كلٌّ منهم عينه على الآخر، تقوم الدنيا ولا تقعد إن زاد نصاب أحدهم عن الآخر حصّةً واحدة.. عرف شارلز بالصدفة أنه كاتب، زاره مرةً في بيته فرأى الكتب منثورةً هنا وهناك، تناول كتابًا فرأى صورته على الغلاف الخلفيّ، دُهش، تضاعف احترامه له، وكأنه عثر على جوهرة نفيسة، أخبره أنه يشعر بالفخر لأنه يسكن بجانب كاتب، اقترح عليه ترجمة أعماله، ردّ بأنه ما زال في بداية مشواره والترجمة طريقها طويل، رجاه شارلز أن يخبره إن ترجم أعماله ذات يوم، وأصرّ على أخذ كتابٍ باللغة العربيّة موقّع منه، سيخبر أهله في ولاية جورجيا أنه كان يعيش بجانب كاتب، تعجّب لحال شارلز، ألهذه الدرجة تحترمون الكتّاب؟ آهٍ لو تعرف ما الذي يفعلونه بنا في الوطن العربيّ، وكيف يعاملوننا، زال عجبه من بعض الأخبار

التي قرأها عن بيع مخطوط من مخطوطات هاري بوتر في مزاد علنيّ بمبلغ ٢٥٠ ألف دولار، تذكّر رحلته المضنية مع دور النشر في الأردن، وكيف عاملوه باحتقار، ولولا تزكية أحد الكتّاب الكبار لكتابه الأول، لبقيت أعماله حبيسة الأدراج.. استعلم منه شارلز إن كان يكتب شيئًا جديدًا، أجابه أن نعم، استفسر منه عن مضمون ما يكتب، ردّ بأنه يكتب المجتمع ولكن بعد مزجه ببعض الفانتازيا، كان إعجاب شارلز بكلامه يثير في نفسه الزهو، يشعر بقيمة أن تكون كاتبًا.

هو الذي كان القلم مُنجيه ومُهلكه، هو الذي كانت الكلمة سلاحه والخنجر المطعون في ظهره، هي صنارته ومصيدته التي وقع بها..

(هي لم تحبّك، بل أحبّت أن تكون بطلةً في قصصك)

(أيعقل ذلك؟ أهي مجنونة لتفعل ذلك؟)

(ما رأيك أن أثبت لك؟)

(تثبتين لي ماذا؟)

(أنها لم تحبّك، ولو أنها أحبّتك ما كانت لترضى بمقابلة غيرك)

(وكيف ذلك يا سميّة؟)

(أنا من أحضرتُ لها العريس، لم أكن أعلم بما بينكما، ولو عرفت ما كنتُ فعلت)

واه يا سميّة، أعلم لمَ تفعلين ذلك؟ تريدين إقناع نفسك أن الحبّ خرافةٌ، الخيانة هي الواقع، الفراق هو الحقيقة، لقد تركك حبيبك، فضّل عليك غيرك، ولكن ما ذنبي لتنتقمين مني؟

(حسنًا يا سميّة، كيف ستثبتين لي؟)

(إن وافقت على زيارته لهم في البيت....)

تكون حينها قد قتلتني يا سميّة، قتلتني بدم بارد، لا لن تفعل ذلك، لقد كلّمتها في الأمس، قلت لها إنني آتٍ لزيارتهم في الغد، بيد أنها اعتذرت، في بيتهم ما يشغلهم، وحين تستتب الأمور ستدعوني لزيارتهم.

(اذهبي يا سميّة، اذهبي لتعلمي أن ليس الجميع خونة)

وجلس خائفًا يترقّب، يكاد قلبه يطفر من صدره، ولم يطل غياب سميّة، جاءت مسرورة، تتصنّع الحزن، نظرت إلى عينيه، ابتدرها قائلًا:

(أرأيتِ يا سميّة؟ لم تنالي إلا الخيبة)

أخرجت ورقةً صغيرةً من جيب جلبابها.

(أعطتني هذه الورقة، رقم هاتف أمها، قالت لي: أهلًا وسهلًا في أيّ وقت)



-٢٤-



ساعدتها كيت على الإفاقة من غيبوبتها، كانت منهارةً تمامًا، أول مرّة تراها كيت بهذه الحالة، هطلت دموعها غزيرة، احتضنتها كيت، سألتها ما بها، وهل هناك ما يؤلمها، هزّت رأسها أن لا، لا توجد كلمات يمكنها التعبير عمّا تشعر به، إن قلبها يحتضر كلما تذكّرت ما حدث، يصارع الموت طويلًا، ثم يخلّفها صريعةً، لا يقوى جسدها على احتمال ذلك الموج العاتي من الحزن، يحملها بعيدًا، ويطرحها على شاطئ الإغماء، ولولا ذلك الرحيل المؤقت الذي يهبها بعض الراحة، لكانت فارقت الحياة للأبد.

إنها صاحبة خيالٍ جامح، بإمكانه تصوير ما يفعلانه علاء وجنى، كيف يهمس في أذنها بكلمات غزلٍ لا تصمد أيّ أنثى أمامها، لمسة يده وهو يمسك بيدها ويخبرها عن جمال الحياة، بسمته حين تخجل من غزله، ضحكته الموسيقية عندما تضطرب وتعجز عن مسايرة حواره.

«سامحيني يا فدوى، أنتِ تعلمين أن الحياة قاسية، ولقد تعبت، أنهكتني هذه الحياة، مللتُ هذي البلد، جنى ليست أفضل منكِ، ولم أكن خائنًا يومًا، كلّ كلمة خرجت من فمي كانت صادقة، أنتِ حبيبتي الأولى، غير أن الحياة قاسية، لا تأبه بالقلوب، بل بالجيوب. أوجعني الفقر، وحرمني أشياء كثيرة تمنّيتها، وأنتِ إحداها، جنى ستكون تذكرة عبوري إلى الضفة الأخرى، جنسيّتها الكنديّة ستنقذني من هذا المستنقع الذي وجدتُ نفسي فيه، لا تظنّي الأمر سهلًا بالنسبة لي، لا، أنا بذلك أطعنُ قلبي قبل قلبك، أحرمه منكِ، وستبقين فيه أبدًا، لا أعلم، ولكن الحياة ستسير، وستنسيني في النهاية، ستعثرين على رجلٍ يستحقّك، ويعوّضك، سامحيني يا فدوى.. سامحيني أرجوكِ»

كانت هذه الرسالة رصاصة الرحمة التي أطلقها على حبهما.. لماذا لا ترحل بصمت؟ ما الذي تريده بعد؟ أنا التي تستحق ذلك وأكثر، لقد تركتُ عواطفي تتحكّم في عقلي، وها هي النتيجة، ببساطة سيتزوّج صديقتي من أجل جنسيّتها.

كادت تجنّ، جافى النوم عينيها، رفضت نفسها الطعام، لازمت فرشتها حتى لجأت إلى الله، وجدته بانتظارها، طالما كان كذلك، لقد نسيته في معمعة الجنون الذي عاشته، غير أنه دائمًا هنا، قرب القلوب المنكسرة، شكت إليه همّها، بكت بين يديه، ناجته، سألته أن يرحمها وينقذها من هذه العاصفة العاتية، إنها تفكّر في الانتحار، ذلك أهون من الألم الذي تقاسيه، لقد صارت حكايةً في فم صديقاتها، يزدن عليها ما يجود به خيالهنّ، أفرغت بعض حزنها الممض، ومكث بعضه الآخر، الدروس ليست بالمجّان، لا بد من دفع ثمنٍ يتناسب مع قيمته، وإلا سنخرج من الحياة دون أن نتعلّم شيئًا.

ثمن الدرس كان باهظًا، إلا أنه استحقّ ذلك، فقد كشف لها عن موهبتها في الكتابة، لا بأس بهذا الجرح لأجل ذلك، ستقطّبه الكلمات المخطوطة فوق الورق، سينفتق بين الحين والآخر، ليذكّرها بما قاسته حتى تصير ما هيَ عليه، وليوحي لها بالمزيد من القصص، سيصاب جزءٌ من عقلها بالتلف، وحجرةٌ من قلبها ستهدم، سيرافقها الوجع أبدًا، وستصير إنسانةً أخرى، أكثر قوّة، لن تسمح لقلبها بعد اليوم بدغدغتها، ستغلقه، وستدع العقل يستلم الدفّة، هو من سيوجّهها حيث الأمان، لا جروح بعد اليوم.

استغرق ذلك وقتًا طويلًا، مات الأملُ في نفسها فنجت.. ذلك الأمل الذي ظل يوسوس إليها أنه سيرجع، لن يقدر على فراقها، سيعود صاغرًا، لن تسامحه أو لربما تفعل، لا تعرف، ستتخذ القرار حين عودته، خفت الأمل تدريجيًّا، ثم تلاشى، مات لتحيا، تماهت مع غيابه، أيقنت أنه رحل إلى الأبد، أجبرت نفسها على مقاطعة التلصص على صفحته في الفيسبوك، ولما شرعت بالكتابة، تبدّل عالمها.

غرقت في كتابة أول رواية، كانت تعلم أنها موهوبةٌ في الكتابة، غير أنها لم تكن تعرف ماذا تكتب، ولما طالعت بعض الروايات وأحبّتها، همس صوتٌ في داخلها: أنتِ روائية. فجّرت خيانته لها سدّ الحبر فسال غزيرًا، أنهت الرواية في شهر، خطّتها بدمعها، عرضتها على كاتبةٍ ذات خبرة كوّنت معها صداقة عن طريق الفيسبوك، التقتها بعد ذلك عدّة مرات، ترقّبت رأيها على أحرّ من الجمر، طارت من الفرحة حين أخبرتها أنها رواية جيدة، زوّدتها ببعض التعديلات، وقالت لها أنها ستساعدها في نشرها، فهي على صلة بالعديد من دور النشر في الأردن.

كانت تلك هي المنحة التي حظيت بها فدوى من تلك المحنة.. الخسارة في جوهرها جميلة.. فهي تمنحنا الفرصة لاكتشاف جوانب خفيّة في أنفسنا.

اختارت فدوى اسمًا مستعارًا، فذلك سيمنحها حريّةً أكبر، لن تتقيّد بالحدود المفروضة من المجتمع، كما أنها في غنًى عن الدخول في معركةٍ هي الخاسرة فيها مع أسرتها. ولما نشرت روايتها، تمنّت لو أنه موجودٌ ليشاركها فرحتها. تعايش عقلها مع خسارته.. أما قلبها الذي أحبه وما انفك يحبه، سيحتفظ به للأبد، لن يخرجه مهما حاولت، ظنّت أنه دُفن هناك، لكن ذلك الشاب الملعون الذي قابلته، هيّج مشاعرها، أنعش جسده المسجى في قلبها، فعاد يتبختر أمامها، فيلمًا تراجيديًّا جعلها بطلته.

أوصلتها كيت إلى منزلها، طلبت منها أن ترتاح، غادرت كيت، تركتها وحيدةً تصارع الماضي، الذي هزمها في النهاية، وأجبرها على فتح صفحة علاء، ومطالعة صوره مع جنى وابنتهما.. فدوى.



شمس آفلة

هزّتها السيدة أمينة برفق، استيقظت من أحلامها لأول مرّة على واقعٍ أجمل، مسّدت السيدة أمينة على شعرها الطويل الناعم، اعتذرت لأنها أزعجتها، ولكن حان موعد خروجهم، سيأخذانها إلى مطعمٍ فخم، كي تحتفل بانضمامها إلى عائلتهما، ولتروّح عنها بعضًا من الضيق الذي يجثم على صدرها. خرجت السيدة أمينة، نهضت فدوى من السرير، على غير المعتاد لم تسمع صراخًا، لا شتائم، لا روائح كريهة، لا خزانة محطّمة، لا باب مخلوع ونافذة مكسورة، ارتدت ثيابًا جميلة، وقفت أمام المرآة، لاحظت أنها باتت كبيرة، الأنوثة تتفجّر في جسدها، تلقي بظلالها على نفسها، أحسّت بجمالها، طالما شتمها أبوها وإخوتها حتى كرهت نفسها، لم يتركوا وصفًا سيئًا إلا نعتوها به، كانت تخاف النظر في المرآة فترى جسدها وقد مُسخ إلى حيوانٍ بشع.. لا، إنني جميلة، لم يكن الخلل فيّ يومًا، بل فيهم، إنهم بحاجةٍ

إلى التداوي من جنونهم، هل يُعقل أن ينعت إخوةٌ أختهم بسماتٍ بذيئة؟ أهناك في الدنيا أبٌ يشتم ابنته في عرضها؟ لقد ولدتُ في البيت الخطأ، لو كنتُ بنتًا لغيرهم لحمدوا الله على ما رزقهم، لا بأس، لا بأس يا فدوى، ها قد عوّض الله صبري خيرًا.

سرّحت شعرها، دُهشت.. إنه ناعم، لماذا كان قبل ساعاتٍ أجعدَ؟ أتراني سُحرتُ دون أن أعلم؟ أم أن هذه الواقفة أمام المرآة هي النسخة الحقيقية؟ نعم، لقد عشتُ حياةً زائفة، إن كانت ما عشتها تستحق أن تدعى حياة.. كفكفت شعرها، شكّلته على هيئة كعكة، لبست منديلها، نظرت إلى وجهها، كم هو نقيّ، زفرت تنهيدةً عميقة، رتّبت سريرها، وخرجت.

السيد أحمد والسيدة أمينة يجلسان في الصالة، يبدوان كعاشقين، من قال إن الحياة غير ممكنة بدون أطفال؟ سمعا صوت خطواتها فالتفتا إليها، ابتسما، وكأنها كبرت أثناء نومها، ذابت تلك البنت الصغيرة المسكينة، وبرزت فتاة جميلة.. اعتراها الخجل حين أغدقا عليها بالمديح.

قرع الجرس، تعجّبا، لم يخطرهما أحدٌ بزيارتهما، وهما غير معتادين على استقبال الضيوف بدون مواعيد، نهض السيد أحمد، نظر من العين السحريّة للباب، انتابه القلق، رأى رجلًا وامرأة، فتح الباب، كاد يغمى على فدوى لما رأت أباها وعمّتها صيتة.

سمعت العمّة صيتة بما حدث، فجنّ جنونها، حرّضته على استعادة ابنته، قال لها بأنه قبض خمسة آلاف دينار نظير تخلّيه عنها، سألته إن كان أحدٌ شهد ذلك، أجابها أن لا، عادت وسألته:

(هل يوجد ما يثبت ذلك؟)

(لا)

(إذن، أنت لم تأخذ شيئًا)

أقنعته لا أحد يستطيع حرمانه من ابنته، والنقود حلالٌ عليه، وستتنازل له عن نصف دونم من أرضٍ ورثتها عن زوجها، سال لعابه، إنها فرصةُ العمر، سيبيع نصف الدونم ويحصل على المزيد من المال، سيعود إلى عربدته القديمة، طلب منها أن ترافقه إلى بيت السيدة أمينة، والذي يعرفه جيّدًا، فقد كان يأتي كلّ نهاية شهر ليأخذ المائة دينار التي تمنحه إياها السيدة أمينة ليعتني جيّدًا بِـفدوى.

(تفضّلا)

قال السيد أحمد.

(أنا والد فدوى، جئتُ لآخذها إلى البيت)

ذابت تلك الفتاة الجميلة، وظهرت البنت المكسورة مجددًا، تصدّت إليه السيدة أمينة.

(ألم نتّفق؟ لقد أعطيتك ما طلبته)

(ماذا؟ ما هذا الذي تقولينه؟ أعطيتني! ما الذي أعطيتني إياه؟)

(خمسة آلاف دينار، ألم أعطك إياها كما طلبت؟)

(لا أعرف عمّا تتحدثين يا سيدة أمينة، أرجوك لا نريد فضائح، دعيني آخذ ابنتي، لا تجبريني على اللجوء إلى الشرطة)

(تريدون سرقة فتاة من أهلها، إنه آخر زمن)

قالت العمّة صيتة.

دعاهما السيد أحمد إلى الدخول كي يتفاهموا، رفضا ذلك، فطلب منه إحضار النقود التي أخذها وسيعطيه ابنته.

(وهذا آخر كلام)

قال السيد أحمد غاضبًا.

التصقت فدوى بالسيدة أمينة، وكأنها تريد الدخول في جسدها، في رحمها، لعلّها تلدها من جديد، فحينها لن يقوى أحدٌ على أخذها منها.

(حسنًا يا سيدي، إنك لا تدع لي خيارًا آخر)

خرجا بعد أن خلّفا عاصفةً خلفهما، أرغى السيد أحمد وأزبد، أفلت غضبه، صرخ في السيدة أمينة، قال لها أنها أوقعتهما في مأزق

حين تعاملت مع هؤلاء الحثالة عديمي الشرف، ليس هناك دليل على أخذه المال منها، وربما يتهمها بخطف ابنته، لم تملك السيدة أمينة سوى دموعها التي تشابكت مع دموع فدوى.

(أرجوكِ.. لا..... تتخلي... عني)

قالت فدوى بصوتٍ حزين، خلّف رنينه ألمًا في آذانهما.. لا يوجد في الدنيا قانون يقف إلى جانبهما، البنت من حقّ أبيها، يعلمان ذلك جيّدًا.

(ربما طمع في المزيد من المال)

أخبرت السيدة أمينة زوجها، وأردفت:

(أرجوك يا أحمد، اعرض عليه المزيد، ولكن، أجبره هذه المرّة على توقيع ورقة تنازل عن فدوى)

رجع الأب والعمّة رفقة سيّارة شرطة، قرعوا الجرس، فتح السيد أحمد الباب، وبعد التأكد من صحة كلام الأب، انتزعوا فدوى، وأعادوها إلى الجحيم.



بحرٌ مفقود

كانت هذه أول مرّة يختلي فيها حمزة مع فتاة، هو الذي لم يحلم يومًا بذلك، رفْض الجميع، هيأ له استحالة أن تنظر إليه امرأة، أكل وشرب، ثمّ تكفّلت الفتاة بالباقي، انتشى، ستتغيّر حياته، ستنقلب رأسًا على عقب، وهذه بشائرها.

خرج من مخدع الفتاة مرغمًا بعد إلحاح عدنان في مناداته وحمدان، خرجا يجرجران جسديهما، تحسّر حمدان على أصدقائه، قال في نفسه: أمِن هذا فررتم؟ أخذهما عدنان، أخبرهما أن الزعيم حضر، ويجب عليهما مقابلته، دلفا إلى المجلس الذي عبراه حين قدما.

وقفا على الباب يبحثان بعيونهما عن أماراتٍ تدلّهما على الزعيم من بين الرجال الجالسين، استغربا حينما أشار إليهما رجلٌ يرتدي بدلةً أنيقة ليقتربا، همس لهما عدنان:

(اذهبا إلى الزعيم)

كان مغايرًا للصورة التي رسماها في خيالهما له، صحيحٌ أن له جسمًا رياضيًّا مفتولًا، غير أنه يبدو لمن يراه ليّنًا لا يليق بالزعامة، تفحّصهما بعينيه، التقت عيناه بعينيّ حمزة، والذي لم يكن معتادًا على خفض بصره لأحد، تبادلا النظرات، رأى الزعيم في عيني حمزة لهيبًا حارقًا، وأخيرًا ابتسم.

(ما اسمك أيها الفتى؟)

(حمزة)

(كم عمرك؟)

(ست عشرة سنة)

(كيف أبليتَ مع جهينة؟)

لم يفهم حمزة السؤال، ففسره له:

(الفتاة التي استقبلتك، تبدو صغيرًا على هذه الأمور)

قهقه الرجال المتحلّقون حول الزعيم، استعرت نيران الغضب في نفس حمزة، همّ بمهاجمة الزعيم، إلا أن قوّةً عجيبةً لجمته عن ذلك، شيءٌ قال له إن مغبّة ذلك الموت، ولم تأتِ إلى هنا لتموت، بل لتعيش طويلًا، لقد شبعتَ من الموت.

(ما اسمك أنت؟)

(حمدان يا سيدي)

(هل تجيدان استعمال السلاح)

(نعم، أنا بارع في استعمال الموسى)

أجاب حمدان.

(حسنًا، سنضعك رأس حربة، ستواجه غدًا بموسك رشاشًا، ما هذا؟ لماذا لم يعد حسين يرسل إليّ إلا الحمقى؟)

قال الزعيم ذلك وهو ينظر في عينيّ حمزة، اللتين اشتعل لهيبهما إلى آخره.

(عدنان خذهما من هنا، ولتبدأ تدريباتهما مع المستجدّين)

تلاشت لذّة لقاء الفتاتين والطعام والشراب الذي تناولاه إلا قليلًا، أخذهما عدنان إلى مبنى، قال إنه عبارة عن ثكنات ينام فيها المتدربون، وحين ينهون تدريبهم يلتحقون بالوحدات المقاتلة، ولجوا المبنى المكوّن من ثلاثة طوابق، سيناما في الطابق الأرضيّ، ومع كلّ دورةٍ يتمانها يصعدان طابقًا، حتى ينهيا جميع الدورات.

الطابق عبارة عن صالة واسعة، بعد هدم الجدران الفاصلة بين الغرف، فيها عشرة أسرّة، خمسةٌ منها مشغولة، والخمسة الأخرى فارغة.

(كنا ننتظر خمستكم، ولكن لا بأس)

جال حمزة على الوجوه بعينيه، وجوهٌ لا تشبه وجوهًا رآها مسبقًا، إنها ولا شك قادمةٌ من بعيد.

(وصل هؤلاء قبلكم بساعات، رحلتهم كانت أطول من رحلتكم، جاؤوا من أفريقيا، هيا ارتاحا، ففي الغد أمامكم يومٌ حافل)

غادرهم عدنان، نظر الأفارقة إلى حمزة وحمدان، كانت عيونهم حمراء، جائعة، حاول حمدان محادثتهم، إلا أنهم لم يفهموا ما يقول، ردّوا عليه بلهجةٍ غريبة، نظر إلى حمزة، طلب إليه تركهم وشأنهم، اختار سريرًا بعيدًا عن الجميع، أخذ حمدان السرير المجاور، كانوا جميعهم منهكين، رحلوا إلى عالم النوم بسرعة.



-٢٥-

هوَ

رجع إلى البيت، تركته أميهان يلمع، نظّفته جيّدًا، إنها تردّ له المعروف بأحسن منه، حتى إنها تطهو له في الأيام التي تأتي لتنظّف فيها.. ليس إنسانًا من لا يقدّر من يسدي إليه معروفًا، كيف ننكر فضل من يمدّ يده إلينا؟ رفع غطاء الطنجرة، إذن لقد أعدّت (مندي)، تعرف مدى عشقه لهذه الأكلة، خلع ثيابه، ثم رجع إلى المطبخ، ملأ صحنًا بالأرز، وضع فوقه قطعة لحم حمراء، سحب من الثلاجة زجاجة (باربيكان) ودلف إلى الصالة، وضع الوجبة فوق طاولة السفرة، وشرع يتناول غداءه.

لماذا لم تكن الحياة منذ البداية هكذا؟ لماذا كان عليّ تحمّل كل ذلك الأسى؟ حينما أنهى البكالوريوس، ظنّ أن زمن الشقاء ولّى، عاد إلى أهله في القرية البعيدة يحملُ شهادةً يفخرون بها، غنوا ورقصوا، احتفوا به طويلًا، ترك عمّان التي لم تتركه، ظلّت تسكنه وتهيّج حنينه ليزورها، مكث في القرية التي ولد بها، غير أنه شعر

بالغربة هنا، السنوات الأربع التي عاشاها في عمّان جعلته غريبًا عن الناس، تغيّرت الكثير من الأشياء في غيبته، صحيحٌ أنه كان يذهب إلى القرية في الإجازات، ولكنه لا يفارق البيت، يعتكف فيه، حتى أهله لا يراهم إلا لمامًا، ثمة فجوة نَمَت بينهم، أخواه الذكران يتوددان إليه، لا يعيرهما أدنى اهتمام، يطلب منهما تركه وشأنه، أخته كأنها غريبةٌ عنه.. أنا لا أنتمي لهذا المكان، وجدتُ نفسي فيه رغمًا عني، ولو أتيحت لي الفرصة، لم أكن لأختاره قط، أنا مجبورٌ على الإقامة بين جدرانٍ مع أناسٍ لا أفهمهم ولا يفهمونني، عليّ التخطيط كي أعود إلى عمّان، هناك وجدتُ نفسي، لا أحد يأبه بأصلي وفصلي، إنها مدينة ينشغل أبناؤها بأنفسهم، على عكس هذه القرية التي يصدّع ساكنوها رأسك لكثرة أسئلتهم، يريدون معرفة كلّ شيءٍ تفعله، ولو استطاعوا لركّبوا كاميرا تنقل لهم حياتك أوّلًا بأوّل.

ولكن عقب تخرّجه في الجامعة، صار لزامًا عليه الانخراط مجدّدًا في حياة القرية، سيشارك في الأفراح والأتراح، سيجبره أبوه على ذلك، سيجرّه رغم أنفه إلى اجتماعات العائلة، والزيارات في المناسبات التي لا تنتهي، كاد يصابُ بالفصام، هوَ الذي قضى أربع سنواتٍ من عمره حرًّا طليقًا، يُقبض عليه ويودع سجن العادات تارةً أخرى.

ومع مرور الأيام وتأخر الوظيفة، بدأ التذمّر من الأب.. لقد كلّفتني دراستك الكثير من المال، وها أنت تجلس بلا عمل، أولم يكن من الأفضل أن تلتحق بالجيش منذ البداية؟ لو سمعتَ كلامي لكنتَ الآن تملكُ بيتًا ومتزوّجًا ولديك أطفال، صار يشعر بأنه ثقيلٌ هنا، غير مرحّبٍ به، حينما يتناول الطعام يشعر بغصّة، وكأنه يأكل عند غرباء معدمين، انعزل عن الجميع، نظّف القبو الصغير أسفل البيت، واتّخذ منه ملاذًا يحميه من نظرات الشفقة والإدانة، أنهكه السهر وكثرة

التفكير.. ربما كان أبي على حق، أصدقائي الذين لم يكملوا تعليمهم والتحقوا بالجيش، أنجزوا الكثير، بينما أنا أراوح مكاني، ها أنا منفيٌّ ليس في جيبي قرشٌ واحد، حتى أهلي يتثاقلون منّي، بصراحة معهم حق، ولكن ليس بيدي حيلة، لقد قدّمتُ أوراقي لديوان الخدمة المدنيّة، قالوا لي إن ترتيبي هو الثالث، أمامي اثنان، حينما يحصلان على وظيفة، يجيء دوري، مرّت ثلاثة أشهر، يقولون إن هناك دفعة جديدة من التعيينات في بداية السنة الجديدة، لا حلّ لي سوى الصبر.

وذات يوم، وبعد مرور سنة على تخرّجه، سمعوا طرقًا قويًّا على الباب، فتح أبوه الباب، وإذا بصبيٍّ يحمل ورقةً مقصوصةً من جريدة.

(مبروك ابنك تعيّن في التربية)

قال الغلام بصوتٍ لاهث، أرسله معلمٌ من أقاربهم، كان يطالع جريدة الرأي في حصّةٍ فراغه، فقرأ الخبر، أرسل الطالب ليبشّرهم وليتمّوا الإجراءات الرسميّة، أعطى الأب الصبيّ نصف دينار، استخفه الفرح، نزل إلى قبو ابنه الذي قاطعه منذ زمن، كان في حالةٍ يرثى لها، شعره مهمل، لحيته كثيفة، القبو يضجّ بالفوضى، مدّ يده إلى جيبه وأعطاه عشرة دنانير، طلب منه الذهاب إلى الحلّاق، استغرب.. ما الذي يجري؟ يبدو أن أبي فقد عقله، عشرة دنانير، لقد فضحني لأنني تجرأتُ وأخذتُ من جيبه دينارًا، ولما عرف السبب بطل العجب.

عاد الأمل يدغدغه، إنه يحلم منذ صغره في الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربيّة، احتضر الحلم، إلا أنه لم يمت، ها هو يستعيد عافيته، سيحصل على معاشٍ جيّد نظير التحاقه في المدرسة لتعليم الطلاب، سيدّخر ويلتحق بالجامعة ليكمل تعليمه، ولكن حين قبض أول معاش دبت الخلافات بينه وبين أبيه الذي يريد الحصول

عليه كاملًا، هيئ إليه أن ابنه ما زال طفلًا صغيرًا، سيرضى بأي مبلغ يعطيه إياه، إلا أن الصغير كبر وباتت له متطلّباتٌ كثيرة، إنه بحاجةٍ إلى لباسٍ جيّد، وثمة مساهمات شهريّة عليه أن يدفعها في المدرسة، وبعد ذلك يريد أن يدّخر ليحقق حلمه.

وقف الجميع ضدّه، اتهموه بالعقوق، نصف المعاش الذي يعطيه لأبيه لا يكفي، عليه أن يمنحه النقود كاملة غير منقوصةٍ مليمًا واحدًا، أدرك استحالة الحياة في هذا البيت، إن أباه يحمّله مسؤولية فشله.. ما ذنبي لأحمل همّ أسرةٍ لم أُنجبها؟ لا، أنا لستُ عاقًّا، بيد أنهم يريدونني عبدًا يعمل بالسخرة، لم يقبل بنصف المعاش، ولا أستطيع التخلّي له عن معاشي كاملًا، ولم تفلح الوساطات التي حاولت حلّ الإشكال بيننا.. لم يعد أمامي سوى..

الرحيل.



-٢٦-



لن تبقى كما أنت حين تُنزع قطعةٌ منك، لا، سيخلّف ذلك فراغًا لا تعلم ما الذي سيملأه.. وكلّما اتّسع حجم الفراغ.. زاد الخطر.. بالنسبة لي كان علاء شيئًا غير قابلٍ للتعويض، أعرف في قرارة نفسي أنني لن أجد رجلًا مثله، كان يملك جميع الصفات التي تحلم بها كل فتاة، لقد كان خياليًّا أكثر من اللازم، وتلك هي المصيبة، فلو أنه طبيعيّ مثل غيره من الرجال لكان ألمي أقلّ شدّة، مأساتي هي أنني أحببتُ رجلًا استثنائيًّا.

أصرّ على تعذيبي حتى بعد رحيله، أبى تركي وجرحي نعيش بسلام، كان يعمّقه كلما اقترب من الالتئام.. سمى ابنته فدوى، ما هي الرسالة التي يبغي إيصالها من ذلك؟ أيريد إيهامي بأنه ما زال يحبني؟ وهل يطلب مني تصديق ذلك؟ أو لعلّه يقدّم بذلك اعتذارًا يريح ضميره، يظنّ أنني سأسامحه، لا، لم يشفَ الجرح بعد، إنه مؤلمٌ

أكثر مما تتصوّر، وكلما هممتُ بمسامحتك وخزني، أوجعني لئلا أفعل.

ابنتك جميلة، تشبه أمّها، أحاول ألا أحبّها فلا أقدر، أتخيّلها ابنتنا، ابنتي التي أنجبتها من غيري، تلك هي الحقيقة، أشعر كأنها ابنتي المخطوفة، يهيأ إليّ أنها سترجع إلى أمها الحقيقيّة يومًا، ستصلحان غلطتكما وتردّانها إلى حضني.

تهافت العرسان على بيتهم فور سماعهم نبأ حصولها على وظيفة، رفضتهم كلّهم دون تفكير، وقف أبوها إلى جانبها، لم يشأ تزويجها في الوقت الراهن، فذلك يحرمه من معاشها، كانت تلك نقطةً في صالحها، ولولا ذلك لألقوها في حضن أوّل من دقّ بابهم. عقب زواج علاء وجنى حظيت بفرصة العمل في أبوظبي، لم تفكّر كثيرًا، وافقت على الفور، ستهرب من ذكرياتها معه، هنا كلّ شيءٍ يجلدها بهِ: الأماكن والوجوه، رائحة الجوّ، وصوت الازدحام.. لن أبقى حبيسة ذلك، لم يعد لي شيءٌ هنا سوى الذكرى، علاء تزوّج وسافر إلى كندا مثلما خطّط، خلّفني وحيدة أتصارع مع شبحه الذي يأبى الرحيل، ذلك الشبح اللعين، الساكن مطرح القطعة التي اجتزّها منّي غيابه.

إنها الخسارة الفادحة، خسارة من تحب لصالح صديقة.

(تعلمين أنه يحبّني يا جنى)

كان آخر ما تتمناه هو أن تضعف لتلك الدرجة التي تتوسل معها صديقتها، كي ترفض هذا الزواج، إلا أن رجاء فدوى زاد من تشبّث جنى بِعلاء، عرفت أنه مميّز ولولا ذلك ما كانت فدوى القويّة لتتخلى عن كرامتها، فدوى التي طالما حسدنها على برودة أعصابها ولا

مبالاتها، هكذا هم اللامبالون، حين يعشقون.. يعشقون حتى الموت، تستحيل لا مبالاتهم ولهًا لا فكاك منه، إما أن يحظوا بمن أحبوهم وإلا جنّوا.

جافاها النوم، نهضت من سريرها، وقفت بجانب النافذة، نظرت إلى البحر، خيل إليها أنه يشعر بحزنها، فتح أذنيه هاتفًا: هيا، أخبريني، قولي، أفرغي حزنك، ففي باطني الكثير من دموع العاشقين، وأسرارٌ خفيّة، باح بها أصحابها ذات وجع ووحدة، ألقوها على جوانبي، ألملمها وأخفيها في قعري، وقعري بعيد، لا يستطيع أحدٌ وصوله؛ لذا هاتِ ما عندك يا صديقتي، لقد بتنا أصدقاء، مكثتِ بجواري حتى صرتُ أفهمك، لا تخافي، سرّك في أمان، وإن لم تحبي البوح بكلام منطوق، اكتبي، ألم تسمعي عن رسائل البحر؟ ليس عليك سوى كتابةً ما تشائين على ورقة، ثم تخفينها في زجاجة، وبعدها تسلّمينها إليّ، وأعدك أنني سأوصلها لصاحب العنوان، لا تظنّي وعودي هباءً كوعود البشر، لا، اسألي العاشقين قبلك، أأكتمك حديثًا؟ وإن كنتُ أعلم أن البشر لا يحفظون سرًّا، لكن لا بأس، أتصدّقين أنني لم أبتلع ولا مرّةً محبًّا؟ لا أتحمّل دموع ولعنات محبيهم، أنا متأكدٌ أن من يفرّق بين عاشقين ينالُ لعنةً لا سبيل للخلاص منها.

أعجبتها تلك الفكرة، ستكتبُ رسالةً تخفيها في زجاجة، ثم تلقيها في البحر، ولكن لمن ستكتب؟ أأكتب إلى علاء أم إلى ذلك الشاب؟ ربما عليّ أن أجد طرفًا آخر أكتب إليه، طبيبًا ينجح في مداواة جراحي، القرّاء لم يفلحوا بذلك، إنهم لا يعلمون من يكتب تلك القصص التي تعجبهم، أنا مختبئةٌ تحت قناع يداري عنهم وجهي الحقيقي، لا أنال من الكتابة سوى التعب والإرهاق، حتى الشهرة التي حلمتُ بها ذهبت لفتاةٍ غير حقيقيّة، هل آن الأوان للكشف عن الفتاة الحقيقيّة؟ لمَ لا؟

ما الذي يمنعني من ذلك؟ اكتفيتُ من الاختباء، ولكن ربما تكون تلك خاتمتي ككاتبة، لقد كوّنتُ جمهورًا من القرّاء لأنني أكتب باسم مستعار، الناس يحبّون الفضول، يظنون أنني أكتب إليهم من كوكبٍ بعيد. لا، عليّ المواصلة باسمي المستعار، سيكتشفون عقب موتي اسمي الحقيقي.

فتحت صفحتها في الفيسبوك، ليس من عادتها أن تكتب في وقتٍ متأخر، لكن لا بأس، إنها بحاجةٍ للمواساة حتى لو كانت من وراء الشاشات، طرحت على المتابعين سؤالًا ساذجًا يناسب حشود العاشقين السهارى «أهناك دواءٌ للفقدان؟».. تسابقوا في طرح حكمهم، أغلب الإجابات أكّدت أن الزمن هو الكفيل بذلك، إذن ما بالها لا تنسى؟ هل جافاها الزمن هو الآخر؟

أغلقت صفحتها، استاءت لكثرة الرسائل التي وصلتها، لم تجب كعادتها، رسائل عديدة أغلبها من ذكور، يتوددون إليها، كانت حريصة، لم يعد بريق الكلام يخدعها، هي التي أغرقتها الكلمات في بحر العذاب، لا يزال كلام علاء المعسول يتردد في أذنيها، كانت قرأت مرّةً عبارةً جميلة تقول: «لن تصمد المرأة أمام رجلٍ سلاحه كلمة وزهرة»، ذلك صحيح، وقائل هذه العبارة حكيمٌ ولا شكٍ، صمدت طويلًا أمام إغراءات الوسامة والمال، غير أنها سقطت بالضربة القاضية أمام مبتدع الكلمة وصاحب الزهرة، ولما ارتطم رأسها بصخر الحقيقة، أصيبت بصدمة، صارت الكلمات الجميلة تخيفها، تعرف جيّدًا أن بعد الطيران في سماء تلك الكلمات، سقوطًا مدوّيًا، غير أنها حلّقت هذه المرّة في سماء الغرابة.. من أين أتى ذلك الشاب؟ ما هيَ حكايته؟

استمعت إلى قصيدة غادة السمان، رسالة إلى الرجل المستحيل، أعادت المقطع الذي تعشقه مرارًا وتكرارًا:

ابق نائيًا
حبًا مستحيلاً يتضوع عطرًا سريًا
كي أظل متعطشة للرحيل بحريـ في
في مدارات الكواكب المجهولة للمشاعر
حيث مقالع أبجدية الدهشة
والفجر الشاحب للأسرار..

عزاؤها أن خسارتها كانت العصا السحريّة لانبثاق الكاتبة من داخلها، فلو ظفرت بِعلاء لبقيت كلماتها حبيسةَ مخبئها، أحيانًا تحبّ تلك الخسارة التي منحتها جوهرةً نفيسة، وأخرى تلعنها؛ لأنها حرمتها حلمها ببيتٍ وزوجٍ وأطفال.. من أنت أيها الغريب؟ يا من أيقظت جروحي النائمة، ظننتك فريسةً وإذا بك صائدٌ ماكرٌ شبكته الصمت والغموض، أعترف أيها الغريب أنك أوقعتني إلا قليلًا، وأعترف أنني أبحث عنك في كلّ الوجوه والأصوات، وفي لون البحر والسماء، وأجنحة النوارس، كلما دخلتُ مكان لقائنا خفق قلبي موهمًا إياي بقربك، أتلفّت فلا أجدك، من أيّ البلاد أنت؟ آهٍ أيها الغريب، ظننتك لعبتي، شخصيّة أحرّكها بين السطور، وها أنت تتمرّد، تخرج من بين الفواصل، تُبعد النقاط من مواضعها، تبدّل الأفكار، تتأرجح فوق الكلمات، وتنسلّ من بين الحروف، تصعد إلى عقلي، تقبض على أعصابي، وتعزف فوقها لحن الشوق، وأمنية لقاءٍ مستحيل.

لا تعرف كيف استلّت ورقةً بيضاء، اعتادت الكتابة بواسطة الكمبيوتر، أخرجت قلمًا من صندوقٍ مقفل منذ زمن الفراق، سحبت قلمًا قال لها صاحبه أنه خطّ أوّل رسالة حبٍّ لها بهِ، رفعت الغطاء عنه، وضعته على رأس الصفحة، وكتبت: رسالة إلى غريب.



شمسٌ آفلة

انتزعوها من حضن السيدة أمينة، صرخت على زوجها لينجدها منهم، طلب منها تركها، القانون معهم، فدوى تشدّ بيديها على عنق السيدة أمينة حتى كادت تخنقها، تخال أنها في كابوسٍ لعين، ستصحو منه عمّا قريب، لقد باعها أبوها وقبض الثمن، ما الذي جاء به إلى حلمها؟ أتراه يريد مالًا لئلا يقتحم أحلامها؟ ليدعها تنعم بالأحلام، كم هو ملعون؛ قال أنه سيتخلّى عنها للأبد، وها هو يقتحم نومها، يضرب بعصاه السحريّة فيحيلها إلى كوابيس مفزعة.. أرجوك يا أمي أمينة، أيقظيني من نومي، إنني أرى كابوسًا مرعبًا، الوحش فيه يتنكّر بهيئة أبي، ها هو يمدّ يده ليسرقني، قفي له بالمرصاد، سأموت إن نجح، وصلتني يده، لقد أطبق على فمي، يخشى صراخي، فلربما سمعته وأتيتِ، إنه يخنقني، لا أستطيع التنفّس، أرجوكِ أبعدي يده الآثمة عنّي، ها أنا أعجز عن مقاومته، سأحاول أن أعضّه ليفلتني.

(ساعديني)

رجّت صرختها قلب السيدة أمينة، التي لم تقوَ على حمايتها، استطاع الوحش سرقتها من حضنها، تركها مجروحةً عاجزةً تبكي طفلتها التي لم تُنجبها، احتضنها السيد أحمد، حاول التهوين عليها، أخبرها أنها فعلت ما بوسعها، ولن تكون أرحم بها من أهلها، لن يؤذوها فهم مهما كان أهلها، خارت قواها بعد انتهاء المعركة، قهروها، عرضت على الأب مزيدًا من المال، فرفض، قطعة الأرض التي سيحصل عليها مهرًا لـِفدوى ستباع بمبلغٍ كبير، كانت الصفقة مع السيدة أمينة غير مربحة، ظهر مشترٍ آخر لـِفدوى، سيدفع مبلغًا أكبر بكثير. هزموها، سرقوا طفلتها، هددوها بالقانون، سيتهمونها بالخطف، سيأخذونها إلى مخفر الشرطة، وسيسجنونها مع المجرمين، رفض السيد أحمد ذلك، هو من فعلها، هو الذي شدّ زوجته، أجبرها على إفلات فدوى، ضربته، لكمته في صدره، قالت أنه مثلهم لا يملك مشاعر، لو كان يملكها لدافع عن تلك المسكينة، ظل صامتًا، تركها تُفرغ غضبها في جسده، خاف عليها من الصدمة، صرخت وبكت وفي النهاية.. استسلمت، لن تقوى على ردعهم، إنهم يحتمون بقانونٍ مجحف، لا يأبه بالقلوب، لا تهمّه إلا أوراقٌ مختومة، كانوا يملكون الأوراق، أما قلوبهم.. فصخورٌ صمّاء.

أغلق السيد أحمد الباب خلفهم، رحلوا، أقسم لها أنهما سيزورانها ويطمئنان عليها، كانت تروم أكثر من ذلك، تريد ابنةً تملأ حياتها هناءً وسعادة، وحينما منحها الله البنت التي حلمت بها، خطفتها

الوحوش، سيأكلون جسدها، ولن يخلّفوا منها إلا أشلاء، وهي مثلُ أيّ أمٍّ تريد طفلتها كاملة، خالية من العيوب.

أغلق الباب ففقدت فدوى الأمل، زجرها شرطيّ بصوتٍ أجشّ أرعبها، صرخ فيها لتذهب مع أهلها، نعتها بالجنون.. أأنا المجنونة يا هذا؟ إذن فما قولك فيمن يبيع ابنته؟ فيمن يريد قذفها من فوّهة بركان ليصهر جسدها؟ أأنا المجنونة أم هذه الحياة التي حينما تظنّها تضحك تكون في أعتى نوبات غضبها؟ أنت لا تعلم علام ينوون، لو يقتلونني أرحم لي مما ينوونه، حسنًا، سأذهب معهم، ستأتي السيدة أمينة مرّةً أخرى وتنقذني منهم، لن تسمح لهم بذبحي، ستدفع لهم ما يريدون ليخلوا سبيلي، إنها أمي، وهل تتخلى الأم عن ابنتها؟ أتمنى أن تأتي بسرعة، سينتهي أمري إن لم تفعل، عمّتي خبيثة، ستعجّل بزواجي من خلدون، لماذا أنا من اختارتها دون فتيات الدنيا كلّها؟ أهو قدري؟ أتكون تلك نقطة نهاية حياتي؟ سأتزوّج وأصبح نسخةً مكرورةً من النساء، آهٍ أيتها الحياة المجنونة، كيف انقلبتِ بهذه السرعة، ألم تكوني قبل لحظاتٍ جميلة؟ ما الذي يضيرك لو أنك تركتني أنعم بالسعادة قليلًا؟ أَستكثرتِ عليّ الفرح؟ ألا تعلمين كمّ الحزن في قلبي؟ سأسير معهم أيها الشرطيّ، فأنا ضعيفةٌ لا شيء بيديّ أصنعه.

استقبلتها أمها، احتضنتها، لم تشعر بالأمان مثلما شعرت وهي في حضن السيدة أمينة، تعرف جيّدًا أن أمّها ضعيفة، ترضخ بسهولة،

ولن تدافع عنها، بل ستحاول إقناعها كما فعلت أوّل مرة، ستخبرها أن آخرة الفتاة في بيت زوجها، وخلدون شابٌ طيّب، وستبقى قريبةً منها، وكلّ هذا هراء لا تصدّقه فدوى.

كان كلّ شيءٍ جاهزًا، فور وصولهم جاؤوا بالمأذون، عقد قران فدوى وخلدون، الدخلة ستكون يوم الجمعة القادم، بعد يومين، رقصت فتيات العائلة حولها، صدح صوتُ أمّها بالزغاريد، وهي لا تصدّق ذلك، لا تقبل تصديقه، ستأتي منقذتها وتخلّصها.

جاءت السيدة أمينة في المساء، انتهت حفلة الخطوبة، كانت عيناها منتفختين، والحزن يكسو وجهها المرهق، وجهها الذي فقد بريقه فأعتم، قلبها يكاد يتمزّق، ما إن وصلت باب البيت حتى عادت دموعها تهطل غزيرةً، رجاها السيد أحمد أن تهدأ، إن رأتها فدوى بهذه الحالة، سيزداد ألمها، مسحتها، حاولت التماسك، طرقت الباب فانخلع قلب فدوى، إنها تعرف صاحبة هذه الطرقات، هي موسيقاها التي تثملها، ركضت لتفتح لها، انتصب الوحش أمامها، أمرها أن ترجع إلى مخبئها، لم تعد صغيرةً لتفتح الباب، إنها عروس، وكلّ تصرّفٍ مهما كان صغيرًا، محسوبٌ عليها.

تأمّلت السيدة أمينة أن تأتي فدوى وتفتح لها، تريد أن تُطالع ملامحها السعيدة حين تراها، انشق الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا، ظهر والد فدوى، نظر إليهما، ثم عاد وأغلق الباب، خاطبهما من ورائه

أن ارجعا، لا تأتيا لزيارتنا تارةً أخرى، دعانا وشأننا، لقد أفسدتما حياتنا، لوّثتما شرفنا، انصرفا. غصّت السيدة أمينة بدموعها، وضع السيد أحمد يده على كتفها وأخذها إلى السيارة، جاء صوت فدوى يشقّ الجدران.. لا يا أمي، لا تذهبي أرجوكِ، لقد أجبروني على خطبة خلدون، لم يسألوني رأيي، وافق وكيلي نيابةً عنّي، وبعد يومين سيدخلونني قفصًا، سيحبسونني إلى الأبد، لا، لم أعهدك قاسيةً لتسمحي لهم بذلك، أنتِ التي علمتني معنى الحلم، وأطلعتني على الوجه الجميل للحياة، وها أنتِ بكلّ بساطةٍ ترحلين، ليتني.. ليتني.. ليتني ما عرفتك. اخترق أزيز صوتها قلب السيدة أمينة، أفلتت من السيد أحمد وركضت جهة الباب، طرقته بقوّة، ركلته، تهاوت بجانبه.. نعم يا بنيّة أنا السبب فيما جرى لكِ، معكِ حق، لو تركتك في معاقل الجهل لما لسعتكِ سياط العلم، نوره فتح عينيك على الحقيقة، حقيقة أن بوسعكِ أن تحلمي، أرجوك يا أبا فدوى، خذ ما تشاء وأعطنيها، كلّمه يا أحمد، قل له أنك ستدفع إليه كثيرًا من النقود. كان الأب بجانب الباب يستمع للعرض الذي سيقدّم، فلربما حظي بثروةٍ تفوق تلك التي سيأخذها مقابل قطعة الأرض؛ ولكنّ السيد أحمد لن يمنحه فلسًا واحدًا، سيطالبه بالمزيد أو يتهمه بخطف ابنته، حذّره عقله من مغبّة السير وراء قلب السيدة أمينة الطيّب، والذي سيوردهما موارد الندامة، فلتتألم قليلًا، لا بأس، ستتنساها مع الوقت، إنها مجرّد فتاةٍ غريبة، لا ذنب لي في حمل وزرها، رفض الأب

الانصياع لرجاء السيدة أمينة، لم يسمع عرضًا يغريه بذلك، حمّر لها عينيه، لعلّ السيد أحمد يرأف بها، سألها أن ترحل، فقد تسببت لهم بفضيحةٍ في الحارة، أقسم على أن يطلب الشرطة إن لم تفعل، جاء السيد أحمد، حملها بين يديه، كانت خفيفة، وكأنها خسرت نصف وزنها، وضعها في السيارة، وقادها بعيدًا عن مشاكل هما في غنىً عنها.

شعر الأب بالهزيمة، هرع إلى فدوى التي ارتفع صراخها مستنجدةً بآخر أملٍ لها، وصبّ عليها جامّ غضبه، انهال عليها بالضرب حتى تعب، تركها تسبح في دمها ووجعها، صمتت، مضمرةً نيّةَ السكوت إلى الأبد.

بحرٌ مفقود

أيقظهم عدنان باكرًا، لحقوا به إلى ساحة التدريب، اكتملوا، كانوا عشرين عنصرًا، اصطفوا في طابورين، خليطٌ عجيب، وجوهٌ جاءت من بلادٍ شتى، التقوا في هذه البقعة، يسعون خلف أهدافٍ عديدة: المال، السلطة، الرغبة في القتل، حب المغامرة.

خاطبهم عدنان بلسانٍ يختلف عن الذي قابلهم به، أخبرهم أنهم منذ الآن جنود، وتجب عليهم طاعة التعليمات، لا نقاش فيها، تنفّذ ولا تناقش، يقول كلامه بالعربيّة ثم يعيده رجلٌ آخر بالإنجليزية، إنهم المجموعة الجديدة التي سيشرف على تدريبها، يملك خبرةً كبيرةً في هذا المجال، فقد درّب سنواتٍ طويلة في الجيش حتى تلقى عرضًا لا يُقاوم؛ ألف دولارٍ في اليوم ولا شأن لك بالقتال، وافق فورًا، المسؤولون عن تجنيد العناصر المهمّة يختارونهم بحرصٍ شديد، يدرسون أوضاعهم، ويبحثون عن أدقّ تفاصيل حياتهم ثم يفاتحونهم بالأمر.

عدنان كان وحيدًا، مات أبواه بعد أن هرما، وتزوّج إخوته وأخواته، وبقي هو، عاش معدمًا وهو في الجيش، ليس له إلا معاشٌ قليل يقبضه كلّ آخر شهر، وكثيرًا ما يجده منقوصًا؛ لكثرة المخالفات التي يرتكبها، وذات يوم وفي قمّة غضبه حدّثه صديقه إبراهيم بالأمر، ظنّها دعابةً من دعابات صديقه الظريف المعروف بخبله في الكتيبة، أعطاه عنوانًا وسأله الذهاب إليه في حال غيّر رأيه، دفعته الحاجة والفضول للذهاب، ولما وصل التقى رجلًا وشرح له ماهيّة العمل والمقابل، وافق، فحمله من فوره وعرّفه على أحد العناصر الإداريّة في التنظيم، فرح به أيّما فرح، إنه بمثابة صيدٍ ثمين، جندوه في الحال، وألحقوه بواحدة من البؤر التي يسيطرون عليها.

استمرّ التدريب ساعتين متواصلتين، منحهم عدنان استراحةً لتناول الفطور ومن ثمّ العودة إلى الميدان، أنهكهم تمامًا؛ داروا حول الميدان الواسع عشر دوراتٍ جريًا، بعدها قاموا بتمارين إطالة، جاء بعدها الدور على تمارين الزحف، وأخيرًا تمارين الضغط والمعدة. كاد يغمى على حمدان، أما حمزة فتحامل على تعبه، أبى أن يترك لديهم انطباعًا يعكس ضعفه.. الأفارقة كانوا الأكثر قدرةً على الاحتمال، أما ذوو الوجوه الناعمة، مع أنهم يخضعون للتدريب قبلهم، فإن التعب نال منهم بسرعة.

دلفوا إلى صالة واسعة، فيها مناضد ومقاعد بلاستيكية، اقتحمت أنوفهم رائحة الطعام، أشار إليهم الطاهي، جلب كلٌّ منهم فطوره

ورجع، حاول بعضهم محادثتهما، غير أنهما لم يفهما ما يقولونه، حدّثهم واحدٌ منهم بعربيّةٍ ركيكة، سألهما من أين جاءا، قالا أنهما من الأردن، أما هو فمن أوغندا، أتى برفقة أربعة من هناك، أشار إليهم، واثنان من أفريقيا الوسطى، وخمسة من الكونغو، وثلاثة من ليبيريا، واثنان من إنجلترا، وواحد من أمريكا والأخير من السويد.

لم يعرف حمزة من الدول سوى أمريكا وإنجلترا، سمع هذين الاسمين كثيرًا، أما بقية الدول فكانت مجهولةً، انشغلوا بتناول الطعام، ليس أمامهم إلا عشر دقائق، ضاع خمسٌ منها في التعارف، وقف عدنان على باب الصالة، صرخ بصوتٍ أجش:

(انتهى وقت الاستراحة)

خرجوا إلى الميدان مجددًا، تدرّبوا هذه المرّة على استعمال الأسلحة الناريّة، الجدد على المسدسات الخفيفة، أما الأقدم فعلى أسلحة أوتوماتيكيّة أكثر تطوّرًا.. حمزة المتلهّف للتعلّم بسرعة؛ أبدى تفوقًا مدهشًا، أعلم عدنان الزعيم بذلك في المساء، أخبره أن هذا الفتى سيصبح ذا شأنٍ عظيم.

غربت شمس اليوم الأول، ثمة سعادةٌ غامضة سكنت قلب حمزة، شعر أنه أخيرًا عثر على نفسه، لقد خُلق للقتال لا لشيءٍ آخر.. سأصير زعيمًا، ذلك قدري، إنني أملك كلّ ما يؤهلني لذلك، سأتحمل في سبيل ذلك التعب والكدّ، لن يرفضني أحدٌ بعد الآن؛

السلطة والقوّة سيعطيانني ما أصبو إليه، لقد ولدتُ اليوم، حياتي الماضية لم تكن أكثر من مجرّد هباء، لكن لا بأس، سأعوّض ذلك، عليّ أن أخلد للراحة الآن كي أصحو نشيطًا، سمعتُ أنهم يختارون قادةً للمجموعات من المميزين في التدريب، إنها فرصةٌ مواتية، الأفارقة أقوياء ذلك صحيح، بيد أنهم لا يملكون دهائي ومكري، أنا الأجدر بالقيادة وسأبرهن لهم على ذلك.

في اليوم التالي حضر الزعيم إلى الميدان، راقب التدريبات عن قرب، غادر ثم عاد برفقة رجلٍ مكبّل بالقيود، ورأسه مغطى بكيسٍ أسود، نادى عدنان، همس إليه بشيء، هزّ رأسه، جرّ الرجل المكبّل إلى وسط الميدان.

(هذا أحد الخونة وقد حكم عليه الزعيم بالموت، من منكم مستعدٌ لقتله؟)

تراجعوا جميعًا للخلف، باستثناء حمزة، حدس أنه اختبارٌ مباشرٌ من الزعيم، تقدّم وأشار بيده.

(أأنت متأكد؟)

سأله عدنان، فأجاب أن نعم، اقترب منه، وضع بيده مسدّسًا، أمره بالإطلاق على رأسه مباشرةً، اقترب منه حمزة، سمع حشرجة صدر الضحيّة، وكأنّ عاصفةً من خوفٍ تجيش فيه، زرع المسدس في رأسه،

شهق الرجل، بدا أنه مكمم الفم، أطبق الصمت على المكان، لا شيء سوى صوت صدر الضحيّة وهو يعلو ويهبط، نظر حمزة إلى الزعيم نظرةً ملؤها التحدي، وضغط على الزناد بلا تردد، دوّى صوت الرصاصة لاعنًا المكان بغضب، تناثر رأس الضحيّة، ابتسم الزعيم، أما حمزة، فاجتاحته رعدةٌ لم يعلم ما هو مصدرها.



-٢٧-

هوَ

ما هو السبب في تمرّد هذا الجيل؟ هذا الجيل الذي أربك حسابات العالم، هو واحدٌ من مجانين هذا العصر، خرج عن قوانين البيت، مثلما خرج نظراؤه عن قواعد صيغت لهم، كسروها، كان لا بدّ من ذلك، إنها قواعد مجحفة لم تأخذ بالحسبان جنون الإنسان، ذلك الجنون الذي يظهر وقت الأزمات والشدّة، وهو أيضًا جنّ، رفض الانصياع لأوامر لا تُطاق.

لم يُدرك والده أن الزمن يتغيّر، وأن لكل زمان حاجاتٍ تختلف عن الذي سبقه، أراد أن يبقيه طفلًا صغيرًا، هو القائم على شؤونه، الراسم لتفاصيل يومه، واضع الخطوط التي يجب السير عليها، وإلا صرتَ عاقًّا.. لا، أنا لي حياتي المختلفة، لا أحد يستطيع إجباري على تكرار حياته، لم أخلق لأعيش في الماضي، بل لأحيا الحاضر وأبني المستقبل.

حمل درب طريقه وعاد إلى عمّان، حيث وُلد حقًّا، هذه المرّة لن ينتظر حسنة أبيه، لا، بات الآن موظّفًا له معاشه الخاص، يقبض آخر الشهر مبلغًا يقيه كلمات التذمّر ونظرات المنّة. وجد بيتًا محترمًا، ليس كذلك الذي كان مجبرًا على الإقامة فيه، القابع في الدرك الأسفل من القذارة، الخالي من أدنى أسس العيش الكريم، هذه المرّة سيقطن بيتًا مع ثلاثة آخرين، ثلاثة فقط وليس عشرة، سيحظى بمساحة أوسع وخصوصيّة أكبر، سيجد حيّزًا ينام فيه حين يرجع متعبًا، لن يُضطرّ للنوم بجانبٍ أحدهم مرغمًا، لن يتنازل عن أشياء ضروريّة كما حدث دائمًا، سيأكل وجبتين على الأقل، وسيشتري شامبو ليغسل شعره، ومعجون أسنان لينظّف أسنانه، سيعتني بنفسه جيّدًا، إنه معاشٌ قليل؛ ولكنه سيحميه من كسرة النفس التي قاساها حينما كان يسأل أحد أصدقائه أو صاحب المتجر المجاور لبيته شيئًا ويردّه خائبًا، كم كانت أيامًا قاسية، وكم سحّت دموعه المقهورة على وجنتيه، الآن يملك عملًا يمنحه حقًّا شرعيًّا ليحلم.

اشترى سريرًا وغطاءً جديدين، ومكتبًا صغيرًا، وهاتفًا جديدًا مزوّدًا بكاميرا، كانت تلوح أمامه وجوه إخوته وأمه كلما أنفق دينارًا.. ولكن ما هو ذنبي؟ من قال لهم ألاّ يخططوا لحياتهم؟ لماذا لم ينظّموا نسلهم؟ إنهم معدمون، وأكثر من ينجب هم المعدمون، أية معادلةٍ هذه؟ الفقراء هم أولى الناس بتنظيم نسلهم، إلا أنهم لا يفعلون، بل على النقيض من ذلك، يدعون السيل يتدفّق بلا حساب، ثمّ ينتظرون الفرج، لستُ أنا من وضعكم في هذا المأزق، وحاولتُ إعانتكم بما أستطيع، غير أن أباكم يريد القضاء على مستقبلي، يبغي مسخي على مقاس أحلامه، لا، لن أرضى بذلك، أنا آسف، ولكنّ هذا لمصلحتي

ومصلحتكم، يومًا سأصير غنيًّا وحينها سأمدّ إليكم يد العون، أما الآن فلا، أنا مضطرٌ للالتفات لنفسي.

ظلّت تؤرّقه مشكلة التنقّل من عمّان إلى مركز عمله البعيد، يمضي من وقته ساعةً ونصف حتى يصل المدرسة القابعة في قريةٍ نائية في شمال الأردن، قريةٌ تدعى (السفينة) وهي إحدى قرىً عجلون المنسيّة، قرية وادعة، سكّانها طيبون جدًا، من القلائل الذين ما زالوا يحافظون على حياتهم البسيطة الجميلة، يربّون الماشية ويعتنون بالأشجار أيّما عناية، يعيشون في بيوتٍ بسيطة، أغلب شباب القرية يلتحقون بالجيش، أما الفتيات، فيجلسن في البيت بانتظار نصيبهن، أحبّ بساطة هذه البلدة، ذكّرته بقريته قبل عشرين سنة، لا يعلم لماذا نمَت قريتهم بتلك السرعة؟ ربما لوجود عددٍ كبير من المتعلّمين فيها، لعلّهم كانوا السبب في نقل المدنيّة إلى قريته، ولكن لمَ؟ ما الذي حدا بالناس ليتخلّوا عن طبيعتهم؟ أكان عبثًا أن خُلقوا مزارعين؟ لماذا نزعوا رداءهم ولبسوا ثوبًا فضفاضًا جلب لهم الفقر والدَّيْن؟

ساعة ونصف ذهابًا وساعة ونصف إيابًا، ثلاث ساعاتٍ يقضيها في الحافلة، في البداية كان يصاب بالإعياء والصداعٍ، ثم قرر استغلال هذه الساعات بعد أن اعتاد الطريق واعتادته، صار يقرأ طوال الرحلة، آب إلى عالم المطالعة بعد أن كادت تغتالها يدُ الفقر الطائلة، افتقد المكتبة كثيرًا، هجرها مرغمًا بعد تخرّجه في الجامعة، المكتبة التي احتوت أحلامه وخجله وخوفه، الوحيدة التي فهمته حقًّا، عرفت حاجته وقضتها، المكتبة التي صقلت شخصيّته وأمدّته بأفكارٍ احتفظ بها إلى أجل، ها هو يعود مشتاقًا ولِهًا، خصص جزءًا من معاشه للكتب، طالما حلم بتأسيس مكتبةٍ ضخمة، الكتب الجيّدة التي كان يعيدها إلى مكتبة الجامعة بعد قراءتها، تخلّف في نفسه حزنًا

شديدًا، يتمنى لو يستطيع الاحتفاظ بها، يشعر كأنه يفارق عزيزًا حينما يركنها في الرفّ المخصص، يلمسه، وكأنه يصافحه مصافحة الوداع.

أحلامه الصغيرة تتحقّق، بقي الحلم الأكبر، الالتحاق بالجامعة مجدّدًا ليكمل دراسة الماجستير والدكتوراه، تلزمه سنةٌ كاملة ليفعل ذلك، سيجمع القسط الأول، الدراسة مكلفة جدًّا في الأردن.. لا بأس، فحلمي يستحق ذلك، سأرجع إلى القرية دكتورًا وسأحصل على وظيفة مرموقة في إحدى الجامعات بمعاش ضخم، لن أرجع إلى الفقر مهما حصل، سأطرده من حياتي، إنه صديقٌ سيئ؛ يحرمك الراحة، يزرع في نفسك عقدةَ الخوف، ويترك منك جبانًا ينزوي في ركن قصيّ؛ لئلا يشير إليه أحد قائلًا: ذلك فقير مسكين.

أصبح الفقر عارًا في زمننا الحاضر، ألم يقل الشاعر:

يمشي الفقير وكل شيء ضده

والناس تغلق دونه أبوابها

وتراه مبغوضًا وليس بمذنب

ويرى العداوة لا يرى أسبابها

حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة

خضعت لديه وحركت أذنابها

وإذا رأت يومًا فقيرًا عابرًا

نبحت عليه وكشرت أنيابها

يقال إن هذه الأبيات للشافعي، أو ربما للعباس بن الأحنف، وكلاهما عاش في زمنٍ بعيد، أية قصيدةٍ كانا سينظمانها لو عاصرا ما نحنُ فيه؟!

لن يتخلى الله عن صاحب حلم يفعل كلّ ما في وسعه لتحقيقه، حين تسدّ في وجهه الدروب، يبعث إليهً فرجًا يقول: لا تخف، لقد فعلت ما في وسعك، والآن تستحق هذه الهديّة، كم من الهدايا حصلنا عليها في أحلك ساعات الظلام؟

مُنح هديّةً مميّزة، قرأ خبرًا على الفيسبوك، يعلن عن حاجة واحدة من الجمعيّات التي تعنى بذوي الحاجات الخاصة، إلى منتدبين من وزارة التربية والتعليم، الهديّة كانت أن الجمعيّة تقع في العاصمة عمّان، ستنتهي مشكلة المواصلات، وسيوفّر الأجرة التي يدفعها، إضافة إلى منحها من يلتحق بها مائة دينار فوق المعاش.

تيسّرت الأمور، أخذ موافقةً من الوزارة، وفي ليلةٍ وضحاها فُرِجت، لم يدر بخلده أن بانتظاره هديّة حياته.. أسماء.



-٢٨-



رسالة إلى غريب:

سلامٌ على قلبك أيها الغريب.. يا من زعزعت كياني، يا من هربتُ منك ولا يلبث طيفك يلاحقني مثل مرآة لا فكاك من النظر إليها، لماذا تصرّ على تكرار المشاهد الأشدّ ألمًا؟ إليك عنّي فأنا مرهقة، أضناني العشق، اغتال قلبي الهش بلا رحمة، أنا مجروحةٌ أيها الغريب، وجرحي لم يزل طريًّا، يأبى الشفاء، تركني من أحببته أيها الغريب، تركني ملتاعة ورحل، لم يأبه بأنين قلبي المشنوق.. لم يأبه.

... كنتُ قد نسيته، أوهمتُ نفسي أنني نسيته، فما الذي جاء بك لتقول إنكِ كاذبة؟! لم ولن تنسي، وهل ينسى المقتول قاتله؟ نعم، لم أنسَ، ولكنني عشتُ بعد موتي، رضيتُ بمصيري، دخلتُ الأرض الجديدة وسرتُ مع السائرين، التفتُّ طويلًا إلى الوراء، لم أره، قررتُ أن أمضي مع جحافل التائهين، ضمّدتُ جراح قلبي واعتدت، رأيتُ

قلوبًا تحمل أوجاعًا تفوق أوجاعي ولا تشتكي، ملّت الشكوى، لا أحد يسمع.. لا أحد أيها الغريب.

إنني مجنونة أيها الغريب، أعرف أنك متأكدٌ من ذلك، أيوجد في الحياة من أصابه العشق وظلّ عاقلًا؟ حينها لا يكون عاشقًا، لا يصحّ أن يكون، فقدتُ عقلي على آخر درجة من درجات الحب؛ درجة الفراق، هويتُ من فوقها متقهقرةً إلى الأسفل فارتطم رأسي بأرض النوى، كان سقوطًا مدوّيًا أيها الغريب، سلبتني قوّته عقلي، جننت.. جننتُ أيها الغريب.

... قادني جنوني مرّةً أخرى إلى مصيدة الذاكرة، كنتُ سددتُ بابها وألقيتهُ في جبّ الحياة العميق، سلوته هناك ومضيت، ركبتُ قارب النجاة، قارب الحياة وقررتُ أن أعيش، مجروحةٌ لا بأس، مغدورة لا بأس، مقتولة لا بأس، رأيتُ موتى الحبّ يسيرون في شعب الحياة، وجوههم متبلّدة، لا يفرحون، لا يتألمون، فقط يعيشون، فعشت.. عشتُ أيها الغريب.

ومضت الأيام على هذه الحال، بدأ الفرح يتسلّل إليّ رويدًا رويدًا، وذات مرّة كدتُ أن أضحك، أتصدّق؟ ارتسمت على شفتيّ ابتسامةٌ عذبة، خيل إليّ أنني أحلم، عدوتُ بسرعةٍ إلى المرآة، ولما رأيتُ بريق الحزن الممض في عينيّ، امّحت الابتسامة، وقتئذ راودني الأمل، فلربما كانت تلك رسالة مفادها أن استعدّي، فثمة فيَّ أيامك القادمة فرح، تأملتُ.. أتدري ما الذي يعنيه الأمل للقلوب المجروحة أيها الغريب؟

... الأمل أيها الغريب مثل غريق لا يجد ما يُمسك به إلا خيط مصيص، يشدّ فتتقرّح يداه، يتألم جدًا، بيد أنه لا يستطيع إفلاته، يقولون إن الأمل جميلٌ أيها الغريب، ولكن أولو كانت حياتنا جميلة،

أكنّا سنحتاجُ إلى الأمل؟ ذوو الحياة الجميلة لا وقت لديهم للأمل، إنهم يعيشون فقط، أما نحن أيها الغريب، فلأننا لا نمارس العيش، نمسك بخيط المصيص.. انظر، انظر.. لقد أدمى يديّ أيها الغريب.

أيّ قوّة تسكنك أيها الغريب؟ ما الذي يدفعني للتفكير فيك؟ يهيأ إليّ أننا التقينا في زمن سابق، أحدث هذا؟ لا أعلم، ثمة إحساسٌ غامض كغموضك يشدُّني إليك، يعيدني لتلك الدقائق القليلة، والكلمات الشحيحة، والنظرات التائهة، والخفقات المضطربة، كانت مجرّد رحلة سريعة، مثل حلم جميل، صحونا منه، كان حلمًا سحريًّا، أصابتني لعنةٌ سحره، انقلبتْ حياتي إلى حلم لا فكاك منه.. أتراني ما زلتُ أحلم.. أخبرني أيها الغريب؟

... أخشى الجرح أيها الغريب؛ لذلك أهرب، هذه المرّة لا شفاء يرجى، جرحان في القلب يقتلان، ولن تكون ميتةً كالأولى، لا مكان لي في أرض أموات العشق، ولا أعلم إلى أين، أتراك تعلم أيها الغريب؟ خبّرني بالله، إلى أين سيودي الجرحان بالقلب؟ الجرح الأول مسخني وقتًا غير قصير، فقدتُ نفسي، ضاعت مني، لم أعد أنا، مُسخت، سكنتني الكراهية، كرهتُ كلّ شيء، كرهتُ نفسي القديمة، ونفسي الجديدة، تُهت، بحثتُ عنّي طويلًا، أين أنا؟ من هذه التي تقطنني؟ وإلى الآن أيها الغريب، يراودني ذات السؤال.. من هذه الغريبة التي احتلّتني؟ أجبني.. بالله أجبني أيها الغريب إذا عرفت.

حاولوا مساعدتي أيها الغريب، لم يفلحوا، عجزوا عن ترحيلها، تشبّثت بي بقوّة، أقسمت على ألّا تفارقني، وأبرّت.. ضربوها بالسياط، قرأوا عليها التعاويذ، سكبوا عليها ماءً مرقيًّا، سقوها سمًّا، ما برحت مكانها، أعجزتهم قوّتها، أسِفوا لحالي، قالوا أن عليّ المقاومة، لا يجب

أن أسمح لها بهزيمتي، أنا وحدي الخاسرة إن فعلَت، كنتُ ضعيفةً أيها الغريب، يكون الإنسان في أشدّ حالات الوهن حين يفارقه الحب.. وأنا مثل ريشةٍ في مهبّ الريح، تطوّحني كيفما تشاء، سُرقت منّي قوّتي، انهال سقف حلمي فوق رأسي، وتحت الأنقاض مكثت، خرجتُ جريحةً بعد إصابتي بشظايا حلم انفجر على حين غرّة، أوتدري أي دمارٍ يخلّفه انفجار الأحلام؟ ترَكوني وحيدةً أيها الغريب.. فلماذا فعلت؟

... أحتاجك وأخشاك أيها الغريب، أخاف عليّ وعليك، شهوتي للانتقام قد تكون أنت ضحيّتها، وتوقي للحب الجارف قد تكون أنت الفائز فيه، لا أعلم ما هو نصيبك، وأية فتاة تلك التي ستتصدى لك، من ستخرج منّي: المُحبّة أم الحاقدة.. ثم أحتاجك، تلك هي الحقيقة، أنا بمسيس الحاجة إليك، يقول قلبي أنك سترممه، يُقسم بذلك، نصفي يكذّبه، ونصفي الآخر يريد أن يصدّقه بشدّة.. أترى كم أنا ممزّقة؟ أيقوى حبّك على لزقي لأعود قطعةً واحدة؟ لا أظن ذلك، التدمير سهلٌ جدًا.. أما البناء فكم هو صعب، تعرف ذلك أيها الغريب، في شيء يقسم أنك ضحيّةٌ مثلي، ممزّقٌ آخر يبحث عمّن يلزقه، رأيتُ هالة الحبّ التي تحيط بأجساد موتاه تطوّقك، لعلّها هيَ التي جذبتني إليك، قصّ عليّ قصّتك أيها الغريب.. أعرف لماذا تأبى، يرعبك عدم الاكتراث، تلك البسمة الهازئةُ بك، قولهم يا لك من أحمق، أظلّ في هذه الدنيا عشّاق، لقد فنوا، لم يعد الآن إلا علاقات عابرة، تولد وتموت صغيرة، لا تعمّر، علاقات سريعة مثل هذا العصر.. يا لك من غبيّ، الناس جمّدت قلوبها، لا مكان للقلوب وأهوائها، دعك من هذا، أحبَّ مرّةً واثنتين وعشرًا، أحبَّ كل من تستطيع، الحب كثير، فانتق منه ما تشاء.. لا أيها الغريب، ثمة أناسٌ لم ييأسوا بعد، يحلمون بحبٍّ مجنون جامح، لا يخضع لقانون أو سلطة، حبٍّ متمرّد، حبٍّ ينجو من

المكائد الكثيرة في طريقه، يتخطاها واصلًا برّ الأمان، برّ الأمان الذي لم أعرفه أيها الغريب، هل وصلتَه يومًا؟ أحطّت قدماك فوق شاطئه؟ كيف يبدو؟ باللّه دلّني عليه، خذني إليه.. فأنا متعبة أيها الغريب.. متعبة.

هيا، أنا هنا بحاجتك، وأنت هناك بحاجتي، اقترب، تعال نطبّب جروحنا، أو نزيدها عمقًا وينتهي الأمر، ها أنا بكامل إرادتي أقرر: أنا مستعدةٌ لدخول تجربةٍ جامحةٍ أخرى..

الرسالة الأولى إلى:

غريبٍ التقيته صدفةً في سينما نوفو.



شمسٌ آفلة

زفّوها إلى خلدون، ذلك الأبله صار زوجها، قتلوها بدمٍ بارد، قتلوها ورقصوا في جنازتها، أدخلوها سجنها الجديد، جاء خلدون المتعلّق بذراع أمّه، همست في أذنه ثم أغلقت عليهما الباب.. هيا فلتشرب من دمي، هأنذي جثّةٌ ترتدي الأبيض، هلمّ، خذ حقّك من جسدي، لقد دفعتَ ثمن هذا الجسد فاجتزّ منه ما تشاء، لن أشكو، ذلك قدري، أنت الآن الحاكم الناهي الجديد في أمري، اقضِ ما تراه مناسبًا، آه نسيتُ أنك مخبولٌ لا تصلح للقضاء، إذن، نفّذ ما علّموك إياه، هل حفظتَ ما لقّنوك، أم تراك نسيت؟ اقترب، ادنُ من جثّتي، لن أدافع عن نفسي، أهناك جثّةٌ تفعل؟ قلّبها كيفما تحب، ارفعها، اخفضها، اصفعها، إنها منذ اليوم ملكك، ما بك ترتعد؟ أهددوك؟ إن لم تنجح ستفضحنا، أهذا ما قالوه لك؟ أنا ما عدتُ أكترث، أنا في انتظار سكينك، اشحذه جيّدًا لتنال أكبر حصّةٍ من جسدي، ما بك تبكي

كالأطفال؛ تخشى أن أفشي سرّك، لا، لن أفعل، اخترتُ البقاء صامتةً إلى الأبد، لن أفتح فمي، إنني بكماء.

حاول خلدون استذكار ما علّمته إياه أمّه، اقترب من فدوى، وبعد بضع محاولات فشل، لم يدرِ ما يفعل، خرج من الغرفة، ذهب إلى أمّه، أخبرها بما جرى، عنّفته بكلامٍ قاسٍ.. أنت أحمق، هل أنت فتاة وأنا لا أعلم؟ الرجال يموتون لأجل هذه الليلة، إنها زوجتك، ولك الحق فيها، ليس فيما ستفعله حرج، اسمع، سأعيد ما قلته لك سابقًا، احفظه جيّدًا، إياك أن تنساه.

أنهت كلامها معه، جاء دور فدوى، أمرتها بالتزام الأدب والتوقّف عن تخويف ابنها، سألتها لماذا تمنعه من الاقتراب منها، أهناك سرٌّ تخشى أن يطّلع عليه؟ لعلّكِ أخطأتِ مع أحدهم، طوال عمرك وأنتِ تلعبين مع الفتيان، ربما صنعوا بكِ شيئًا، أخبريني إن كان حدث، سأسترك ولن أبوح بأمرك لأحد، مهما كان أنتِ ابنة أخي وزوجة ابني، ظلت فدوى صامتة، كتمت ألمها، ازدردته بحوافه الحادّة، شخب الدم في داخلها، خنقها، كان يدافع ليخرج من فيها، ليصفع وجه هذه العجوز الآثمة، هذه العجوز التي سرقت حياة طفلةٍ ومستقبلها، أجبرته على المكوث في جوفها، ولم تُجب.

عمّتها صيتة ليست سهلة، إنها حادة الذكاء، كانت تدفعها بخبث لتثبت أنها عذراء، لم يمسسها أحد من قبل، فذلك سيسهّل

مهمّة خلدون، غير أن فدوى لم تأبه لكلامها، بل ودّت لو أنها تؤكد وساوسها.. أجل، لقد نمتُ مع كثيرين، إنني لا أصلح زوجةً لابنك الطاهر، دعيه يطلّقني، يعطيني حرّيتي، يعيد إليّ أحلامي، يمنحني الفرصة لأكمل طريقي، إنني فاجرة لا تصلح للزواج، وهناك كثيراتُ أشرف منّي، انتقي منهنّ من تشائين، أما أنا، فلستُ أكثر من مجرّد باغية، أتقبلين بباغية زوجةً لابنك الشريف؟

ولكن مغبّة مثل هذا الحديث وخيمة، نهايته الموت المحتوم، سيثأرون لشرفهم، حتى ولو لمجرّد كذبة، سيطهّرون شرفهم الذي دنّسته بالسكاكين، سيغسلون عارهم بدمها، دمها الوحيد الذي يملك القوّة لتطهيره، وهيَ تخشى الموت، ما زالت صغيرةً عليه، تريد أن تعيش، يراودها الأمل في فرجٍ قريب، أو بعيد لا ضير، المهم أن يجيء الفرج.

أقسمت ألّا تتكلّم، ولن تحنث بقسمها، لم يسعفها الحديث، لا أحد يهتم بكلماتها الضعيفة، خذلتها الكلمات، لم تُنجها من كيدهم، إذن فلتجرّب الصمت، فلربما نجح فيما فشل فيه الكلام، أغضب صمتها عمّتها، سألتها لمَ هي صامتة؟ أتظنّ نفسها خيرًا منهم؟ علام تتكبرين؟ احمدي ربّك أن وجدتِ زوجًا يسترك، ساعديه في الأمر وإلا أخبرتُ أباك بالأمر، تعلمين ما الذي سيحدث إن وصله نبأ فجور ابنته، تخيلي أيضًا سماع إخوتك حين يخرجون من سجنهم بذلك، يا إلهي، سيقطّعونك إربًا، أنتِ خير من يعرف معنى غضبهم.

ذهبت عمّتها وجاءت بِـخلدون، دفعته دفعًا إلى السرير.. أمامكما ساعة، وبعدها سيحدث ما لا يُحمد عقباه.

اجتهد خلدون لإنجاح الأمر، حاول وحاول إلا أنه فشل مجددًا، ضحكت فدوى، من يرى هذا الجسد يظنّه قويًّا جامحًا، لكنّ الجسد مهما بلغت قوّته سيظلّ ضعيفًا دون عقل، خلدون معروف بالبلاهة، كانوا يُذهلون، كيف يملك مثل هذه الجثّة ويخاف من أشياء صغيرة لا تثير الذعر في طفلٍ صغير، طريقته غير المفهومة في الحديث، مشيته التي تهيئ للرائي أنه أمام جبلٍ أشم، ضحكه المفرط على أشياء لا تُضحك وفي مواقف تتطلّب الجدّ، تحكّم الأطفال الأصغر منه سنًّا به وتحريكه ذات اليمين وذات الشمال، توجيهه للإتيان بأفعالٍ لا يأتيها عاقل، من أمامها هو نفسه ذلك الطفل، ما زال على حاله لم يكبر، لا شيء تغيّر فيه، فشِلت العسكريّة في تحسين شخصيّته، هو ذلك الأبله الذي لا يستطيع فعل شيء دون توجيه أمّه.

ربما تكون أمّه هي التي أوصلته لهذا، تحكّمها الزائد، تقريعه أمام الآخرين، إجباره على تنظيف البيت والجلي والغسيل وسط ضحك الجميع، لسنا في مجتمعٍ متحضّرٍ يرضى للذكر مثل هذه الأعمال، بل يعدّها نقيصةً توجب السخرية، ولكثرة ما سخروا منه دون وجود من يذود عنه ويُفهمه أن الخلل في المجتمع لا فيه؛ بزغت في داخله شخصيّةٌ مضطربةُ الهويّة، حائرة، متردّدة، خائفة، غير قادرة على

تقرير مصيرها من أصغر الأمور إلى أكبرها، ويريدونه فجأةً أن يصير رجلًا، يقوى على...

خرج غضبان، حتى غضبه مُضحك، زمجر بكلامٍ غير مفهوم، مذ اختلى بِفدوى لم يكلّمها، يتحاشى النظر في عينيها، وحين يهمّ بتقبيلها يُغمض عينيه. ضربت أمّه كفًّا بكف، قرّعته، عنّفته، قذفته بأقذع الصفات، اتهمته بأنه ليس رجلًا، جلبت إليه كأسًا أخرى من الزنجبيل.. لقد أطعمتك جوزًا ولوزًا يكفيان عشرة رجال، وسقيتك برميلًا من الزعفران وآخر من الزنجبيل، لا تحرق قلبي، لا تدعني أغضب عليك، لا تفضحني وسط الناس، إذا لم تحمل زوجتك خلال شهر، سنصبح علكةً في فم الناس، لن يرحمونا، إياك أن تشمتهم بي، اشرب اشرب، كيف تشعر الآن؟ قال أنه بخير.

لن ينجح دون مساعدتها، هو هكذا دائمًا لا يفلح في شيء ما لم تكن بجانبه، اقتادته إلى الغرفة، صكّت الباب، وظلّت في الداخل.. سأشهد دخلتكما، إنه ولدي وأنتِ ابنة أخي يعني ابنتي، ليس عيبًا أو حرامًا، خلدون خائف قليلًا، تعلمين أنه متعلّقٌ بي جدًا، ولا يقدر على فعل شيء دون مساعدتي، لن أزعجكما سأجلس هنا فقط.

أشارت برأسها إلى خلدون أن ينقضّ على فريسته، زاد خوفه، فشله هذه المرّة سيجلب له الويل، سيسمع كلامًا موجعًا، وربما تضربه أمام فدوى فتسخر منه، احتار ماذا يفعل، تردّد، وبعد لأي

مدّ يده إلى الغطاء الذي تستر فدوى به جسدها، لم تقاوم، أرادت أن تثبت لعمّتها أن الخلل في ابنها الأبله لا بها. نظر خلدون إلى أمه وكأنه يستنجد بها لترشده إلى الخطوة التالية، ثارت ثائرتها، لن تنتظر حتى يوم الدين، ضاق صدرها، نهضت، أمسكت جسد فدوى، ثم صرخت عليه كي ينهي الأمر بسرعة.



جرحٌ مفقود

حين تريق أول دمٍ تذوب نصف إنسانيتك، ينبتُ بدلًا منها نصفُ وحش، وحينها لن تنال الراحة، سينشب بينكما صراعٌ دائم، كلّ طرفٍ يشدّ الآخر إلى جانبه، تظهر آثار هذا القتال الشرس في النفس، وكلّ نفسٍ بحسب طاقتها، الأكثر قوّة تحتمل، تُصاب بكدماتٍ ليست بسيطة، تخلّف الإنسان بين عالمين، أحيانًا في هذا العالم، وأخرى في عالمٍ مختلف، ليس فيه إلا الألم والحرقة والندم.. أما الأنفس الأضعف، فتنهار، تجنّ تمامًا، تفقد عقلها إلى الأبد.

حمزة كان من النوع الأول، يملكُ نفسًا قويّة، خدّرتها الذنوب والشهوة، وفي فترات فتور مفعول المخدّر، يبرز الألم الشديد، موجةٌ عاتيةٌ من خوفٍ ورعب، صوتُ الرصاصة كأنه دويّ قنبلةٍ انفجرت في رأسه، مشهد الرأس المتناثر، مثل طوفانٍ من دمٍ يقترب ويقترب

ليبتلعه، حشرجة الخوف في صدر الضحيّة، كطنينٍ يلازم أذنيه، سقوط الجثّة فوق الرمال، وكأنه سقفٌ يهوي من أعلى على رأسه.

حين ضغط على الزناد، شعر بجزءٍ منه يتسرّب من فوّهة المسدّس، طار مع الرصاصة، اختلط بالدماء، ثم بالتراب، دُفِن هناك، مدّ يده لإخراجه، فات الأوان، غار بعيدًا بسرعة، خارت قواه عقب سقوط الضحيّة، اجتاحته رعدةٌ قويّة، خشي من السقوط، سيذهب ما فعله هباءً إن سقط، غصب نفسه وتماسك، تركه الزعيم في تلك المعركة، وجهًا لوجه مع ضحيّته، هذا الجسد الذي سرق حياته بضغطةٍ واحدة، أراد أن يميت قلبه بسرعة، وحينما أحسّ بأنه لم يعد يطيق ذلك، ناداه.

جفل حمزة، أرعبه الصوت الذي دعاه وكأنه طلقة مدفع في غرفةٍ معزولة، هيئ إليه أن شبحًا غادر الجثة ولبسه، هزّ جسده ليبعده عنه، خبّ نحو الزعيم، فبالتأكيد سيطرد الشبح عنه، إنه وبلا شك يعرف جيّدًا كيف يعيد نصفه الذي رحل مع الرصاصة، كان يرتجف مثل عصفورٍ مبتل، أخذ الزعيم المسدس من يده، طلب منه الذهاب ليستحمّ، ثم يرجع إليه بسرعة.. لن أستطيع، إن الشبح يُثقل كاهلي، سيقتلني حين أصير وحيدًا، ألا تراه؟ ها هو فوق جسدي يتربّص حتى يختلي بي، إنني خائفٌ جدًا، هذه أول مرّةٍ أكون فيها خائفًا إلى هذا الحد، ودّ أن يقول له ذلك، بيد أنه كتمه

في نفسه، خشي على حلمه من الضياع، أيعقل أن يخسر بعد كلّ ما فعله؟ لا، سأكابر وأذهب، وإن بدر من الشبح ما يشي برغبته بقتلي، سألحقه بصاحبه.

كانت خطواته ثقيلة، وكأنه يسير فوق طين، تغوص فيه قدماه، كاد يقع أكثر من مرّة، إلا أن العيون المحدّقة في ظهره منعته من ذلك، سيثبت لهم أنه مختلف، وُلد ليكون زعيمًا ولا شيء آخر.. لن أسقط مهما حدث، قدماي تعبتان، لا بأس، الشبح يدفعني ليدفنني في الطين، لن ينجح، إنني أتخيّل فقط، لا أعرف ما الذي حصل لي، ظننتُ أن الأمر سيكون سهلًا ممتعًا، ماذا حدث؟ أنت الفتى القويّ، لا تنسَ ذلك، تذكّر كم المخاطر التي جابهتها، تصوّر حجم المكافآت التي ستحظى بها حين تصير الزعيم، تحامل على وجعك وأكمل، أيام ويتلاشى الشبح، ستعتاد الأمر مثلما اعتدت غيره، ها قد بدأت بأخذ حقّك من رفضوك، افرح، يجب أن تفرح، لقد اقترب حلمك بالثأر والمال، ستشتري الكثير من الرجال وتجنّدهم لصالحك، سيصنعون لك ما تحب، فقط، اصبر قليلًا.

خلع ثيابه، خيل إليه أن نصف جسده تحوّل إلى شيءٍ غريب، برزت له مخالب طويلة، وشعرٌ كثيف، التفّ ونظر في المرآة، ارتعب حينما رأى نصف رأسه ممسوخًا إلى وحشٍ مخيف، رجّ رأسه ليطرد هذه التهيؤات اللعينة، تحسَّسَ رأسه، ووجهه، أوشك أن يبكي، صفع

نفسه ليفيق مما هو فيه.. لا، لستُ أنا الذي يبكيه قتل إنسان، ولا حتى قتل الناس جميعًا سيحرّك شعرةً في جسدي، لقد قتلوني ألف ألف مرّة، أنا سأكون أكثر رحمة منهم، لن أقتلهم إلا مرّةً واحدةً فقط، مرةً أبديّة.

رشّ جسده بالماء، اشتمّ رائحةً غريبةً تفوح منه، مثل رائحة دمٍ حار، نظر إلى الحوض فرآه أحمر، أغمض عينيه وهرب، ارتدى ثيابه، وركض إلى الميدان، شعر بيدين قويّتين تمسكان بقميصه وتشدّانه إلى الوراء، قاوم وقاوم قبل أن يسمع صوتًا يطلب منه الهدوء، كاد قلبه يتفجّر، التفت إلى مصدر الصوت، فرأى الزعيم، وحينها انهار، خرّ على ركبتيه وبكى.

رفعه الزعيم عن الأرض، أجلسه فوق كرسيّ، أعطاه حبّة مخدّر، قال له أنها ستأخذه إلى عالمٍ جميل.. إنهم يطلقون عليها فتاة السعادة، ستنسيك ما أنت فيه، لا تظن الأمر سهلًا، المرّة الأولى التي تنزع فيها روح إنسان هي الأصعب والأقسى، وستعاني حتى تسلب ضحيّةً جديدةً حياتها، وبعدها سيتحول القتل إلى متعة، لعبة تمارسها بلا مشاعر، وحتى ذلك الوقت سأعتني بك، الصراحة أنني أعجبت بك كثيرًا، وسأصطفيك، إنك تملك الجاذبية اللازمة للزعامة، اجتهد وأكمل التدريبات وبعدها سنرى ماذا نحن فاعلون.

خفف كلام الزعيم من خوفه، ابتلع الحبّة، نهض الزعيم وأشار إليه ليتبعه، خرجا إلى الميدان، بدأ تأثير الحبّة يسري في جسد حمزة، هدأت أعصابه، اعتراه الفرح، نزل الشبح عن كتفيه، طارده في الميدان وسط ضحك المدرّب عدنان والزعيم والمتدرّبين، ولما تأكد من هروبه بعيدًا، رجع إلى الزعيم، سار فتبعه إلى جناح الضيافة.

(ألك طاقةٌ بفتاة يا فتى؟)

(بل باثنتين)

ردّ حمزة فقهقه الزعيم.

(مع أن من يراك يخالك فتاة)

ضحك حمزة، تلاشى الخوف والندم تمامًا، دهمته دفقةٌ من جنون جامح، ودّ لو يمنحه الزعيم فرصةً أخرى ليقتل من جديد الآن، في هذه اللحظة بالذات، إنه على أهبّة الاستعداد لفعل ذلك، اجتاحته رغبةٌ عارمة في رؤية منظر الدماء.

(زعيم)

(ماذا هناك يا فتى؟)

(أريد أن أقتل)

(ليس الآن، يجب أن تجف دماء أول ضحيّة، هذا مبدأ من مبادئ العمل، يجب أن تنال أول ضحية قدسية خاصة؛ فهي الباب الذي نقلك إلى العالم الجديد، اليوم سنكتفي بالسهر والمتعة، القتل كثير في الأيام القادمة، ستملّ منه، أعدك بذلك)

دفعه إلى جناح الضيافة، كانت بانتظاره فتاتان جميلتان.

وفي هذا اليوم دشّن حمزة اسمه واحدًا من زعماء المرتزقة المرتقبين.

-٣٩-

هوَ

كيف حالك يا سيدي؟ أرأيت سيستغنون عنّي؟ هذا آخر شهرٍ لي في المدرسة، أمهلوني حتى نهايته، عليّ تدبير شؤوني؛ إما أن أعثر على عمل، أو أعود إلى وطني، ولا شيء لي في ذلك الوطن يا سيدي، ما الذي سأفعله هناك؟ لقد نجّاني الله من الجحيم بمعجزة، أنت لا تعلم ما الذي يحدث لنا هناك يا سيدي، إننا فقراء معدمون، وأنا التي تعيل أسرتها، أبعث لهم كلّ شهرٍ ثلثيّ معاشي، أنت تعلم يا سيدي أن معاشي قليل، ومع ذلك فهو أفضل من لا شيء، أحمد الله الذي منحني هذه الفرصة، أنا سعيدةٌ هنا وأتمنى البقاء، ولكن ما باليد حيلةٌ يا سيّدي، أتانا الأمر في الأمس، أنا وعشرٌ من صديقاتي، لقد بكين كثيرًا يا سيدي، الشيء الوحيد الذي يملكه الفقراء بكثرة هو الدموع يا سيدي، سنبحث عن عملٍ في البيوت، أنا لا أطيق ذلك ولكن بلاء أهون من بلاء، أليس كذلك يا سيدي؟ صديقاتي اللائي يعملن في البيوت يروين لنا قصصًا حزينة، يقلن يا سيدي، أرجوك لا تخبر

أحدًا بذلك، يقلن إنهن يعاملن كالعبيد في بعض البيوت، ليس الجميع سواسية بالتأكيد، فبعضهم الآخر يمدحن أسيادهنّ، يخبرنني كم هم طيبون، ولكنني أخاف حظّي يا سيدي، حظي لم يكن دائمًا سعيدًا، لذا فأنا خائفة، إلا أن العمل في الجحيم أفضل من العودة إلى إثيوبيا يا سيدي، أعتذر عن قول ذلك، ولكنها الحقيقة، نحن الفقيرات نستغلّ كثيرًا هناك، أتصدّق يا سيدي، لقد كانوا على وشك دفعي للعمل في أحد البيوت السيئة، هل تفهم ما أقصد يا سيدي؟ أعني تلك البيوت التي يمارس فيها أفعالٌ قذرة، يا إلهي الموت أفضل من ذلك، أعتذر يا سيدي لقد أزعجتك، ولكنني أحببتُ أن أودّعك، أنت رجلٌ طيب يا سيدي، ترانا وتسلّم علينا، كثيرون يعبرون بجانبنا ولا يعيروننا أدنى أهميّة، يخيّل إلينا أنهم لا يروننا، وكأننا حشراتٌ ضئيلة، كم هو شعورٌ مؤلم ذلك الذي يعترينا حينما يفعلون، حسنًا لقد أخذتُ الكثير من وقتك، سأودّعك الآن، أرجو أن تدعو لي يا سيدي، إن الله يجيب دعاء القلوب الطيّبة بسرعة، ادعُ لي، ربما لن أراك بعد اليوم، سأذهب إلى المبنى الآخر حتى نهاية الشهر، وبعدها، آه لا أدري ماذا سيحدث بعدها، المهم، مع السلامة يا سيدي، أرجوك ابق طيّبًا كما أنت، أشعرنا دائمًا بأنك ترانا جيّدًا، فليحفظك الله يا سيدي، مع السلامة.. مع السلامة.

إنها كاثرين الجميلة، ودّعته ورحلت بسرعة، استحت من دموعها، وخشيت أن يظن بأنها تستجدي منه مالاً، كل الذي أرادته هو شكره، وقد فعلت.

أشفق لها ولصديقاتها، اتّخذت المدرسة إجراءات تقشّف، ومنها طرد الكثير من العاملين، يُقال إن الحرب كلّفت الحكومة الكثير من المال، لعن الله الحروب التي تستنزف الدماء والنقود. كاثرين تعمل في

الأمن الخاص، تراقب الأبواب، لا تسمح للطلبة بالخروج إلا بتصريح، وكذلك تمنع الغرباء والأهالي من الدخول إلى الصفوف، تملك كاثرين شخصيّةً جذّابة، اجتماعيّة جدًا، تتحدّث مع الجميع، ويحبّها الجميع كذلك.

طالما أحب البسطاء، لا يشعر بالضغوط وهو بينهم، على عكس الأجواء المصطنعة، التي تُشعرك بأن كلّ حركة وسكنة منك مراقبة.. أتاحت له الكتابة فرصة الاطلاع على عالم الكتّاب والناشرين، تعرّف على بعضهم، كان أغلبهم مزيّفين، غير حقيقيين، يتصنّعون في كلّ شيء، حتى مشيتهم ووقفتهم وبسمتهم، يخلقون مواقف ليكتبوا عنها، عالمٌ مقنّع بألف قناع، أزعجه ذلك، صار يتهرّب من اللقاءات، ويعتذر عن حضور كثيرٍ من الفعاليّات، تمنى أن يجد في عالم الكتّاب ما يعينه على الخلاص من قصوره الاجتماعيّ، إلا أنه فاقم تلك المشكلة.

ففي هذا العالم المزيّف عليك أن تكون ممثلًا ممتازًا، ومنافقًا فذًّا، وكاذبًا لا يشقّ له غبار، وأن ترتدي العظمة، وتتظاهر بالمعرفة، وتخوض في كلّ شيء. لم يقوَ على ذلك، كان طوال عمره حقيقيًّا، هرب من هذا العالم المصبوغ بالمكياج، لم يقدر على تحمّل صديقه الذي ابتاع كلبًا ليكتب لمتابعيه على الفيسبوك عنه، والآخر الذي كان يتحدّث عن القراءة وعزوف الناس عنها وهو لا يقرأ، وغيرهم وغيرهم، عاد لوحدته، اكتفى بطيف أسماء يحدّثها وتحدّثه.

(لماذا فعلتِ ذلك؟ قتلتني فعلتك)

(لم يكن بيدي خيارٌ آخر، انتظرتك طويلًا فلم تأتِ)

(قلتُ لكِ، لم أكذب عليك، أخبرتك أنني معدمٌ، أحتاجُ بعض الوقت لجمع بعض المال وترتيب أموري)

(وما الذي يكفل لي نجاحك في ذلك، لقد تعبتُ من الانتظار، والعمر يمضي، إنني على أعتاب الثلاثين، أتعرف ما الذي يعنيه ذلك؟)

(ولكنكِ قلتِ بأنكِ تحبينني وستقفين إلى جانبي)

(نعم، ولا أعرف إن كان بوسعي نسيانك، ولكنّ الجميع دفعني لقبوله ورفضك، قالوا إنني مجنونة إن رفضته)

(عرفت، نعم عرفتُ أنه يعمل في الإمارات ويملك المال، وله بيتٌ يملكه، ولكن هل يحبّك مثلي؟ حتى إنك لا تعرفينه جيّدًا، سميّة هي التي أخبرته عنكِ، ألم تقولي أنك لن تتزوجي زواج صالونات، لن تمنحي قلبك لغريبٍ لا تعرفينه، لن يفوز بكِ إلا من يحبّك، أنا الذي أحببتك وأنا من خسر)

عقدت أسماء قرانها على ذلك الغريب، كان فرصةً لا تعوّض، استقالت من المركز، سيتزوجان ويسافران، لم يكن ليُشمت به العاملين، كانوا يعرفون قصّتهم، تظاهر بأنه من انسحب، يتماسك في العمل، وحين يعود إلى البيت، يدفن نفسه تحت الغطاء ويبكي بصمت، فقدت الدنيا معناها، خلَت من جمالها، صارت مقبرةً كبيرةً لا حياة فيها.

تساءل كيف سيواصل حياته بدونها، كيف سيذهب إلى العمل دون أن يجدها، انقلب العمل من جنّة إلى جحيم، صار أطلالاً لحبيبة فارقته ورحلت، يرى وجهها البريء في كلّ شيء: الجدران والأبوابَ

ووجوه الأطفال، حتى الأطفال كانوا يعلمون بحبّهما، وكأنهم يغيضونه، يسألونه عنها، أين ذهبت؟ تدمع عيناه، يخبرهم أنها تزوّجت وسافرت، يلقون في وجهه سؤالًا مفخّخًا؛ لماذا لم تتزوّجها أنت؟ ينفجر السؤال في قلبه، تُنبعث أمامه، تطمئن عليه، وتطلب منه مسامحتها، وألّا ينساها، وأن يبعث إليها قصصه الجديدة.

كانت ضربتها، مثل ضربة معولٍ في صخرةٍ انقسمت فظهر ذهبٌ كثير، قرر أن يقتحم عالم الكتابة الحقيقي، لن يكتفي بمعجبيه على الفيسبوك.. خلف كلّ عظيم ألم، ذلك ما اكتشفه وهو يخطّ أول رواية، لم يخطر له يومًا أنه سيقدر على كتابة رواية، إنها عملٌ صعبٌ جدًا، بحاجة إلى الموهبة والذاكرة الحديدية وجرح رائع يُلهمك. وهو يملكها الآن، اكتمل مثلّث الإبداع، حصل على جرحٍ جميل طازج، عليه أن يستغلّه بسرعة قبل اندماله.

شفته الكتابة والزمن، برد الجرح، صارت ذكرى جميلة، ولما أنهى أول رواية، سامحها، ولما سأله الناشر أن يبعث إليه الإهداء، لم يتردّد في كتابة:

إلى الخائنة الجميلة:

ما كنتُ لأكتب لولا جرحك..



-٣٠-



نظرت إلى البحر في الصباح، كانت تسأله إن وصل بريدٌ من ذاك الغريب، ركبت سيّارتها وغادرت إلى العمل، دعاها البحر للسلام عليه، ركنت السيّارة في موقف الشاطئ، خلعت حذاءها، وضعت قدماها في الماء، مشت فوق الرمل الناعم، داعبت المياه الدافئة رجليها، رفعت رأسها، السماء صافية، فردت يديها بعيدًا، تمنّت لو تستحيلُ نورسًا، جالت بعينيها على المكان، ما زال الوقت باكرًا، لا أحد غيرها، جلست فوق التراب، ضمّت ساقيها إلى صدرها، لفحتها نسمةٌ من سعادة، ثمة بهجةٌ في صدرها، لا، ربما حزنٌ جميل، ضحكت، هبطت من عينيها دموع، لم تخجل من البحر، لم تمسحها، تركتها على وجهها، دهمتها رغبةٌ في الرقص، احتجبت خلف مطعم صغير، ورقصت، وكأن البحر اضطرب لتمايلها، همّ بمشاركتها، إلا أنها أوقفته بيدها، صدّته..

... لا يا صديقي، فلنبق أصدقاء ذلك أفضل، إن رقصتَ معي سأحبّك وتحبّني، وبعدها سنفترق، سيصير من المحال أن نلتقي،

ابق بعيدًا، راقبني، لا بأس، وإن أحببت ارقص وأنا سأشاهدك، أما الرقص معًا، فاعذرني، لن أستطيع، لا تحزن أرجوك، ما رأيك لو تحتضنني قليلًا، لن أمانع في ذلك، لا تذهب، انتظرني ها أنا قادمة.

وكأنها في حالةٍ من التنويم المغناطيسي، أو السرنمة، لم تصحُ إلا بعدما صفع الماء وجهها، شهقت.. ما الذي جاء بي إلى هنا؟ خرجت مبلولة الثياب، استذكرت ما جرى، عرفت أنها انفصلت عن الواقع، ابتسمت، فهي الوحيدة التي تعرف كيف يحدث الأمر.. هل ارتوى جنونكَ؟ سألت ضاحكة، اقتعدت الرمال الساخنة، جفّت ملابسها قليلًا، ذهبت إلى السيّارة، شغّلت مقطوعات شوبان.. البيانو والبحر معًا، وأريد أن أنسى، يبدو أنني كاذبة، أخشى أن أموت إن نسيت، سينتهي دوري عند هذا الحد إن فعلت، سأتذكّر لأعيش، سأتألّم لأواصل الحكاية، لن أخرج منها قبل النهاية.

دبّت الحياة في أبوظبي الجميلة، الموظفون يقصدون أعمالهم، خليطٌ من غرباء ومواطنين يعيشون فوق أرضٍ واحدة، لماذا لا نعيش في عالمنا بسلام؟ ما الذي يدفعنا لنقتتل ونذبح بعضنا بعضًا؟ إننا نعرف جيّدًا أن الحروب لن تحقق مآرب من يُشعلها، بل إن نيرانها ستحرقه مثلما حرقت ضحاياه، الظلم والقهر والجهل والظلام، وَلَدت إنسانًا مشوّهًا، دفعت كثيرين إلى دروب الإجرام والإرهاب، متى ننجح في الاختبار الذي خُلقنا لأجله؟ الإعمار الذي لن يكون إلا بالسّلام.

ذابت في بيانو شوبان، حملها إلى دنيا الحب، وجهان يتناوبان على المرور أمام عينيها، تُغمضهما حين تلمح طيف علاء، أما حينما يظهر ذلك الغريب، فتجتهد لتمسك به، لتسمّره أمامها، تريد الاحتفاظ بما

بقي من ملامحه، ثمة أملٌ مجنون يراودها، يقول إن رسالتها ستصله، وتصدّقه بشدّة.

ركنت السيّارة في مرأب المستشفى، جذبت ثيابها المبللة الأنظار، صعدت إلى قسم الطب النفسي، ألقت التحيّة على زميلتيها ودلفت إلى خزانتها، صادفتها كيت التي ضحكت حينما دققت في ملابسها، سألتها عن السبب في ذلك، أخبرتها، قالت إنها شعرت بطاقة عجيبة تجذبها لعناق البحر، صارحتها كيت بضرورة استشارة طبيبٍ في حالتها، لا يجب أن تسكت على ذلك، زمّت فدوى شفتيها ساخرةً من كلام كيت، فتحت الخزانة، سحبت زيّ التمريض، نشرت ثيابها المبتلّة على حواف الخزانة وجانب النافذة، وخرجت إلى صالة الاستقبال لمباشرة عملها.

يوجد عدد قليل من المرضى كالعادة، دعتهم لإجراء الفحوصات الروتينية، زعق جرس الطبيب (جف) البريطاني، طلبت منها كيت الذهاب ورؤية ما يريده، دقّت الباب ودخلت، لم يكن الطبيب جف، بل طبيبٌ آخر لم تره من قبل.

(أنا الدكتور هاشم، الطبيب الجديد)



شمسٌ آفلة

أصيبت أم خلدون بخيبة أمل، لم يروِ وحيدها عطشها لدماء فدوى، فشلت تعليماتها وتوجيهاتها وحضورها في إنقاذه، أمرت فدوى بالتكتّم على الأمر، قالت إنه أمرٌ طبيعيّ يحدث لكثيرين، ربما أن أحدهم عمل عملًا لابنها كي لا ينجب.

أخذته ودارت به على الشيوخ، أكّدوا ظنونها، ثمة من صنع سحرًا لابنها، ولكنهم اختلفوا في مكان دفنه، بعضهم قال في البحر الميّت، وآخرون قالوا أسفل شجرةٍ هرمة في جبلٍ كثيف الأشجار، وغيرهم أشاروا إلى حفرةٍ عميقة في باطن الأرض، صنعوا لها الحُجب، وقرؤوا على خلدون، وسقوه ماءً مرقيًّا.. وكلّ ذلك لوجه الله تعالى، لم يطلبوا شيئًا، غير أن الزبائن يدفعون ما تجود به أنفسهم، وفي أغلب الأحيان تجود بالكثير لضمان فاعليّة السحر.

ظلت العقدة على حالها، تواصل عجز خلدون عن إراقة دماء فدوى، صبّت أمّه جام غضبها على فدوى، اتهمتها بأنها السبب فيما حدث، لقد تسببت في إحداث صدمةٍ لدى وحيدها، لكن لا بأس ستزوّجه غيرها، وستجعل منها خادمةً لهم.

التزمت فدوى الصمت، لم تناقش أو تجادل، اكتفت بالاستماع والضحك، كانت تغيظها بأقوى سلاحٍ تملكه، سلاح اللامبالاة، تقول لها افعلي ما تشائين، أنا لم أعد أكثر من جثّة، أيتها الحمقاء، كيف زوّجتِ ابنك لجثّة؟ ثمّ تريدين منه أن يملأ البيت أطفالًا، يا غبيّة، أنا غير صالحةٍ لذلك، هل سمعتِ يومًا بجثّةٍ تُنجب؟ وهل رأيتِ يومًا دمًا يسيل من جثّة؟

أمرت خلدون بضربها، ظنّت أن ضربه لها سيكسر عقدة الخوف في نفسه، سيعيد إليه رجولته المهزومة أمام جبروت هذه الفتاة الباغية؛ حطّم أسنانها، أدمى عينيها، كسر يدها اليمنى التي كانت تحمي بها رأسها، تقيأت.. تقيأت طفولتها، وأحلامها.. تقيأت بضعة أيامٍ سعيدةٍ عاشتها، أغمي عليها، سأل أمّه إن كان هذا يكفي، فأومأت أن نعم.

لم يهتموا إن كانت ماتت، سيرتاحون منها إن حدث ذلك، سيدفن عارهم مع جسدها في قبرٍ واحد، جاءت أمها لزيارتها، رأت آثار الضرب المبرح فوق جسدها، بكت بحرقة، ثم نصحتها بالصبر مثلها، لقد صبرت على ضرب أبيها أربعين سنةً، الفتاة ليس لها إلا بيت زوجها، لن

يتحمّلها أحدٌ سواه، لا مناص من الصبر، بقيت فدوى وفيّةً لصمتها، لم تُجب أمّها، تركتها تحدّث نفسها، ورحلت إلى حضن السيدة أمينة، هناك حيث وجدت الأمان، ألقت بحزنها بين ذراعيها، وبكتا معًا.. لماذا لم تزرني؟ لم تأتِ لتهنئتي بزواجي، عليها أن تجيء لترى أية نعمةٍ حظيتُ بها، أيّ عزٍّ أعيش فيه، تعالي لتنقذي ما تبقى من روحي، عجّلي فقد أوشكت أن أفقد عقلي.

استجابت السيدة أمينة لندائها، هرعت لنجدتها، جاءت مع زوجها تزورها وتطمئن عليها، انخلع قلبها لما اصطدمت عيناها بوجهها المزرقّ والمتورّم عن آخره، ركضت فدوى وتشبّثت بها، احتضنتها السيدة أمينة ودموعها تلسع وجهها بسوط العجز، وكأنها احتضنت كرةً من نار.. ماذا فعلوا بكِ يا صغيرتي؟ اللعنة عليهم، اللعنة على أبيك، اللعنة عليّ، حدّثيني عمّا فعلوه بكِ، سآخذك إلى الشرطة، سنشكو عليهم وأستردّكِ، أنتِ منذ البداية لي، هذا دليلٌ دامغ على أنهم لا يستحقونك.

بحثت فدوى عن صوتها فلم تجده، أمرته أن يقول ما يعتمل في نفسها، لم يطعها، أخبرته أن اللعبة انتهت، لقد كانت مجرّد تمثيلية أدّت فيها دور البكماء، أسدلت الستارة، إنها بحاجةٍ للبوح، خذلها، ما خرج من فيها إلا تمتماتٍ مبهمة عجزت السيدة أمينة عن فهمها.

قالت أم خلدون أنها أصيبت بالبكم قبل الزواج، ورغبةً منها في سترها وافقت على زواج ابنها بها، لم تكتفِ بذلك، بل أردفت أن الجنون سكنها، فقدت عقلها، صفعها جنّيٌ يتخذها خليلة على رأسها فجنّت، تتصرّف تمامًا كالمجانين، تضرب نفسها وتخمش وجهها، يحاولون منعها غير أنها تأبى.

أشارت فدوى برأسها إلى السيدة أمينة لا تصدّقيها، فهي كاذبة، لستُ مجنونة، غير أنني سأجنّ إن بقيتُ في هذا البيت، أرجوكِ لا تدعيهم يفقدونني عقلي، أوقفيهم، قولي لهم إن ما يفعلونه فيّ حرامٌ لا أحد يرضاه.

فهمت السيدة أمينة الرسالة، أسرّت في أذنها.. سأذهب إلى حماية الأسرة وأشكو عليهم، وسأرجع لآخذك، وهذه المرّة، أقسم ألا أتركك مهما كلّفني ذلك.



جرحٌ مفقود

حينما يتعرّض الإنسان إلى صدمة حادة فإما أن تقضي عليه أو توقظه.. الخبراء يعرفون ذلك جيّدًا، ويوظفونه بحسب المصلحة، مصلحة الزعيم كانت في القضاء على إنسانية حمزة نهائيًا، فذلك سيعود عليه بالخير الوفير، لقد حصل على ثروةٍ طائلة من وراء حمزة ومن هم على شاكلته، وسلطة يتمناها كثيرون، يُدفع له نظير خدمات عناصره مالًا وفيرًا، يأخذ هو وطاقمه المقرّب الحصّة الأكبر منه، لا يهمه إلى أي طرفٍ يُقاتل، فهو منحازٌ لمن يدفع أكثر، شارك في حروبٍ عديدة، وفي دولٍ شتى، يطلب الزعماء ودّه، يتواصل معهم بشكلٍ مباشر، يزورهم فيستقبلونه أفضل استقبال، يدّخرونه لساعاتِ الشدّة، لا يعلمون متى يحتاجونه، يزوّدونه بما يحتاجه جيشه من عتاد وأموال وتسهيلات.

خسر كثيرًا من جنده في الآونة الأخيرة، لذا كثّف نشاطه في البحث عن جدد وضمّهم، يمنح من يعينه على ذلك مكافآتٍ جزلة، الحروب التي اندلعت في المنطقة كلّفته غاليًا، مثلما غنم بسببها غنائم

نفيسة أيضًا، سيعدّ حمزة لقيادة المجموعة المسؤولة عن العمليّة القادمة في الأردن، حمزة ابن ذلك البلد ويعرفه جيّدًا، وهو الأقدر على تنفيذها بنجاح.

عاش حمزة ليلةً سريالية، كأميرٍ في عصورٍ غابرة، رقصت له فتياتٌ جميلة، أكل طعامًا شهيًّا، وشرب حتى فقد عقله عن آخره، منحه الزعيم إجازةً من التدريب في اليوم التالي، تركه نائمًا حتى الظهيرة، استعاد وعيه، ظل يشعر بصداعٍ في رأسه، أخذ حبّة كبتاجون، هرب التعب، انتابه المرح، خرج من جناح الضيافة، أخذه أحد الجنود إلى الزعيم، رحّب به، وطلب إليه اللحاق به.

هذه المرّة عليه ممارسة أعمال المرتزقة، لن يكتفي بقتل ضحيّته، بل عليه التمثيل بها، نزع عينيها، بقر بطنها، تقطيع أطرافها، وعلى المستجدّين رؤية ذلك لمعرفة ما الذي ينتظرهم، لا سبيل للتراجع، لقد وطئوا الرمال المتحرّكة، لا مناص من الغوص فيها إلى أسفل، سيأتي دورهم قريبًا، عليهم أن يستعدّوا لذلك جيّدًا.

في الميدان ثمة رجلٌ موثقٌ من أطرافه بأوتادٍ قويّة، مكمم الفم، أخطر ما في الضحايا توسّلاتهم، التي تجد منفذًا إلى قلّب جلّادها أحيانًا، أو بالأحرى إلى ما تبقّى من ذلك القلب، ولكي يوفّروا على القتلة الصغار عناء ذلك، يُصمتون الضحيّة، الخطر الآخر يتمثّل في الرعب واستجداء العينين، وتغطى أيضًا درءًا للشفقة.

(هذا ما ستفعله به)

أراه الزعيم صورةً لجثّةٍ مشوّهة، دقق فيها حمزة، دهمته نشوةٌ عجيبة، سيجرّب شيئًا جديدًا، شعر بمذاقٍ حلوٍ في فمه، ابتسم للزعيم، أخذ الساطور من يده، لوّح به، اقترب من الضحيّة، نظر إلى زملائه المتدرّبين لاحت على وجوههم علائم الرعب، المدرّب عدنان وجهه جامد لم يبدُ عليه اكتراث، الزعيم يدخّن سيجارته ويبتسم.

وكأن حمزة مدعوٌّ إلى حفلة زواج من تلك الحفلات التي شهدها في قريته، لوّح بالساطور ودبك بقدميه، ثم هوى به على رأس الضحيّة، صدر عن الارتطام صوت كالرعد، شخب الدم من الرأس، رشق وجه حمزة الذي شدّ يديه ورأسه وهزّهما منتشيًّا، مسح الدم عن وجهه، شعر بأنيابٍ ضخمة تبرز في فمه، وغريزةٍ جديدة تنمو في نفسه دعته إلى الإجهاز على ضحيته، فصل الرأس عن الجسد بضربةٍ قاصمة، ثم بتر اليدين من الكتف، والقدمين من أعلى الفخذين، بعدها بقر البطن، لم يتمالك نفسه، انكبّ على أشلاء الضحية يقطّعها إربًا إربًا بضرباتٍ سريعةٍ متلاحقة، واصل التقطيع حتى أصيب بالإنهاك التام، حمل الرأس المشوّه، وأطلق صرخة مرعبة، شقّ الوحش جسده وخرج منه.



-٣١-

هوَ

حاجة الإنسان إلى الانتماء لمجموعة تشبه أحجية، لماذا يبحث الإنسان عمّن يماثلونه وينضمّ إليهم؟ أيكون لإشعاره بالأمان أو بالقوّة؟

كان يسأل نفسه هذه الأسئلة كلما رأى تجمّعًا مثيرًا، أحيانًا يكون للهنديين، وأخرى للبنغال، على اعتبار أنهم أكثر الأيدي العاملة الموجودة في المدينة التي يعمل فيها. يقترب منهم بخبث الكتّاب محاولًا تجميع قصص تصلُح للكتابة، بيد أن حاجز اللغة يقف عائقًا مانعًا أمام ذلك؛ غالبيةً التجمّعات يتحدثون بلغة الأوردو، يرطنون بها بسرعةٍ مهولة، تبدو كلماتها كأنها متشابكةٌ بعضها مع بعض.

يوم الجمعة يكونون مقتعدين النجيل الأخضر زرافات زرافات، يعبر بينهم طمعًا في الظفر بشيء، بعضهم يلعبون لعبةً تشبه لعبة السلّم والثعبان، آخرون يتحلّقون في دائرة حول صحن حمص وصحن فول وزجاجة مشروب غازي. وجوهٌ مرهقة، يرتدون أزياء موحدة، قميص طويل يصل إلى الركبة وبنطال من نفس اللون وصندل أو خف.

يخرج من الصلاة، يذهب إلى الحلّاق ليقصّ شعره، صالونٌ واسع فيه خمسة حلّاقين، يعامله الحلّاق الذي صار زبونًا لديه بخصوصيّة، يقضي وقتًا طويلًا في قصّ شعره وتشذيب لحيته؛ ليعطيه المبلغ الذي يطلبه دون نقاش، يدفع قرابة العشرة دنانير، وهو مبلغٌ كبير إذا ما قورن بما كان يدفعه لحلّاقه في الأردن، والذي لا يتجاوز في أحسن الأحوال الأربعة دنانير. وهو جالسٌ على الكرسيّ يدور حديثٌ بين الحلّاقين بالأوردو، لا يتحدثون إلا بلهجتهم، مع أن عددًا لا بأس به منهم يتحدّث الإنجليزية بطلاقة، ولكنهم يخشون أن يفهم ما يقولونه، يجتهد في تخمين موضوع الحوار، يتمنى ألّا يكون هو المستهدف.

يخرج من الصالون، يعرّج على الجمعيّة، وهي سوقٌ ضخم فيه كلّ ما يحتاجونه، يبتاع منها مؤونة الأسبوع، يضع في السلّة كل ما تشتهيه نفسه، إنه يملك المال، لا يهمّ كم سيدفع في النهاية، لم يعد ذلك المُعدم الذي يحسب مصروفه بالورقة والقلم، يضبطه بدقّة، ولا قرش زيادة، وحين يجيء آخر الشهر وينفد معاشه دون أن يقبض الجديد، يدور مثل المضروب على رأسه، لا يدري ما يفعل، وكيف يصرّف شؤونه حتى يهلّ المعاش.

كان يمشي في الشوارع أحيانًا؛ أملًا في العثور على نقودٍ ضائعة هنا أو هناك، يحلم على طريقة الأفلام السينمائية بحقيبةٍ مترعة بالمال، ينظر بعينيّ صقرٍ جائع إلى جنبات الطرق، وفي كلّ مرّةٍ يرجع خائبًا، لا حلّ أمامه سوى الاستدانة، اتّفق مع صاحب متجر قريب على أخذ ما يحتاجه على أن يسدد لاحقًا..

... وبعد ذلك ألوم أسماء لأنها اختارت صاحب المال، لقد فعلت عين الصواب، من أين كنتُ سأتزوّجها وأنفق عليها، الحبّ مهما

كان عظيمًا فهو لا يصمد أمام معول الفقر، سينهار على رأس بانيه، الجيوب الخاوية تقتل الأحلام الغنيّة، تلك هي الحقيقة التي لا شكّ فيها، إنني أتمنى لها الخير دائمًا، لولا جرحها ما كنتُ لأصل إلى ما أنا فيه الآن.

إبان زواجها التحق بالجامعة ليحضّر الماجستير في اللغة العربيّة، انهمك في الدراسة التي أنسته، هوّن عليه الإنجاز خيبته، وكأنه دخل تحدّيًا خفيًّا مع أسماء.. سأريها ما الذي خسرَته، ستندم، سأجعلها تندم على فعلتها، مثلي لا يوجد في الحياةِ مرّتين.

أصرّ على بلوغ القمّة، وحينما نزف الجرح حبرًا، انفرجت أساريره عن آخرها، ولما دشّن أول رواية وعقب حفل توقيع لم يحلم به؛ شهده عددٌ مهول، عاد إلى البيت إنسانًا جديدًا، كان ذلكً في آخر سنةٍ له في برنامج الدكتوراه في اللغة العربية.

أيقن أنها ستفرج، وأن الحال سيتبدّل، وحين سمع مشرفه على أطروحة الدكتوراه يقول: «قرّرت لجنة المناقشة منح الطالب حمزة محمد سعيد حسن درجة الدكتوراه في اللغة العربية». حلّق بجناحين قويّين، ارتفع عاليًا في فضاء الحلم، وقتئذٍ صالحه أبوه وسامحه على قطيعته لهم، لا يهم، فقد حصل على شهادةٍ ستمنحه الحق في التفاخر بابنه الدكتور أمام الناس.

والآن مع كلّ حوالة ماليّة يرسلها إلى أهله، يوقن أن الله اختار له الأفضل، وحمده في سرّه؛ لأنه لم يستجب لدعائه العريض بالجمع بينه وبين أسماء، الآن توجد العديد من الفتيات يتودّدن إليه، بعضهن عرفهن في عمله القديم، وأخريات في الجامعة، هو بالنسبة لهن صيدٌ ثمين؛ دكتور وكاتب، الفتيات يعشقن الكتّاب، لمَ ذلك يا ترى؟ ما الذي

يغريها في حياة مع إنسانٍ سيقضي أغلب وقته منطويًا وحيدًا، لا يكترث بشؤونها، لن يعيش معها تفاصيل كثيرة، وأحيانًا سينساها، رغمًا عنه سيفعل، من تتزوّج كاتبًا، عليها أن تدرك أن لها ضرّةً يعشقها، ولن تفلح في إزاحتها من عقله وقلبه.. ربما رغبة الفتاة في الخلود هي التي تدفعها إلى الرضا بنصف حياةٍ مع نصف زوج.

يعجبه أحيانًا دور كازنوفا الذي يمنحنه إياه، يخال نفسه ذلك الرجل الوسيم، النجم الذي ما إن يعبر بين جمعٍ من فتيات، حتى يغمى على بعضهن ويصرخ بعضهن ويهجم عليه ثالثٌ، مَن مِن الرجال لا يحب ذلك؟ إلا أنه لا واحدة منهن أثارت في نفسه عاطفة الحب.. واستطاعت تلك الغريبة في بعض يوم ما لم تستطعه غيرها في سنوات، ما هو السرّ فيها؟ أيّ غموض يلفّ الحب؟ أيّ سحرٍ يسكنه؟ أيعقل ما حدث لي؟ هل سنتقابل مرّةً أخرى؟ وما الذي سأفعله إن حدث ذلك؟ لقد استغرق منّي بوحي بحبّي لأسماء سنةً ونيّف، ولولا أنني أخبرتها بذلك من وراء جدار ما كنتُ فعلتُ مطلقًا، يا ليَ من جبانٍ بائس، أمنح أبطال رواياتي الشجاعة ليفعلوا ما أعجز عنه، أسماءٌ على ورق أكثر شجاعةً منّي، يا لبؤسي، لا، إن حصل وصادفتها من جديد لن أسمح لها بالرحيل، ولو أدّى ذلك إلى قتلي، لقد تعلّمتُ أن الحبّ معدنٌ نفيس ليس من السهل العثور عليه، ولو ظللتُ أعزب طوال عمري، لن أتزوّج إلا فتاةً أحبّها حبًّا جامحًا مجنونًا.

أعطى المحاسب البنغالي بطاقة الفيزا، خصم منها ٦٥٤ درهمًا، جرّ العربة المترعة بالمواد التموينية، وضعها في صندوق السيارة، ركن زميله في العمل وابن بلده الذي لا يحبّه ولا يعرف لماذا يوسف سيارته بجانبه، سلّم عليه.

(ما شاء اللّه، ربما لم تبقِ لي شيئًا أشتريه)

لم يدرِ بماذا يجيب، ولا كيف يتخلّص من هذا الموقف.

(سنلعب كرة قدم يوم الإثنين القادم، ما رأيك أن تشاركنا؟)

(إن شاء اللّه، يسعدني ذلك)

أجاب باقتضاب.

(حسنًا، أراك لاحقًا، مع السلامة)

لا يشعر بالراحة في التعامل مع كثيرٍ من العرب، على عكس الأجانب، إنهم يعرفون حدودهم جيّدًا، لا يتدخّلون فيما لا يعنيهم، يحترمونك بصرف النظر عن أيّ اختلاف بينك وبينهم، وهي صفاتٌ لا يجدها في كثيرٍ من زملائه العرب.

إنها الحقيقة المزعجة التي لا بدّ من الاعتراف بها، يهيأ إليه أنه لو عاش في مجتمع غربيّ لكان تخلّص من مشاكله الاجتماعية، التي تمنى أن يشفى منها في أثناء تحضيره للماجستير والدكتوراه، غير أنه فشل، ظن أن الارتفاع في الشهادة العلميّة يزيد من صفاء النفس، بيد أنه وجد عكس ذلك تمامًا؛ زملاؤه في الدراسة بدوا له مثل الأطفال في المدرسة، يتنافسون بضراوة، يعملون من وراء بعضهم البعض، ولا بأس في الحديث بسوءٍ عن أحدهم في غيابه، وأحيانًا أمام المحاضِر، أصيب بخيبة أملٍ كبيرة، فرضت عليه مزيدًا من العزلة، فضّل الاعتكاف في المكتبة، وملء فراغه بالمطالعة والكتابة.

في طريقه إلى البيت صادف زميله في العمل وابن بلده مؤيّدًا، والذي يرتاح له ولا يعرف السبب في ذلك، أشار له، توقّف.

(مرحبا يا حمزة، كيف حالك؟)

(أهلًا مؤيد، الحمد لله)

(سنذهب في رحلةٍ إلى المرفأ آخر الشهر، ما رأيك أن ترافقنا؟)

وافق على الفور، إنه بحاجةٍ ماسّة للقاء البحر.



-٣٢-



الكاتب يعرف جيّدًا أن الحياة تفوق أية رواية، إنها تُدرك ذلك، ما حصل معها جعلها تتقبّل الأحداث غير المتوقعة بصدر رحب، لا شيء مستحيل، ولا شيء خياليّ، ما دمنا على قيد الحياة فكلّ شيءٍ ممكن، باتت تصدّق القصص العجيبة التي تسمعها، حتى لو قال لها أحدهم أنه يعيش مع مخلوقٍ فضائي لن تكذّبه؛ فالحياة أكثر غرابة من ذلك.

لا شك في أن حياة الإنسان تسير وفق سنن، ولكن ألا تحدث أحيانًا معجزات تخترق هذه السنن؟ لو ندقّق في حياتنا، سنعثر على تلك المعجزات، غير أننا للأسف فقدنا دهشتنا، تجتاحنا معجزةٌ تقلب حياتنا رأسًا على عقب ونكاد لا نشعر بها، تبدو لنا الأشياء متشابهة، لا فرق بينها، نتعامل معها بآليّة مقيتة، دون التدقيق في جوهرها، ولذا فقد كلّ ثمين قيمته، بات يتساوى مع التوافه، لا أحد يحفل به وبتفرّده، المأساة الحقَّة في هذا الزمن هي أن الإنسان مات في داخله الإنسان.. فقد الاتصال بمن حوله، يتقوقع على نفسه، يسعى لإشباع رغباته

الآنيّة بسرعة، لا يهم كيف، المهم أن تلبّى حاجات تلك الغرائز، تمّت عملية برمجة الإنسان الحديث بنجاح باهر، قُتلت كثيرٌ من الميّزات والطاقات التي ولد بها، عُطّل عقله، وجُمِّد قلبه، لذا لا عجب من الفظائع التي يرتكبها؛ فلو كان إنسانًا لما فعل ذلك.

منحت الكتابة فدوى روحًا جديدة، وأنعشت فيها قدرات مُحتضرة، استعادت دهشتها، وحرّرت عقلها، وأحيت قلبها، تستوقفها أدنى التفاصيل، تدقّق في أصغر الأحداث.. تفكّر، وتحلّل، وتنقد، وتستخرج الحِكم والدروس، لا شيء يحدث عبثًا في هذا الكون، ثمة سبب، لا بد من وجوده سواء أدركنا ذلك أم لا.

بدأ الطبيب الأردنيّ الجديد (إبراهيم) يتودّد إلى فدوى، شغلته الدراسة فلم يتزوّج حتى الآن، يكبرها بعام واحد فقط، لم يصرّح لها بذلك، إلا أن هذه الأمور لا تحتاج إلى تصريح أو تلميح، لا تتطلّب أكثر من الشعور بها، لا يوجد فتاة تعجز عن إدراك حقيقة مشاعر محدّثها، فهي تمتلك غريزةً تُعلمها بذلك، تبوح لها بما يعتمل في نفسه، ولما تلتقي الأعين، يتأكد حدسها؛ ترى في عينيه بريق كلام مكتوم، تفكّ شيفرته بسهولة، فتخجل، يطفو خجلها على وجنتيها، فيخفق قلب الرجل في صدره مثل طبلٍ ضخم، يعلم حينها أن رسالته قُرئت وفُهمت، يرتبك، هل يُفصح عن مشاعره أم يؤجل ذلك إلى موعد مناسب، تشاهد الفتاة ارتباكه فتهرب من حلاوة وحرارة المشهد، لا يمكنها المقاومة أكثر، تفزع إلى مرآتها، تنظر فيها، تأمل ألا يكون وجهها فضحها، ولكن هيهات، تبدو ملامحها كأنها تبدّلت، تجتهد في لملمتها، تستجمع قوّتها وتعود لممارسة أنوثتها، تتدلّل وتبتعد، تتحرّق شوقًا لمطاردته لها، وحين تشعر بتعبه، تُشفق عليه، تقف ليلحق بها، ويبوح بكلامٍ صريح مليح، تتوق لسماعه منذ زمنٍ طويل.

اضطربت فدوى، لم ترغب في التفكير بالأمر، بيد أنه غلبها؛ لم تفكّر إلا فيه.. لستُ مستعدّةً لهذا، أنا على ذمّةِ حبٍّ آخر، لن أخدعه، سأخبره صراحةً بذلك. بدأ المونولوج القاسي:

(أنتِ لا تعرفينه، ذلك مجرّد غريبٍ التقيته، وقد لا تتاح لك الفرصة للقائه مجدّدًا)

(نعم، أنا لا أعرفه، ولكنني أصدّق قلبي)

(تصدّقين قلبك؟! ألم يخدعكِ من قبل؟)

(لا، لم يفعل، في تلك المرّة، خانتنا الظروف)

(تكذبين، لا توجد ظروف تقدر على قتل الحب الصادق)

(حتى لو، سأصدّقه، لقد أنعشه ذلك الغريب، ومن حقّه نيل الشكر مقابل ذلك)

(أنتِ واهمة، تظنّين أن بإمكانك التحكّم بالحياة مثلما تفعلين في قصصك، تتخيّلين أن بوسعكِ تسيير شخصيّاتها مثلما تشائين، الحياة ليست قصّة، وأنتِ لستِ إله)

(أستغفر اللّه، ومن قال ذلك؟ بالتأكيد لستُ إله، ولكنني أؤمن باللّه، ولذا فأنا أؤمن بمعجزاته، أعرف أن ثمة خوارق تحدث في حياة الناس)

(وتخالين نفسك من أولئك الأشخاص، مثلما يظنّ كلّ الناس، الجميع يعتقد أنه مميّز، وسيحدث له يومًا ما شيءٌ خارقٌ يقلب حياته)

(أنا متأكدةٌ من ذلك، الجميع يحدث لهم ذلك الشيء الخارق، إلا أن من يشعرون به قلّة، لذلك يدركون حقيقته، يرون جوهره، يعرفون أنه خارق)

(هذا الطبيب فرصةٌ لا تعوّض)

(كم أنتِ حمقاء! وهل حدّثكِ بشيء لتفكّري فيه كلّ هذا التفكير؟)

(أنتِ الآن تتصنّعين دور الغبيّة)

(حسنًا، إنني متعبة، لن أواصل هذا النقاش، سنكمله لاحقًا، سنكمله حين يفاتحكِ بالأمر، ارتحتِ؟!)

تزايد اهتمامه بها، لاحظت كيت ذلك، همزت ولمزت، تظاهرت فدوى بعدم الفهم، أصيبت بحالةٍ من التشوّش لم تتوقّعها، وخاصة في هذا الوقت بالذات، سيجبرها هذا التشوّش على التوقّف عن إكمال روايتها (بحرٌ مفقود).. إنه أمرٌ خطير، إن توقّفت عن الكتابة الآن، فلن أتمّها، سينقطع الإلهام، وستهرب الشخصيّات بعيدًا، وستضيع الأحداث، سأفشل في تجميعها، سيذهب جهدي هباءً، إنني أعوّل عليها كثيرًا؛ فهي أقوى ما كتبتُ حتى الآن.

انبثق في نفسها شعورٌ جميل، اجتهدت في كبته، لم تفلح، ليس سهلًا أن ترى أحدًا يحبّك كلّ يومٍ ولا تتأثر، لن تكون إنسانًا إذن.

الطبيب إبراهيم، شابٌ وسيم، دمث الأخلاق، شديد الطيبة، يتعامل مع المرضى بقلبه، يخرجون من عيادته مسرورين، ويخفض جناحه لعمّال النظافة، يلقي عليهم التحايا ويبشّ في وجوههم، تسلّل إلى قلبها بخفّة.

كانت في مكتب الاستقبال حين فوجئت به، ارتبكت، همّت بالهرب، بيد أنه قطع عليها الطريق.

(هل تمانعين في احتساء القهوة معي بعد انتهاء العمل؟)



-٣٣-

هوَ

تمنى لو يعيشُ مغامرةً مجنونة مع واحدةٍ من فتيات هذه المدينة الصغيرة التي يعمل فيها، المدينة الحصينة، المحجوبة عن ضيوفها بأسوارٍ من عزلة يفرضها ساكنوها على أنفسهم، ولا يسمحون لمن هم من خارجها في اختراقها، هذه المدينة التي أحبّها كثيرًا، غير أنها ظلّت عصيّةً متمرّدةً، عجز عن ترويضها، كانت أبوابها صلبة، لم يقوَ على كسرها، وبقيت الكثير من الأسرار خلفها، ربما حرمه قصوره الاجتماعيّ من الاطلاع على خفايا كانت لتُكشف له لو كان أكثر جرأة.

من كان يتصوّر أن يكتب مجدّدًا عن فتاة من بلده؟ إن الأمر برمّته أقرب إلى الجنون، موقفٌ صغير يُحدث في حياته كل هذا الانقلاب، ولكن كيف ستكون النهاية؟ هل سيعيش حياته حاملًا ندبةً جديدة؟ أم أن للحكاية نهاية مختلفة؟

تهيأ للذهاب إلى المرفأ عصر يوم الخميس، عقب انتهاء العمل، لم تتح له الفرصة لمواصلة الكتابة، سيُكمل حين يرجع من المرفأ، المدينة المنتجع، هكذا أسماها بعد أن زارها أوّل مرّة، قريةٌ صغيرة تُجاور بحرًا مفتوحًا لا نهاية له، يلتقي في الأفق مع السماء، يتّحدان في لوحةٍ مذهلة أصابته بالثمالة حينما رآها، تبعد عن مدينة زايد ثلاثين دقيقة.

وضع حاجاته في صندوق السيّارة، ذهب إلى بيت مؤيد، وجدهم هناك، عشرة زملاء، كلّهم أردنيون، انطلقوا بشكلٍ متتابع، الطريق إلى المرفأ مليئة بالشاحنات، فهي طريقٌ خارجية توصل إلى السعودية، وتسمى (طريق الغويفات الدولي)، السرعة على هذا الطريق لا يجب أن تقل عن ١٢٠كم/س.

قاد السيّارة، كان وحيدًا، يشرد في ذلك الماضي الذي عاشه، سأل نفسه، لماذا نحبس أنفسنا في حياة انصرمت؟ إننا بذلك نحرم أنفسنا من حياةٍ حقيقية أجمل بكثير، عليّ أن أنسى، أنا الآن إنسانٌ جديد، ولي الحق في البحث عن السعادة، لقد تجاوزت الخامسة والثلاثين قبل شهر، يجب أن أسعى إلى تأسيس أسرة، يكفي، لقد جنّنتني الوحدة والتفكير، سأضع حدًا لكلّ هذا.

... إنني مثل هذه الصحراء الشاسعة، مساحةٌ فارغة، لا يعمرها سوى الخيال، وذكريات مثل نخلات طاعنات في السّن، وأشباح تطير في داخلي، يقتاتون على حزني وفرحي، يأكلون تفكيري، يتلاعبون بأعصابي، لا يتركونني إلا حين أنام، لا أعلم أين يذهبون، وذات مرّة صحوتُ فزعًا، بحثتُ عنهم فلم أجدهم، أصبتُ بحمى الفقد، ولم أشفَ إلا بعدما عادوا، أنا بدونهم لا شيء، ولكن آن الأوان لنملأ هذا

الفراغ بأناسٍ حقيقيين، عالم الخيال جميل، إلا أنه مرعب، يجعلك مختلفًا في نظرٍ القريب والبعيد، والأهم في نظر نفسك، أنت تعلم جيّدًا أنك لستَ كغيرك، وتتوق أحيانًا لتعيش حياةً طبيعية، تتمنى معرفة بماذا يشعر الآخرون، وما هي الاستجابة الطبيعية للمواقف المختلفة، إنها الضريبة التي لا بدّ من دفعها، لا شيء بالمجّان، فما بالك بشيءٍ بقيمة الكتابة.

ركنوا السيّارات بجانب البحر، حملوا حاجاتهم وهبطوا إلى الشاطئ، فرشوا البُسط، نصبوا مواقد الشواء، جهّزوا الأراجيل.. عشرة زملاء قضيتُ معهم سنتين، وها أنا مثل الغريب بينهم، أحاول الاندماج معهم فلا أفلح، لا أعرف ما هو الحل لذلك؟ إنهم يعتقدون أنني متكبّر، لا، أنا لستُ متكبّرًا، ولكنني لا أجد الكثير لأقوله لكم، ولا آبه بترهاتكم، أجتهد في مجاراتكم، فأفشل، عليكم تقبّلي مثلما أنا، أعرف أن وجودي يثقُل عليكم، ولولا وجود مؤيّد ما كنتُ لأرافقكم، أنا بحاجةٍ إلى الفرار مما يعتمل في نفسي، وذلك دافعٌ آخر لمجيئي معكم، أما السبب الأكبر فهو شوقي لهذا الأزرق، كان من الممكن أن آتي وحدي، إلا أنني أحببتُ مشاهدة تعامل الناس مع البحر، وللأسف حصل ما توقّعت، لم يعيرونه أدنى اهتمام، لا فرق عندهم إن كان ما أمامهم بحرًا أم صحراء، كم أنا محبطٌ حزين.

انسلّ من بينهم، عنّفوا مؤيّدًا لأنه أحضره.

(إنه طيّب وتلك طبيعته)

ردّ عليهم مؤيّد.

خلع حذاءه، وضع قدميه في الماء، تناهى إلى مسمعه صوت موسيقى، بيانو، خيّل إليه أنها آتيةٌ من داخل البحر.. لا ينقصني سوى هذا، ولكن ما المانع من وجود كائناتٍ في باطن هذا الأزرق بإمكانها العزف؟!

ارتفع الصوت أكثر وأكثر، تلفّت حوله، يبدو أن لا أحد غيره يسمعه، رأى شيئًا صغيرًا يحمله الموج إلى الشاطئ، وكلما اقترب أكثر صار صوتُ الموسيقى أعلى.

سرت في جسده رعدة، اقشعرّ بدنه، أما قلبه فكاد يخلع ضلوع صدره، وقف وراح يمشي نحوه، بات قريبًا جدًّا، سمع صوت موسيقى يعرفها، إنها المقطوعة التي عزفها (رايان غوسلينج) في فيلم (لا لا لاند)، ولكن أيعقل أن تصدر من هذه الزجاجة؟!



النهاية

ما هو السرّ في عشقنا للنهايات؟ لماذا نتوق للوصول بسرعة؟ باتت حياتنا سباقًا نحو النهاية القادمة، فقدنا الاستمتاع بالرحلة، لا يهمنا إلا بلوغ محطّة النهاية الجديدة، يفوتنا الكثير من الجمال في أثناء التنقّل من محطّة إلى محطّة، لم نعد نحسب أعمارنا بالسنوات، بل بعدد المحطّات التي قطعناها، ليست النهاية هي ما خُلق الإنسان لأجله، ولكن ما الذي فعله في الطريق إليها، والنهاية ليس بالضرورة أن تعبّر عن حقيقة الرحلة، بعض النهايات تكون حزينة مفجعة، غير أن رحلتها كانت في غاية السرور والسعادة، وثمة نهاياتٌ أخرى جميلة كانت طُرقها مرصوفةً بالألم.

لن أضع نهايةً لهم، سأمنحهم الفرصة ليفعلوا بأنفسهم، لربما نجحوا فيما سأفشل فيه.



البداية

خرجنا من سينما نوفو أنا وزوجتي بعدما شاهدنا فيلم (لا لا لاند)، انتابني إحساسٌ غريب دفعني إلى الجلوس قليلًا في صالة الانتظار، صفعتني كميّة الإبداع الموجودة في هذا الفيلم، كانت قصّته بسيطة، إلا أن الموسيقى المرافقة والمشاهد والألوان، تغلغلت في نفسي، ظنّت زوجتي أنني أصبتُ بصداع، ذهبت لتجلب زجاجة ماء، كنتُ جالسًا في ركنٍ قصيّ، فرأيتُ شابًّا يقرأ كتاب ماركيز (عشتُ لأروي)، يسترق النظر إلى فتاة تطالع رواية (ألف شمسٍ مشرقة)، وكانت تختلس النظر إليه أيضًا.

لم يُغادر مشهدهما خيالي، وفي أثناء عودتنا إلى البيت، ركبا معنا في السيّارة، وعاشا معنا أربعة أشهر، وذات صباح، استيقظتُ فلم أجدهما، رحلا، وإلى الآن لم أسمع عنهما خبرًا.

تمّت

محطّة

كنتُ مسافرًا إلى الأردن لقضاء إجازة الصيف، ركبتُ في الطائرة، دخلتُ في برزخ بين النوم والصحو، أخذتُ أطالع الأخبار على هاتفي، قرأتُ خبرًا، لا أدري إن كان ذلك حقيقة أم خيالًا، يقول: (انتحار فتاة مجنونة في العشرين من عمرها تُدعى فدوى!)، اعتراني حزنٌ ممض، ربما تكون فدوى التي أخبرتكم عنها، وربما تكون أخرى، لستُ متأكّدًا من ذلك.

نظرتُ من نافذة الطائرة إلى الأرض البعيدة، تخيّلتني أجلس فوق واحدةٍ من هذه الغيوم، تكون لي بمثابة بساطٍ سحريّ، أخرجني صوتُ كابتن الطائرة من لجّة أفكاري المجنونة، قال بصوتٍ حزين:

(السادة الركّاب هنا الكابتن يرجى العلم أننا سنضطرّ إلى الهبوط في مطار الرياض، حدثت مشكلة في مطار الملكة علياء نأمل حلّها قريبًا)

سمعتُ همهمات تفيد بقيام مجموعة من المرتزقة بعمل إرهابي استهدف المطار، خُيِّل إليّ أنني نائم، ربما، ما أدراني إن كنتُ يقظًا أم نائمًا؟ لعلّي أنا الآخر من ابتداع عقلِ أحدهم يلهو بي حتى تجيء النهاية.

لا، لن أنتظر النهاية، ولا يهمّني متى ستأتي، أدركُ جيّدًا أن لي إرادةً حرّة تتيح لي فرصة عمل ما أريد عند الضرورة.

شغّلتُ فيلم (باسنجر)، مجموعة من الأشخاص يذهبون في رحلةٍ إلى كوكبٍ بعيد، تمّ تنويمهم في حجراتٍ خاصّة، وسيستيقظون بعد مئات السنين.. إنها مجدّدًا رحلة البحث عن نهايةٍ جديدة غريبة.

تناهى إلى مسمعي صوتُ المقطوعة التي عُزفت في فيلم (لا لا لاند) تخرج من هاتف أحدهم، التفتّ، لمحتُ وجهًا، أظنني أعرفه، الممرضة فدوى!، ليست وحيدة، كانت تحمل طفلًا ،إذن فلقد تزوّجت، ولكن من منهما، بحثتُ عن زوجها، لم يكن معها.

